

شعر الرثاء في الأندلس في ظل بني الأحمر

إعداد

فاطمة مفلح مرشد العبدالات

المشرف

الدكتور حمدي منصور

المشرف المشارك

الاستاذ الدكتور صلاح جرار

قدمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات درجة الماجستير في
اللغة العربية وآدابها

كلية الدراسات العليا

الجامعة الأردنية

كانون الأول ٢٠٠٢

قرار لجنة المناقشة

نوقشت هذه الرسالة وأجيزت بتاريخ ١٢/١٢/٢٠٠٢م.

أعضاء لجنة المناقشة:

التوقيع

.....

الدكتور حمدي منصوري - مشرفا

الدكتور صلاح جزار - مشرفا مشاركا

الدكتورة عصمة غوشة - عضوا

الدكتور عبد الكريم الحيارى - عضوا

الدكتور يونس شنوان - عضوا

الإهداء

إلى نجوم دنيائى الصغيرة ... أمى وأبى وأختى فائز وأخوانى د. ممدوح والمخرج
محمد وزوجته والمهندس محمود والعزیز جمال .

وإلى كل من اتخذ لغة الضاد لغة، واعتقد بالإسلام قولاً وعملاً، من أهل الأندلس منذ
شروق شمس الإسلام عليها وإلى غروبها عنها وإلى يحيى بن عاصم ولسان الدين وابن عبد
البر إليهم جميعاً أهدي هذا العمل المتواضع .

" والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون " ٢١ يوسف

فهرس المحتويات

الموضوع	الصفحة
قرار لجنة المناقشة	ب
الإهداء	ج
الشكر	د
قائمة المحتويات	٥ - و
الملخص بالعربية	ز - ح
المقدمة	١ - ٣
التمهيد	٤ - ٢٦
الفصل الأول:	
الرثاء الخاص	٢٧ - ٦٥
رثاء الآباء	٢٨ - ٣٢
رثاء الأمهات	٣٢ - ٣٣
رثاء الأبناء	٣٣ - ٤٥
رثاء الأخوة	٤٥ - ٤٩
رثاء الزوجات	٤٩ - ٥٧
رثاء الأخوال	٥٧ - ٦٠
رثاء الأصدقاء	٦٠ - ٦٥
الفصل الثاني:	
الرثاء الرسمي	٦٦ - ١١٦
رثاء الملوك والأمراء	٦٦ - ٨١
رثاء الوزراء	٨٢ - ٩٥
رثاء آل البيت	٩٦ - ١٠٠
رثاء العلماء والأدباء	١٠١ - ١١٣
رثاء الشهداء	١١٤ - ١١٦

الصفحة	الموضوع
	الفصل الثالث:
١٢٣-١١٧	اتجاهات أخرى في الرثاء
١١٨-١١٧	رثاء الجوّاري والغلمان
١٢٣-١١٩	رثاء الحيوان
	الفصل الرابع :
١٢٦-١٢٤	أ- رثاء النفس
١٣٧-١٢٧	ب- الرثاء على شواهد القبور
	الفصل الخامس:
١٦٣-١٣٨	رثاء البلاد والمدن والقلاع
	الفصل السادس:
٢٣٧-١٦٤	الدراسة الفنية
١٨٢-١٦٤	بنية القصيدة
٢٠٩-١٨٢	اللغة والأسلوب
٢١٦-٢١٠	الاتباعية
٢٢٤-٢١٦	الصنعة البديعية
٢٣٧-٢٢٤	الصورة الشعرية
٢٣٨	الخاتمة
٢٤٩-٢٣٩	قائمة بالمراجع والمصادر
٢٥٠	الملخص باللغة الإنجليزية

ملخص
شعر الرثاء في الأندلس في ظل بني الأحمر
إعداد

فاطمة مفلح مرشد العبدالات
المشرف

الدكتور حمدي منصور

المشرف المشارك

الأستاذ الدكتور صلاح جرار

تناولت هذه الدراسة موضوع "شعر الرثاء في الأندلس في ظل بني الأحمر"، وقد تجلت أهمية هذه الدراسة من وجود أشعار رثاء نظمت في هذا العصر، وتباينت ألوانها، وتعددت مضامينها.

وجاءت هذه الدراسة لتعطي صورة متكاملة عن الرثاء في ذلك العصر، ولتكشف عن ألوانه، وما طرأ عليها من تطور وتجديد، وعن المضامين المختلفة لكل لون منها، ولتبين نظرة الشعراء للموت، ومواجهتهم له فرثوا أنفسهم، ومن حولهم، وصوروا ألم فقد الأعزاء وخسارة البلاد.

وتقف هذه الدراسة على السمات الفنية لغرض الرثاء في ذلك العصر، وقامت هذه الدراسة على أساس منهج استقرائي وصفي وتحليلي. وقد اشتملت على تمهيد، وستة فصول، وخاتمة.

أما الفصل الأول فتناول الأشعار التي نظمت في رثاء الأقارب، وظهر فيها أن الشعراء رثوا آباءهم، وأمهاتهم، وأخوالهم، وأبناءهم، وإخوانهم، وزوجاتهم، وأصدقاءهم. وتحدث الفصل الثاني عن رثاء الملوك، والأمراء، والوزراء، وآل البيت، والعلماء والشهداء، وتبين غزارة الشعر الذي نظم في رثاء الملوك، والأمراء، والعلماء، وبينت الدراسة دوافعهم إلى ذلك.

وخصّص الفصل الثالث للحديث عن اتجاهات أخرى في الرثاء، من رثاء للجواري والغلمان، ورثاء للحيوان، وتبين أن هذا اللون من الرثاء من أقل ألوان الرثاء قصائد اعتماداً على ما وصل إلينا لآن من مصادر.

وتناول الفصل الرابع رثاء النفس، والرثاء المنقوش على شواهد القبور، فبين اهتمام الأندلسيين في عصر بني الأحمر بهذين اللونين، كما تبين قلة عدد أبيات الرثاء على شواهد قبور العامة، وكثرتها على شواهد قبور الخاصة لاسيما الملوك.

وتحدث الفصل الخامس عن مرآتي المدن، والبلاد، والقلاع التي سقطت في ذلك العصر، وتبين تفاوت الشعراء بين الأمل، واليأس بعودة البلاد واسترجاع المدن.

واشتمل الفصل السادس على السمات الفنية لشعر الرثاء في تلك الحقبة، فتم الحديث عن لغة ذلك الشعر، وخصائصه الأسلوبية، والاتباعية، والفنون البديعية، والصورة الشعرية، وانتهت الرسالة بخاتمة أجملت فيها أهم النتائج التي توصل إليها البحث.

الشكر

أشكر الله وأحمده عز وجل ثم أشكر الدكتور حمدي منصور والأستاذ الدكتور صلاح جرار على جهدهما المتواصل معي طوال عملي في الرسالة ، كما أزجي الشكر إلى أعضاء لجنة المناقشة الدكتورة عصمة غوشة، والدكتور عبد الكريم الحيارى، والدكتور يونس شنوان أشكرهم جميعاً على جهودهم في قراءة الرسالة وإبداء الملاحظات التي ستكون — بعون الله تعالى — محط اهتمامي وعنايتي، وإلى كل من ساهم في إخراج هذا العمل إلى حيز الوجود .

المقدمة

الحمد لله الذي يرث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين الذي كتب على عباده الفناء واستأثر بالبقاء، فسبحانه الحي الذي لا يموت، وبعد، إن شعر الرثاء من أكثر الأشعار قرباً إلى الصدق وإلى الألم، وليس أدعى للأسى في التاريخ الإسلامي من ذكر الأندلس وليس ادعى للألم من تذكر غرناطة، لذا آثرت أن أدرس شعر الرثاء في عصر بين الأحمر بألوانه المختلفة.

ولقد عني بعض الباحثين بدراسة الرثاء في الأندلس ضمن كتبهم التي تناولت أدب الأندلس، أو حياة بعض أدباء عصر بني الأحمر، ولم تكن دراسة مستقلة بدراسة هذا الغرض الشعري وحصر ألوانه وتناول مضامينه المختلفة، الأمر الذي دفعني إلى دراسته، وقد تفاوتت تلك الدراسات في مدى اهتمامها بالرثاء في عصر بني الأحمر، فبعضها أشار إليه في سياق الحديث عن أدب ذلك العصر ومنها ما درس شعر الرثاء عند شاعر بعينه عاش في تلك الفترة، ومن تلك الدراسات:

- كتاب "القصيدة الأندلسية خلال القرن الثامن الهجري" للدكتور عبد الحميد الهرامة درس فيه قصائد القرن الثامن من حيث القضايا والظواهر والأبنية الفنية، وعرج على بعض قصائد الرثاء في ذلك القرن.

- ولا يقل كتاب قاسم الحسيني المعنون بـ "الشعر الأندلسي في القرن التاسع الهجري"، أهمية عن سابقه، فقد اهتم بدراسة الشعر الأندلسي في القرن التاسع الهجري، من حيث الموضوعات والخصائص والفنية وعرض نماذج من قصائد الرثاء في ذلك القرن.

- وللدكتور محمد رضوان الداية كتاب "أبو البقاء الرندي شاعر رثاء الأندلس"، وفيه بين مكانة أبي البقاء في الحركة الأدبية في الأندلس، كاتباً، وشاعراً، وناقداً، وتطرق إلى بعض قصائد الرثاء لأبي البقاء، ومنها نونيته الشهيرة.

- أما الطاهر مكي في كتابه "دراسات أندلسية في الأدب والتاريخ والفلسفة" وعبد الله الزيات برسالة الماجستير المعنونة "رثاء المدن في الشعر الأندلسي" فقد انصب اهتمامهما على لون واحد من ألوان الرثاء وهو رثاء المدن في الأندلس.

- أما محمد سرميني فقد عرض في رسالة الماجستير المعنونة بـ "خصائص الشعر الأندلس في عصر غرناطة"، لبعض النماذج لأغراض الشعر في ظل بني الأحمر ومنها الرثاء دون أن يتعمق فيه.

وعبد الله عنان في كتابه "نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين" عمد إلى بيان الملامح الفكرية لعصر سقوط غرناطة.

أما د. يوسف شكري فرحات في كتابه "غرناطة في ظل بني الأحمر"، فقد استعرض الحركة الأدبية في عهد بني الأحمر استعراضاً عاماً.

وشجعتني على دراسة هذا الموضوع أيضاً أهميته، وما يحمله من قيمة إنسانية وأخلاقية تقوم على احترام مشاعر الحزن والألم ومرارة الفقد ومحاولة الشعراء رسم صورة المثل الأفضل في مراتبهم ومن هنا جاءت هذه الدراسة تهدف إلى:

- تقديم صورة متكاملة عن شعر الرثاء في عصر بني الأحمر بألوانه المختلفة وما طرأ عليها من تطور وتجديد.

- التفصيل في مضامينها المختلفة فمع تعاضد ألوان الرثاء بعضها ببعض إلا أن هناك طابعا لكل منها.

- الوقوف على السمات الفنية لشعر الرثاء في عصر بني الأحمر.

وتناولت هذه الدراسة شعر الرثاء في فترة حكم بني الأحمر الممتدة من (٦٣٥هـ - ٨٩٧هـ) وقد شملت هذه الدراسة مراثي الشعراء الذين عاشوا خارج تلك البيئة ولكنهم نظموا في رثاء مدنها كما أنهم عاشوا فترة تحت ظلها، ولم يدخل شعر الوصية قبل الموت في هذه الدراسة.

أما عن منهجي في هذه الرسالة فقد اتبعت المنهج الاستقرائي الوصفي التحليلي، فعكفت على جمع المادة الشعرية من مظانها المختلفة وطفقت أدرسها وأصنفها وأحلها وحرصت على حصر ألوان الرثاء ودراسة كل لون على حدة، وتناول القضايا التي طرقها الشعراء.

ولقد واجهتني في ذلك مصاعب جمة أهمها تشابه المعاني والمضامين بين ألوان الرثاء وصعوبة تنسيقها وتنظيمها.

وقد بنيت هذه الدراسة على تمهيد وستة فصول وخاتمة، خصص الفصل الأول للحديث عن رثاء الأقارب وبدأت بالأصول منهم ثم الفروع ثم الأصدقاء.

وتناول الفصل الثاني مراثي الملوك والأمراء والوزراء وآل البيت والعلماء والشهداء فيما يسمى بالرثاء الرسمي، وقد كان حجم الأشعار لرثائهم كبيراً لاسيما رثاء الملوك والعلماء وقد بينت الدوافع وراء ذلك والمناقب التي رثاها الشعراء فيهم، ومعالجتهم لغرض التعزية والتهنئة.

وعالج الفصل الثالث اتجاهات أخرى في الرثاء من رثاء للجواري والعلماء والحيوان وتناول الفصل الرابع رثاء النفس والرثاء المسجل على شواهد القبور وفصلت في مضامين تلك الاتجاهات والمعاني التي ركز عليها الشعراء خلال رثائهم.

واشتمل الفصل الخامس على رثاء البلاد والمدن والقلاع، وتحدثت الفصل السادس عن الدراسة الفنية وتناولت فيه أهم السمات الفنية لشعر الرثاء في تلك الحقبة فتحدثت عن اللغة والأسلوب والاتباعية والبيعة البديعية والصورة الشعرية.

وينتهي البحث بخاتمة أجملت فيها النتائج التي توصلت إليها.

وفي الختام أتوجه بالشكر الجزيل إلى أستاذي الكريمين الدكتور حمدي منصور والأستاذ الدكتور صلاح جرار، فكلاهما قد أحاطني برعايته واهتمامه، فأرشداً ونصحاً وصوباً، فجزاهما الله عني خير الجزاء.

فاطمة مفلح مرشد العبدالات

التمهيد

الحياة السياسية في مملكة غرناطة

في عصر بني الأحمر

(٦٣٥هـ - ٨٩٧هـ / ١٢٣٨م - ١٤٩٢م)

ما إن أطل القرن السابع ببعض سنينه حتى أخذ نفوذ الموحدين بالانحسار عن الأندلس، لا سيما بعد هزيمتهم في معركة العقاب عام ٦٠٩هـ أمام القوى النصرانية المتحالفة^(١).

فالناصرى في الاستقصا يقول عن معركة "العقاب" : "كانت سبب ضعف المسلمين بالمغرب والأندلس واستيلاء العدو الكافر على جل ثغورها وحصونها"^(٢)

وهكذا في هذه الفترة المضطربة من تاريخ الأندلس تداعت بعض المدن والحصون الأندلسية أمام الهجمات المعادية لها.^(٣)

وسط هذه الظروف من ضعف المسلمين وتفرق كلمتهم ظهر محمد بن يوسف بن هود الجذامي فدعا الناس واستتبرهم فيايعة أهل مُرسية عام ٦٢٥هـ^(٤) ، ولكنه على شجاعته لم يوفق في أغلب معاركه^(٥).

وفي عام ٦٣٠هـ عقد ابن هود صلحا مع الاسبان لاشتغاله بقتال ابن الأحمر والياجي ، على أن يدفع للاسبان ألف دينار كل يوم^(٦)

* العقاب : تقع بيت بين جيان وقلعة رباح ، انظر : الحميري ، روضة المعطار ، ١٣٨

(١) المقرئ ، نفح الطيب ، م ٤٤٦/١ ، وانظر : الناصري الاستقصا لخبار المغرب الأقصا ج ٣/٣٧ ، وانظر عنان ، نهاية الأندلس ٢٠ ، وانظر مجهول ، الحل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية ١٦١ ، وانظر : ابن أبي زرع الفاسي ، الأنيس المطرب بروض القرطاس ٢٩٩

(٢) الناصري ، الاستقصا ، ج ٣/٣٧

(٣) انظر تفصيل سقوط بعض المدن والحصون في هذه الفترة : المقرئ ، نفح الطيب م ٤٧٢/٤ ، ٤٥٧ ، ٤٥٦ . وانظر : ابن الخطيب ، اعمال الاعلام ٢٩٣ ، وانظر : عنان ، نهاية الأندلس ٢٠

وانظر : العميرة ، محمد نايف ، مراحل سقوط الثغور الأندلسية في يد الاسبان ٣٠٤ - ٣٠٦

(٤) انظر : المقرئ ، نفح الطيب . م ٤٤٦/١ ، وانظر : ابن الخطيب ، الإحاطة م ١٢٨/٢ وانظر : ابن أبي زرع الفاسي ، الأنيس المطرب ٢٧٤ .

(٥) انظر : ابن الخطيب ، الإحاطة ، م ١٢٨/٢ و ١٢٩ وانظر : ابن الخطيب اعمال الاعلام ٢٧٨

(٦) انظر : ابن أبي زرع الفاسي ، الأنيس المطرب ، ٢٧٥ ، وانظر ابن خلدون العبر ... م ٣٦٥/٤ ، ٣٦٣

ولقد كان لظهور ابن الاحمر في حصن (أرجونة) ومنازعته لابن هود في امر الاندلس اثر في سقوط بعض الحصون والمدن الاندلسية^(١)

وفي عام ٦٣١ هـ جاهر ابن الاحمر بطاعته لابن هود^(٢) ولكن ابن هود قُتل بعد ذلك في المريّة عام ٦٣٥ هـ^(٣)

عصر التأسيس :

وهكذا ، استقام الامر لابن الاحمر بعد مقتل ابن هود ، فدخل غرناطة في رمضان عام ٦٣٥ هـ^(٤) وبويع اميرا للمسلمين وتلقب بالغالب بالله^(٥) واصبح بمساعدة من اصهاره بني اشقيلولة حاكما على ما تبقى من اراضي الاندلس^(٦) واصبحت غرناطة كرسيا لحكم ابن الاحمر بعد ان انحصر وجود المسلمين في جنوب الاندلس القديمة^(٧) أو كما قال الناصري لجأ المسلمون الى "سيف البحر معتصمين بأوعاره ومتشبثين بمعاقله وحصونه"^(٨)

وبدأ الغالب بالله الشيخ المؤسس في تثبيت دعائم دولته، فقد كان "جنديا ثغريا شهما عظيم التجلـد رافضا للدعة والراحلة"^(٩) ، وفي عام ٦٧١ هـ توفي الشيخ

(١) انظر : ابن خلدون ، العبر ... م ٨٠٤/٧ وانظر الناصري ، الاستقصا ج ٣/٢٧ ، ٣٨

(٢) انظر : ابن خلدون العبر .. م ٣٦٧/٤ ، وانظر : ابن ابي زرع ، الاتيس المطرب ، ٢٧٦

(٣) انظر : نفح الطيب ، م ٣٨٤/٤ ، ٣٨٥ وانظر : ابن الخطيب ، الاحاطة . ج ٢/١٣٢ ، وانظر : ابن خلدون ، العبر ... م ٣٦٤/٤ .

* أرجونة انظر : الحموي ، ياقوت ، معجم البلدان ، ج ١/١٤٤ . وانظر : الحميري ، الروض المعطار . ١٢ .

* انظر : ترجمة ابن الاحمر عند : ابن الخطيب ، اللحة البدرية ٤٢ . والصفدي ، الوافي بالوفيات ج ٥/ ٢٥٥ .

(٤) انظر : ابن الخطيب ، اللحة البدرية في الدولة النصرية ٤٧

(٥) اشتق محمد بن يوسف الاحمر من لقبه الغالب بالله علاقته (لا غالب الا الله)، انظر: ابو الوليد، ابن الاحمر ، مستودع العلامة ٢١

(٦) انظر الناصري الاستقصا ، ج ٣/٤٠ وانظر : ابن الخطيب ، اللحة البدرية ٥٧

(٧) انظر ابن خلدون ، العبر ... م ٣٦٨/٤

(٨) الناصري ، الاستقصا ج ٣/٣٨

(٩) ابن الخطيب ، اللحة البدرية ، ٤٣

المؤسس ، وخلفه ولده أبو عبد الله محمد الملقب بالفقيه الذي وصفه لسان الدين بن الخطيب بأنه: "ممهد الدولة الذي وضع القاب خدمتها وقدر مراتبها"^(١).

وفي عهده ظهرت فتنة الاصحار من بني اشقيلولة ، وتدخلت دولة بني مرين لنزع الفتنة بأن عوضت بني اشقيلولة بقصر كتامه في بر العدو^(٢).

وبعد وفاة الملك محمد الثاني الملقب بالفقيه تولى الحكم ولده محمد الثالث الملقب بالمخلوع (٧٠١-٧٠٨ هـ) الذي بنى المسجد الاعظم بحمرء غرناطة^(٣) ولقد خلع عام ٧٠٨ هـ ونقل الى مدينة "المنكب" واستولى على الحكم اخوه ابو الجيوش نصر^(٤) (من عام ٧٠٨ هـ الى ٣١٧ هـ) ، ولم تستقر احوال المملكة في عهده لاسيما وقد عين للوزارة ابن الحاج الذي استظهر على الرعية بالقهر والعسف^(٥) وفي عهده استولى القشتاليون على جبل طارق سنة ٧٠٩ هـ واستولى المرينيون على سبته في العام نفسه ، وشغب عليه ابن عمه ابو سعيد بن اسماعيل الاول حاكم ملقا واستمر الحال بين حرب وهدنة الى حين وفاته ٧٢٢ هـ^(٦) تبوأ العرش بعد أبي الجيوش ابن عمه ابو الوليد اسماعيل الاول بن فرج واستقرت امور المملكة في عهده. وواصل الجهاد وحقق النصر^(٧) على النصارى بمساعدة شيخ الغزاة أبي العلاء سليل بني مرين^(٨) ولكنه قتل غدرا على يد ابن عمه^(٩).

(١) ابن الخطيب : المصدر السابق نفسه ، ٥٠ .

(٢) انظر: خلاف اسرة بني الاحمر مع بني اشقيلولة عند: ابن الخطيب، اللوحة البدرية ٥٧، وانظر:

الاستقصا ج ٤٠/٣ وانظر ابن خلدون: العبر م ٤٠٦/٧-٤٠٨، وانظر: ابن الخطيب، اعمال الاعلام، ٢٨٧ .

(٣) انظر : ابن الخطيب ، اللوحة البدرية ٦٠-٦٢ .

(٤) ابن الخطيب : المصدر السابق نفسه ، الصفحات نفسها

(٥) انظر : ابن خلدون ، العبر ... م ٣٧٢/٢ .

(٦) انظر : ابن الخطيب ، اللوحة البدرية ، ٧١-٧٦ ، وانظر : عنان نهاية الاندلس ١٢٢ .

(٧) انظر : ابن الخطيب ، اللوحة البدرية ، ٨٥ .

(٨) انظر : ابن خلدون ، العبر ... م ٣٧٣/٤ .

(٩) ابن خلدون : المصدر السابق نفسه ، المجلد نفسه . الصفحة نفسها .

وتولى الملك بعده ابنه أبو عبد الله محمد الرابع ٧٢٥هـ ، وكان لا يزال فتى وصفه لسان الدين بن الخطيب بأنه "المثل المضروب في الشجاعة المقتحمة حد التهور"^(١) واستطاع تخلص جبل طارق من القشتاليين بمساعدة من المرينيين سنة ٧٣٣هـ ، بعد مرور عشرين عاما على سقوطه بأيديهم لكنه قتل غدرا بتحريض من بني أبي العلاء سنة ٧٣٣هـ^(٢)

وارتقى العرش من بعده اخوه أبو الحجاج يوسف الأول. وهو لم يجاوز سن المراهقة بعد ، وكان الغالب على أيام حكمه الخير والهدنة والصلاح^(٣) واستطاع القضاء على نفوذ بني أبي العلاء قتلة أخيه حيث انتزع منهم مشيخة الغزاة وعهد بها الى بني رحو ، وفي عهده كانت موقعة طريف ٧٤٠هـ التي انتهت بهزيمة المسلمين^(٤)، ولقد قتل (يوسف الاول) يوم عيد الفطر أثناء صلاة العيد عام ٧٥٥هـ^(٥)

وتولى الحكم بعده ابنه محمد الغني بالله الذي تُعدُّ أيام حكمه أيام ازدهار للدولة الاحمرية^(٦) ، وفي عام ٧٦٠هـ ثار عليه اخوه اسماعيل واستولى على الحكم ، وجاز الغني بالله الى بر العدو واستقبله أبو سالم المريني سلطان المغرب بحفاوة^(٧)

لكن اسماعيل قتل على يد صهره محمد بن اسماعيل عام ٧٦١هـ الذي أصبح حاكما لمملكة غرناطة^(٨) ، ولم يطل مقامه اذ فر الى ملك قشتاله بعد ان علم بقدوم الغني بالله الى الاندلس ، لكن ملك قشتاله قتله ومن معه وبعث برؤوسهم الى الغني بالله^(٩) الذي بدا

(١) ابن الخطيب ، اللوحة البدرية ، ٩٠ .

(٢) ابن الخطيب : المصدر السابق ٩٦ ، ٩٧ ، وانظر : ابن الخطيب ، أعمال الإعلام ٢٩٨ وانظر عنان نهاية الاندلس ١٢٥

(٣) ابن الخطيب ، اللوحة البدرية ١٠٩

(٤) انظر : ابن الخطيب ، أعمال الإعلام ٣٠٥ وانظر : اللوحة البدرية ١٠٩ وانظر : ابن خلدون ، العبر ... د ٥٤٤/٧ - ٥٤٦ .

(٥) انظر : ابن الخطيب ، الإحاطة م ١/ ١٤٩ ، واللمحة البدرية ١١٠ وانظر عنان ، نهاية الاندلس ١٣٤

(٦) انظر : السخاوي . شمس الدين محمد الضوء اللامع مع لأهل القرن التاسع ، ج ١٠/ ٦٨

(٧) انظر : السخاوي . المصدر السابق نفسه ، والجزء نفسه ، من الصفحة نفسها ، وانظر : ابن عاصم مقدمة جنة الرضى ، تحقيق ، صلاح جرار ص ١٤ وما بعدها .

(٨) المقرئ ، أزهار الرياض في اخبار عياض ، ج ١/ ٦٥

(٩) الناصري ، الاستقصا ، ج ٤/ ١٠٢

المرحلة الثانية لحكمه بمساعده وزيره ابن الخطيب ثم وزيره ابن زمرك بعد مقتل ابن الخطيب^(١).

توفي الغني بالله سنة ٧٩٣هـ . وتولى الحكم بعده ابنه أبو الحجاج يوسف الثاني، الذي كانت مدة حكمه بين حرب وهدنه مع القشتاليين كما وتعرض خلالها لكثير من الفتن والدسائس من أقاربه وحاشيته^(٢) وكانت وفاته عام ٧٩٧هـ ، ليتسلم الحكم من بعده ولده محمد بن يوسف بن محمد الغني بالله (٧٩٧-٨١٠هـ) الذي توفي عام ٨١٥هـ ، ليتبوأ العرش أخوه يوسف الثالث (٨١٠-٨٢٠هـ) الذي دافع عن أنتقيره لكنها سقطت بيد القشتاليين سنة ٨١٢هـ^(٣) واستمر حكمه لعام ٨٢٠هـ وبه اختتمت غرناطة تاريخ ملوكها الاقوياء .

مرحلة السقوط :

أول أولئك الملوك الضعاف هو ابن يوسف الثالث ابو عبد الله محمد الملقب بالأيسر ، ففي عهده ساءت الاحوال وشهدت البلاد الكثير من الحروب الداخلية والخارجية^(٤) ، ولم يحسن الأيسر ادارة البلاد فأطلت فتنة ابن المول يوسف بن محمد برأسها سنة ٨٣٥هـ وخلع الأيسر عدة مرات وعاد إلى الحكم بعد كل منها^(٥)

ويعلق المقرئ على هذه الحال قائلاً : "واستمر الامر بالجزيرة على هذه الحالة مدة ، والمسلمون لا يزدادون الا ضعفا والعدو تكالبا وشدة"^(٦) واستمر التطاحن والصراع

(١) انظر: ابن خلدون، العبر ... م ٧٠٧/٧-٧٠٩، وانظر عنان، لسان الدين بن الخطيب حياته وتراثه الفكري

١٥٠-١٧٦، وانظر: الناصري، الاستقصا، ج ٤/٥٨ وانظر عنان، نهاية الاندلس ١٤٥.

(٢) انظر: الناصري، الاستقصا، ج ٤/٨١، ٨٢، وانظر ابن خلدون. العبر ... م ٣٨٤/٤.

(٣) يوسف الثالث، ديوان ملك غرناطة، تحقيق عبد الله كنون، ٧٠.

(٤) انظر: السخاوي. شمس الدين محمد الضوء اللامع مع الاهل القرن التاسع، ج ١٠/٦٨.

(٥) انظر: السخاوي، المصدر السابق نفسه، والجزء نفسه، من الصفحة نفسها، وانظر: ابن عاصم مقدمة جنة

الرضى، تحقيق السابق نفسه، والجزء نفسه، من الصفحة نفسها، وانظر: ابن عاصم مقدمة جنة الرضى،

تحقيق صلاح جرار، ص ١٤ وما بعدها.

(٦) المقرئ، أزهار الرياض في اخبار عياض، ج ١/٦٥.

والشقاق الى ما بعد سنة ٨٦٧هـ وفيها انتزع العرش الأمير سعد بن محمد بن أبيه ثم ما لبث ان ثار عليه ولده أبو الحسن علي في السنة نفسها^(١) .

ولم يأت عام ٨٨٧هـ حتى ثار عليه شقيقه أبو عبد الله الزغل^(٢) واستقل بما لقا ، ثم ما لبث أن استمر وتكثف التصارع حينما ثار أبو عبد الله محمد علي أبي الحسن بل واستطاع انتزاع العرش من أبيه ولكنه أسر في إحدى المعارك مع القشتاليين عام ٨٨٨هـ^(٣) وكان أسره أحد أسباب سقوط مملكة غرناطة^(٤) ، فتولى الحكم عمه الزغل ٨٩٠هـ ، ولكن القشتاليين ما لبثوا ان أطلقوا سراح أبي عبد الله الصغير للتشغيب على عمه ولتفريق كلمة المسلمين^(٥) ، وطالت الفتنه ، وتداعت الحصون والمدن تباعا في سقوطها أمام قوة الاسبان وضعف المسلمين وتفرقهم حتى استطاع الاسبان التهام أجزاء المملكة بلدة بلدة وحصنا حصنا ومدينة مدينة حتى سقطت غرناطة نفسها بعد حصار دام عدة أشهر ، وبذلك اسدلت الستارة على أحد معاقل الإسلام في أوروبا وعلى ثمانية قرون عربية في اسبانيا .

(١) الناصري ، الاستقصا ، ج ٤ / ١٠٢

(٢) الناصري ، الاستقصا ، ج ٤ / ١٠٢

(٣) انظر : مجهول ، نبذة العصر ٦٠ و ٦٧ وانظر : المقرئ ، نفح الطيب م ٤ / ٥١٢ و ٥١٥

(٤) انظر : الناصري ، الاستقصا ج ٤ / ١٠٣-١٠٥

وانظر تفصيلات معاهدة تسليم غرناطة حتى جواز أبي عبد الله الصغير الى فاس عند : مجهول ، نبذة العصر ١٢٤ وما بعدها ، وانظر : المقرئ ، ازهار الرياض ج ١ / ٦٧ وانظر : في باشا الاندلس الداهية ج ٣ / ٣١١ وانظر : عنان ، نهاية الاندلس ٢٤٤-٢٧٠ وانظر : نفح الطيب م ٤ / ٥١٧ وانظر بول ، استانلي لين ، قصة العرب في اسبانيا ، ترجمة علي الجارم ١٩٢ .

الحياة الاجتماعية

شكلت مملكة غرناطة المثوى الطبيعي والمعتل الاخير لمعظم المهاجرين الأندلسيين الذين فروا أو طردوا أو رفضوا التدجن في بلادهم بعد سقوطها بيد القوى الإسبانية . وقد استقرت غالبية المهاجرين في الأرباض ، ففي غرناطة مثلاً استقر بعض المهاجرين في ربض نجد في الجنوب وبعضهم في ربض الفخارين في الجنوب الشرقي وفي ربض البيازين في الشمال أو في ربض الرملة في الغرب^(١) مما جعل غرناطة في القرن الرابع عشر الميلادي إحدى المدن المكتظة بالسكان^(٢) . ويعبر عن ذلك صاحب "نفح الطيب" بقوله: "وضاق الملك بعد اتساعه وصار تتين العدو يلتقم كل وقت بلداً أو حصناً"^(٣) والمقصود بغرناطة في هذه الدراسة "مملكة غرناطة" وغرناطة وأغرناطة اسم اعجمي مدينة كورة البيرة ، وكانت البيرة هي قاعدة الملك في القديم^(٤) إلا أن رسمها قد درس ، وارت غرناطة كرسيا لملك بني الأحمر^(٥) ويؤكد ياقوت الحموي ما ذكر عن غرناطة مضيفاً أن معنى غرناطة رمانة وسميت بذلك لحسنها وهي "من أقدم مدن كورة البيرة من أعمال الأندلس وأعظمها وأحسنها وأحصنها"^(٦) وقد عدد ابن الخطيب الأقاليم التابعة لمملكة غرناطة^(٧)

-
- (١) انظر مفتاح ، محمد ، مقالة مفهوم الجهاد والاتحاد في الأدب الأندلسي ، عالم الفكر ، الكويت م ١٢ / العدو الأول / ١٩٨١م ، وانظر ابن الخطيب ، اللوحة البيرية ٨٣ .
- (٢) انظر عنان ، نهاية الأندلس ٧٠ والعباوي ، عبد الحميد المجمل في تاريخ الأندلس ١٧١ وانظر مفتاح ، محمد مقالة مفهوم الجهاد والاتحاد في الادب الأندلسي عالم الفكر م ١٢ / ١٤ / ١٩٨١م وانظر الطوخي ، أحمد محمد ، مقالة غرناطة الإسلامية في نظر الرحالة الأجانب مجلة أوراق ، المعهد الإسباني العربي ٤ / ١٩٨١ ص ١٤١ .
- (٣) المقرئ ، نفح الطيب . م ٤ / ٥١٠ .
- (٤) ابن الخطيب ، الاحاطة م ١ / ٩٩ - ١٠١ وانظر اللوحة البيرية ٢١
- (٥) انظر ابن سعيد . علي بن موسى ، المغرب في حلى المغرب ج ٢ / ٩٣
- (٦) الحموي ، ياقوت ، معجم البلدان ج ٤ / ١٩٥ وانظر المقرئ ، نفح الطيب . م ١ / ١٤٧
- (٧) للمزيد عن تاريخ غرناطة قبل عصر بني الأحمر انظر : الاحاطة م ١ / ٥٢١ - ٥٢٢ وانظر : الحميري ، الروض المعطار ، ٢٤

بثلاثة وثلاثين اقليما^(١) تضمها جميعا ثلاث ولايات رئيسية^(٢) هي :

- ١- اقليم غرناطة يتوسط المملكة ، ويمتد جنوبا حتى البحر الابيض المتوسط وأهم مدنه غرناطة العاصمة ، ووادي آش^(٣) والحامة، ولوشتر^(٤) وأرجيه وأشكر وحصن اللوز وبسطة^(٥) وشلوبانية وغيرها .
- ٢- اقليم مالقة يقع شرق غرناطة ، متاخما لساحل البحر الابيض المتوسط وأهم مدنه مالقة^(٦) وهي العاصمة الثانية لبني الاحمر ، ومربلة ورندة^(٧) وأنتقيرة وقمارش وأرشدونة ، وقد يلحق بها جبل طارق وطريف والجزيرة الخضراء .
- ٣- اقليم المرية وأهم مدنها المرية^(٨) هي عاصمة الاقليم واندرش^(٩) وبرجة ودلاية وبرشانة وبيرة^(١٠) والمقصورة وغيرها .

-
- (١) انظر تفاصيلها عند ابن الخطيب ، اللحة البدرية ٢٨-٣٠
 - (٢) عنان ، محمد عبد الله ، نهاية الاندلس ٥٥ وانظر شبانه ، محمد كمال ، الحالة الاقتصادية بالاندلس خلال القرن الثامن الهجري ، مجلة البحث العلمي / الرباط/ العدد ٨ / السنة الثالثة / ١٩٦٦ ، ١٣٧ ، وانظر تفصيلات عن غرناطة وأرباضها وأنهارها وعمارتها ، الطوخي ، احمد محمد ، مظاهر الحضارة في الاندلس في عصر بني الاحمر ، ٤٨-٦٨ .
 - (٣) الحميري ، روضة المعطار ، ١٩٢ .
 - (٤) الحميري ، المصدر السابق ٦١
 - (٥) الحميري : المصدر السابق نفسه ٤٤-٤٥ وانظر مشاهدات لسان الدين ٣١ .
 - (٦) الحميري ، روضة المعطار ١٧٧ ، ١٧٨ ، وابن بطوطة ، رحلة ابن بطوطة (تحفة النظار) ج ٢/ ٧٦٨.٧١٧ .
 - (٧) الحميري . روضة المعطار ٧٩ وابن بطوطة ج ٢ / ٧٦٦ ، ٧٦٧
 - (٨) الحميري . روضة المعطار ١٨٣ ومشاهدات لسان الدين ٤٣ والمقري نفح الطيب م ١ / ١٦٣
 - (٩) الحميري ، روضة المعطار ، ٣١
 - (١٠) ابن الخطيب ، مشاهدات لسان الدين بن الخطيب ، ٤٠

والمجتمع الغرناطي كالمجتمع الاندلسي عبر عصوره المختلفة تكوّن من عناصر واجناس مختلفة من عرب وبربر ومولدين .

الا ان العروبة كانت تغلب على السكان المدنيين لا سيما بعد نزوح كثير من سادة البطون العربية القديمة اليها ، وكان الشعب الغرناطي يعتز بالنسب العربي^(١) فمؤسس دولة بني الاحمر وخلفاؤه من بعده انتسبوا الى الصحابي سعد بن عباد وصنّف لهم الكثير من التصنيفات في ذلك^(٢)

وقد أكد فرحات^(٣) في دراسته ان المجتمع الغرناطي كان مجتمعا طبقيا فيه الاحرار والعبيد والخاصة والعامة والفرسان وزعماء القبائل المراكشية والتجار والحرفيون ... الخ ، وهذا ما نلمسه في بعض عبارات ابن الخطيب فعند حديثه عن قوت المجتمع الغرناطي يتحدث عن قوت الضعفة والفلة في الشتاء^(٤) أما لباسهم فهو " الملف المصبغ شتاء فهو الغالب على طبقاتهم"^(٥) وحلي النساء من ذهب أو فضة تختلف بترفع طبقاتهم^(٦) . كل ذلك في اطار من الوحدة والتناسق "فتبصرهم في المساجد أيام الجمع كأنهم الازهار المتفتحة في البطاح الكريمة"^(٧) فقد تفاعلت المكونات الدينية والدنيوية فيهم لتعطي شخصية متميزة لآخر عصور العرب المسلمين في الاندلس^(٨) .

(١) انظر : ابن الخطيب ، الاحاطة م ١ / ١٤١ و م ٢ / ٩٢ ، وانظر بروفنسال ، ليفي ، الشرق الاسلامي

والحضارة العربية الأندلسية ٣٨ وانظر بروفنسال ، ليفي ، حضارة العرب في الاندلس ٦٨

(٢) ابن الخطيب ، اللحة البدرية ٣٣ ، وانظر ابن الخطيب ، الاحاطة ، م ٢ / ٩٢ وانظر المقرئ ، نفح الطيب ، م ١ / ٤٤٧

(٣) فرحات ، يوسف شكري ، غرناطة في ظل بني الاحمر ، ٢٠٦ . ٥٦٣٨١٥

(٤) ابن الخطيب ، اللحة البدرية ٤٠

(٥) انظر ابن الخطيب ، اللحة البدرية ٣٨

(٦) ابن الخطيب ، المصدر السابق ٤٠

(٧) ابن الخطيب ، المصدر السابق نفسه ٣٩

(٨) انظر الحجي ، عبد الرحمن اندلسيات ١٥٩ وانظر المعطاني ، عبد الله بن سالم ، مقالة المنظور

الحضاري للتراث الادبي في الاندلس ، حوليات الجامعة التونسية . العدد ٣٥ / ١٩٩٤ ص

١٤٥ وانظر عنان ، نهاية الأندلس ، ٧٢

وقوتهم الثر اغلب السنة اما في الشتاء فيقتات بعض العامة الذرة العربية^(١) ، أما الفاكهة المجففة فهي موجودة طوال العام على تعدد انواعها^(٢) وهم أهل احتياط وتدبير في معاشهم^(٣) يحفظون ما بأيديهم لأنهم في دار حرب وأغلبهم قد خبر حصار المدن والمعاناة من الفتن الداخلية والطوارئ الأخرى من حرب أو انتشار للجراد .

والغالب عليهم ترك العمائم لا سيما في شرق الأندلس ، ويلبسها قلة من الشيوخ والقضاة والعلماء^(٤) ، أما زيهم فهو الملف والمصبغ شتاء والكتان والحريز والقطن والمرعزي والأردية الإفريقية والمقاطع التونسية والمآزر المشفوعة صيفا^(٥) وأزياء سلاطينهم وجندهم شبيه بزي جيرانهم النصاري ثم عدلوا عن ذلك الى النمط العربي في الأسلحة واللباس^(٦) وجندهم نوعان أندلسي وبربري ، والأندلسي يقوده رئيس من اقرباء الملك أو المقربين له ، والجند البربري يقوده رئيس من اقرباء حكام المغرب (بني مرين) وجنوده من قبائل شمال افريقيا^(٧)

واهتمام النساء بالزينة بلغ الغاية التي لأجلها دعا ابن الخطيب الله - عز وجل - أن لا يجعل ذلك فتنة وابتلاء لهن^(٨) عدا عن الاختلاط الذي شاع في مدن المملكة^(٩).

(١) انظر ابن الخطيب ، الاحاطة ، م ١ / ١٤٣

(٢) ابن الخطيب ، المصدر السابق ، م ١ / ١٤٣

(٣) انظر المقرئ ، نفح الطيب ، م ١ / ٢٢٣

(٤) انظر ابن الخطيب ، اللوحة البدرية ٣٩

(٥) ابن الخطيب ، المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

(٦) ابن الخطيب ، اللوحة البدرية ، ٣٩ ، وانظر المقرئ ، نفح الطيب ، م ١ / ٢٢٢ وانظر ابن الخطيب ،

الاحاطة ، م ١ / ١٤٢ ، ١٤٣ .

(٧) انظر ابن الخطيب ، الاحاطة ، م ١ / ١٤٢ ، وانظر اللوحة البدرية ٣٩

(٨) انظر ابن الخطيب ، الاحاطة ، م ١ / ١٤٤ ، ١٤٥ وانظر ، اللوحة البدرية ٤١

(٩) انظر ابن الخطيب ، مشاهدات لسان الدين بن الخطيب (خطرة الطيف في رحلة الشتاء والصيف) ص

٢٨ و ٣٢ .

أما اعيادهم واحتفالاتهم فكثيرة ومتنوعة^(١) وكما جمعت مملكة غرناطة بين المروج الخصبة والجبال الوعرة ، حمل الشعب الغرناطي في أعماقه تناقضا بين حب الدنيا وحب الشهادة^(٢)

فمنهم من استبسل دفاعا أو هجوما ، ومنهم من تعاطى انواعا من المخدرات^(٣) وبعضهم اندفع للتمتع بألوان من المتعة الدنيوية مما قتل روح الجهاد فيهم أو على الأقل أعاقها^(٤) كل ذلك تعانيه غرناطة وهي تقاوم الهزيمة والسقوط .

وقد كانت الحرب سجالا بينهم وبين اعدائهم^(٥) والحرب لا بد أن تعتمد على اقتصاد قوي يؤازرها معتمد على زراعة وتجارة وصناعة وهذا ما تحقق في مملكة غرناطة .

(١) مثل الاحتفال بالاعیاد الدينية والاحتفالات الاجتماعية كعذار ابناء السلطان أو زواجهم أو انتصار جري ، وبعضهم كان يحتفل باعیاد النصاری للمزید انظر : - ابن الخطیب ، الاحاطة م ١ / ١٤٣ ، وانظر عنان ، نهاية الاندلس ، ٤٥١ والعبادي ، أحمد مختار ، الاعیاد في مملكة غرناطة ، مجلة معهد الدراسات الاسلامیة ، مدريد م ١٥ ، ١٩٧٠ ، ص ١٤٠ .

(٢) انظر ابن الخطیب ، اللوحة البدریة ، ٨٣ ، وانظر المقری ، نفح الطیب م ٤ / ٥١٧ وانظر مجهول ، نبذة العصر ٧٧ ، وانظر مشاهدات ابن الخطیب ٢٩ ، وانظر ابن عاصم ، جنة الرضام ٢ / ٢٧٨ و ٢٧٩ وانظر طحطح ، فاطمة الغربية والحنین فی الشعر الاندلسی ، رسالة دكتوراة فی الرباط ، ١٩٩٣ ، ص ٤٩-٥١ .

(٣) انظر : ابن الخطیب ، نقاضة الجراب ، ١٨٣ وانظر : ابن الخطیب ، دیوان العیب والجهام والماضی والکهام ، تحقیق محمد الشریف قاهر قطعة ٧٧ ص ٣١٥ وانظر ، العبادي ، أحمد مختار الاعیاد فی مملكة غرناطة ١٤٦ .

(٤) انظر عباس احسان ، مقالة عن الشعر الاندلسی ، مجلة الأصالة ، ج ٤ العدد ٢٧-٢٨ ، ١٩٧٥ ص ١٩٩ ، وانظر : احسان عباس وآخرون دراسات فی الادب الاندلسی ، ٢١ .

(٥) انظر : ابن عاصم ، جنة الرضا م ٢ / ٢٤٧ وانظر قصيدة عبر البر الوادي أشی ص ١٩١ فی مختارات الشعر الاندلسی . نیکل . ١٠ ، وانظر : المقری نفح الطیب م ٤ / ٥١١ ، وانظر مجهول ، نبذة العصر ٣٧ ، ٥٧ ، وانظر مشاهدات ابن الخطیب ص ٤٠-٤٣ .

وقد أفادت من موقعها في هذا الشأن فهي مطلة على البحر المستفاد منه الصيد والتجارة والجهاد كثغري مالمقه والمرية ، أما جبالها فمزروعة بأنواع مختلفة من أشجار الفاكهة ، عدا إنتاجها السكر والحريير ، أما سهولها فقد زُرعت حنطة ، وأراضي مملكة غرناطة مزروعة طوال العام ، لا سيما وأن جبل شلير يمدّها بالمياه صيفا وشتاءاً^(١) ويزيد هواءها نقاءاً ويشق غرناطة نهر حدرة وقراها مائتان وسبعون قرية^(٢)

وفحصها (المُشبه بغوطة دمشق) وصفه لسان الدين بأنه سهل " تخترقه الجداول والأنهار. وتتزاحم به القرى والجنات في أحسن الوضع وأجمل البناء ^(٣) وكما قال عنه ابن بطوطة "لا نظير له في بلاد الدنيا" ^(٤) أما بسطة فهي بحر الطعام وينبوع العيون^(٥) ، ومالقة عامرة بأشجار التين الطيب المشهور^(٦) ووادي أش انتشرت فيه الأرحاء وأشجار التوت والعنب وغيره^(٧)

ومن الجدير بالذكر أن كثيراً من الأراضي الخصبة امتلكها السلطان والوزراء وقادة الجيوش والوجهاء وهناك أراضٍ اشترك في ملكيتها أناس كثيرون^(٨)

(١) انظر ابن الخطيب ، الأحاطة م ١ / ١٠٤ ، واللحة البدرية ٢٢ ، وابن بطوطة ، رحلة ابن بطوطة (تحفة النظائر) ج ٢ / ٧٦٨ ، وانظر الحميري / الروض المعطار ١٢٢-٢٤ وانظر المقرئ ، نفح الطيب ، م ١ / ١٧٧ ، وعنان ، نهاية الأندلس ٤٥٠ .

(٢) انظر ابن الخطيب ، اللحة البدرية ٢٢ وانظر المقرئ ، نفح الطيب ، م ١ ، ١٧٧ .

(٣) انظر ابن الخطيب ، اللحة البدرية ٢٢ وانظر ابن سعيد ، المغرب في حلى المغرب ، ج ٢ / ١٠٢ . ١٠٣ .

(٤) ابن بطوطة ، رحلة ابن بطوطة ، ج ٢ / ٧٦٨ .

(٥) ابن الخطيب ، مشاهدات لسان الدين ، ٣١ ، وانظر الحميري ، روضة المعطار ، ٤٤ و ٤٥ .

(٦) الحميري ، روضة المعطار ، ١٧٧ ، ١٧٨ وابن بطوطة ، رحلة ابن بطوطة ج ٢ / ٧٦٧ والمقرئ ، نفح الطيب م ١ / ١٥١ .

(٧) الحميري ، روضة المعطار ، ١٩٢ .

(٨) انظر ابن الخطيب ، اللحة البدرية ٢٤ ، ٢٥ ، وانظر مفتاح ، محمد ، مفهوم الجهاد والاتحاد في الأدب الأندلسي ، عالم الفكر ، الكويت ، م ١٢ / العدد الأول / ١٩٨ ص ١٧٩-١٨٠ وانظر شبانه ، محمد كمال ، الحالة الاقتصادية بالأندلس خلال القرن الثامن الهجري لعدد ٨ / البحث العلمي / الرباط / السنة ١٩٦٦ / ٣ م .

ان كثرة المهاجرين الى مملكة غرناطة جعلهم يستغلون كل شيء فيها للزراعة ، وكانت غالبيتهم تمتلك مهارة وحذق في الزراعة والري والتقليم والأسمدة ومكافحة بعض الامراض والحشرات وإيجاد أصناف جديدة من الغلات^(١) ولكنهم اضطروا احيانا لاستيراد الحبوب من شمال افريقيا عن طريق البحر لسد حاجاتهم^(٢) .

وحيث بنا أن نشير الى استطاعة مدينة غرناطة ان تحافظ على كثير من الصناعات التقليدية الاندلسية ، وذلك بحكم هجرة اليد العاملة اليها فازدهرت فيها صناعة الاسلحة والذخائر وصناعة الحرير والحلل المطرزة المبطنة وصناعة الجلود^(٣) ، اما مالقة فكان يُصنع بها الفخار المذهب^(٤) واشتهرت بسطه بالمصليات البسطية^(٥) والمرية بالمنسوجات وصناعة الزجاج^(٦) .

(١) انظر الشهابي ، مصطفى ، تأثير العرب والعربية في الفلاحة الاوروبية ، مجلة مجمع اللغة العربية /دمشق/ م ١٩٦١/٣٦ ، ص ١٨٤ . وانظر هند ابو الشعر ، مقالة دراسة اقتصادية واجتماعية لمملكة غرناطة . راية مؤتة ، جامعة مؤتة م ١٩٩٢/١٤/١ ص ٣٩ وانظر السيد عبد العزيز سالم في تاريخ وحضارة الاسلام في الاندلس ٢٤٠ .

(٢) انظر مفتاح ، محمد ، مرجع سابق ، وانظر نجاة باشا ، التجارة في المغرب الاسلامي من القرن الرابع الى القرن الثامن الهجري ٨٤ .

(٣) انظر شبانه ، محن كمال ، الحالة الاقتصادية بالاندلس خلال القرن الثامن الهجري ، مجلة البحث العلمي /الرباط/ العدد ٨ / ١٩٦٦ لسنة ٣ ص ١٤٨

(٤) ابن بطوطة ، رحلة ابن بطوطة ، ج ٢/٧٦٥

(٥) الحموي ياقوت ، معجم البلدان ، ج ١/٤٢٢

(٦) المقري ، نفح الطيب ، م ١/١٦٣

ولقد اثارت دور الصناعة في المملكة اعجاب الرحالة الاجانب آنذاك^(١) وعمل مواطنو المملكة بجد في اعمالهم المختلفة ليقبوا وليجاهدوا وليعينوا الدولة على الصمود بدفعهم للضرائب انعاماً مثل ضريبة الخراج وأموال الزكاة والضرائب على السفن الصادرة والواردة على الشواطئ الاندلسية وضريبة الخمس على الغنائم الحربية^(٢) ، وكانوا يؤدونها بنفس راضية إذ يرونها تأميناً للدولة وبالتالي لوجودهم^(٣) .

أما الخزانة الملكية النصرية فقد اشتملت على كل نفيس ونادر وفريد من الجواهر والامتعة والاسلحة مما لا يحيط به الوصف^(٤) أما نقدهم فقد كان طيباً من ذهب أو فضة خالصة ديناراً أو درهماً أو قيراطاً ، كتبت على كل منها آية قرآنية أو دعاء للسلطان بالتأييد ولغرناطة أن يحرسها الله^(٥)

لكن الصورة عن دولة بني الاحمر وعاصمتهم غرناطة لا تتم دون الحديث عن الحمراء* التي كانت قلعة ثم غدت قصبة ثم أضحت مقراً لحكم بني الاحمر ومسكناً لهم ولرجال دولتهم المقربين^(٦) وكما قال ابن خلدون ان آثار الدولة تدل على قوتها ومن ذلك مباني الدولة وهيكلها العظيمة التي تتم بكثرة الفعلة واجتماع الايدي^(٧) واستقرار

(١) الطوخي ، أحمد محمد ، مقالة غرناطة الاسلامية في نظر الرحالة الاجانب ، أوراق العهد الاسباني العربي ، ١٩٨١/٤ ، ص ١٤٤ .

(٢) انظر شبانه ، محن كمال ، الحالة الاقتصادية ... مجلة البحث العلمي/الرباط العدد ٨ ص ١٣٧

(٣) انظر لسان الدين بن الخطيب ، اللوحة البدرية ، ٣٨

(٤) انظر ابن عاصم ، جنة الرضا م ٢/٢٣ ، ٢٤

(٥) ابن الخطيب ، الاحاطة ، م ١/٤٣ او ١٤٤ وانظر اللوحة البدرية ٤٠ .

* تشابه اسم الحمراء واسم بني الاحمر محض مصادفة فالحمراء اسم سبق في الوجود دولة بني الاحمر للمزيد انظر زمامة ، عبد القادر ، بنو الاحمر في غرناطة ، البحث العلمي/الرباط/ السنة ١٣ / العدد ٢٦ / ١٩٧٦ ص ١٠٧ وانظر العبادي ، أحمد مختار ، صور من حياة الحرب والجهاد في الاندلس ٢٢٧ .

(٦) زمامة ، عبد القادر ، بنو الاحمر في غرناطة ، البحث العلمي/الرباط/ السنة ١٣ / العدد ٢٦ / ١٩٧٦

(٧) انظر ، ابن خلدون ، العبر ، م ١/٣١٣ .

الدولة^(١) .

لكن هل يكمن جمال قصر الحمراء في فنيته العمرانية أم في فنية الاحتمال والقوة والاصطبار؟ أم في الاثنين معا؟

وهل مال ملوك بني الأحمر ومواطنوهم للشغف بالعمران لطبيعة حياة الرخاء وميلهم للتمتع بها^(٢) أم لدافع عاطفي كما يقول بروفنسال^(٣) ، أم هي الرسالة الأخيرة لهم والشاهد الباقي على حضارتهم وعلى تشبثهم بالبقاء حتى آخر رمق؟! ربما كان ذلك كله معا متفاعلا ممزوجا مكونا أعمدة رشيقة^(٤) واسرافا في الزخرفة المتناسقة ، فعنايتهم بالزينة شملت مختلف جوانب حياتهم الخاصة والعامة ، وفي مختلف مدنهم ، زخرفة بالآيات القرآنية والاشعار الحافزة للهمة للنقطة والتتبع لما يضمرة لهم أعداؤهم^(٥) وليتذكروا دائما أن "لا غالب الا الله" .

الحياة العلمية والأدبية

لا يمكننا فصل الحياة العلمية والأدبية - لأي مجتمع - عن المناخ السياسي والاجتماعي له ، فهما يسيران كخطين متوازيين لكنهما غير متساويين أحيانا ، فربما ازدهرت الحالة الفكرية لبلد تنهقر فيه الحالة السياسية والاجتماعية ، وهذا ما حصل في القرن السابع والتاسع الهجريين في الاندلس فقد كانا قرني المواجه والاضطراب والفتن على المستوى السياسي والاجتماعي .

(١) الداية ، محمد رضوان ، مقدمة ديوان ابن خاتمة ص ٢٧

(٢) انظر سالم السيد عبد العزيز ، في تاريخ وحضارة الاسلام في الاندلس . ١٤١

(٣) بروفنسال ، ليفي ، حضارة العرب في الاندلس ، ٢٥

(٤) انظر ، عيد يوسف ، الفنون الاندلسية وأثرها في أوروبا القروسطية ، ٢٤ .

(٥) جرار ، صلاح ، ديوان الحمراء ، ١٢ ، ٥٥ ، ٢٧

* للمزيد عن وصف قصر الحمراء : -

عاصم ، جنة الرضا ، م ٢٥/٢ - ٢٩ . وابن الخطيب ، اللحة البدرية ، ٢٣ ، ٢٤

أما على المستوى الفكري فلقد ظهر فيهما اعلام من مختلف التخصصات فلم يخل القرن السابع -مثلا- من الأدباء والشعراء والعلماء الذين واصلوا التعليم والتعلم والابداع أيضا ، منهم من بقي في الاندلس ، ومنهم من رحل الى حيث الامان والاستقرار فنزلوا أرض المغرب العربي أو مصر أو الشام ، من مثل ابن الأبار القضاعي ^(١) وأبو اسحاق الساحلي ^(٢)

كما وشهد القرن السابع أيضا تأسيس مملكة طموحة تحاول اثبات وجودها وسط تيار من الاخطار المعادية لها ، تلك المملكة هي مملكة غرناطة التي ساعد حكامها منذ تأسيسها على قيام حركة فكرية واسعة ، فمؤسسها محمد بن يوسف كان يهتم بالشعر والشعراء والعلماء ^(٣).

أما خليفته محمد الفقيه فقد كان يقرض الشعر ويحظى العلماء عنده من أطباء ومنجمين وحكماء وكتاب وشعراء بفضله وحسن رعايته ^(٤) وقد عرف بالفقيه لكثرة مطالعته لكتب العلم ^(٥). ولا ننسى محمد الملقب المخلوع الذي كان يقرض الشعر أيضا ويحب سماعه ويشيب عليه ، ويعرف مقادير العلماء ^(٦) ويُعدّ من افضل اعماله بناء المسجد الاعظم بالحمراء في غرناطة ^(٧).

(١) هو أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله . كاتب وشاعر وفقيه ومؤرخ استقر في تونس بأهله بعد سقوط بلاده بلنسية عام ٦٣٦هـ ، وخدم ملوكها الحفصيين الى أن نكبوه سنة ٦٥٨هـ . له مؤلفات منها : اعيان الكتاب ، ديوان شعر ، الحلة السيرة ، انظر ترجمته في الوافي بالوفيات ٣/٣٥٥ ، والعبر لابن خلدون ٦/٦٥٣-٦٥٥ .

(٢) هو ابراهيم بن محمد بن ابراهيم الانصاري الساحلي ، المعروف بالطويجن من أهل غرناطة ، من بيت صلاح وثروة وأمانة ، كان فقيها عالما ، رحل الى المشرق لاداء فريضة الحج ، وعاد فاستوطن بلاد السودان ، وحظي بمكانة كبيرة عند سلطانها ، توفي بتبكتو من أعمال مالي سنة ٧٤٧هـ ، انظر ترجمته في : نثيرنراند الجمان ٣٠٨ ، نفح الطيب ١٩٤/٢ .

(٣) انظر ابن الخطيب ، اللوحة البدرية ، ٤٤

(٤) ابن الخطيب ، المصدر السابق نفسه ، ٥٠

(٥) ابن خلدون ، العبر ، م ٤/ ٣٦٩ وانظر الناصري ، الاستقصا ، م ٣ ، ص ٣٨ .

(٦) ابن الخطيب ، اللوحة البدرية ، ٦١

(٧) المصدر السابق ، ٦٢

ولقد كانت المساجد منارة للعبادة وللعلم أيضا ، فهذا أبو القاسم الشريف الحسني مثلا
 قعد بمسجدها فدرّس وحلّق^(١) .

أما السلطان محمد بن اسماعيل أبو عبد الله فقد كان محبا للادب وللشعر خاصة^(٢) وأما
 السلطان أبو الحجاج يوسف فقد بُنيت في أيامه (٧٥٠هـ) المدرسة اليوسفية التي عرفت
 بالمدرسة العلمية والمدرسة النصرية^(٣) واهتمت بأنواع العلوم المعروفة آنذاك حتى أصبحت
 مثابة للناس من كل أنحاء مملكة غرناطة بل ووفد إليها طلاب ومعلمون من بلدان المغرب
 العربي^(٤)

وجدير بالملاحظة ان مملكة غرناطة تحت قيادة بني الأحمر كانت عازمة على احياء
 عهد المجد الذي كان لقرطبة واشبيلية وبلنسية وغيرها من المدن الاندلسية الزاهرة^(٥) وهذا ما
 تحقق في القرن الثامن الهجري الذي شهد ازدهارا في الحركة الفكرية في المملكة فقد أُنعت
 شجرة العلم في مملكة حوت عصارة العصور السابقة بعدما هاجرت إليها عقولا تبذع وسواعد
 تبني وقلوبا محترقة على أراضٍ سقطت وذكريات ذهبت . فظهر اعلام كبار في غرناطة ورندة
 وألمرية وبسطة ووادي آش وغيرها ، ساهموا في الأدب والعلوم وأضافوا الى ما تعلموه من
 أجدادهم^(٦)

(١) انظر : ابن الخطيب ، اوصاف الناس في التاريخ والصلوات ١٤٠ ، ٢٤

(٢) ابن الخطيب ، اللوحة البدرية ، ٩٠

(٣) ابن الخطيب ، المصدر السابق نفسه ١٠٩ ، وانظر : الاحاطة م ١ / ٥١٦ و م ٣ / ٣٢٥

(٤) فرحات ، يوسف شكري ، غرناطة في ظل بني الأحمر ، ١٣٤ .

(٥) زمامة ، عبد القادر ، بنو الأحمر في غرناطة ، مجلة البحث العلمي ، الرباط / السنة ١٣ / العدد ٢٦ ،

١٩٧٦ ، ص ١٠٤

(٦) الداية ، محمد رضوان ، مقامة ديوان ابن خاتمة الانصاري ، وانظر الركابي ، جودت ، في الادب

الاندلسي ٥٨ .

وأخذت مدن المملكة تتنافس على العلماء والخطباء والاستثثار بوجودهم فيها ، فهذا ابن الخطيب يقول عن أبي الحسن القيحاوي " ولم تزل رتبته في ارتفاع حتى استأثرت الحضرة به على ما سواها ..^(١) وغدت غرناطة هدفا للرحلة إما لطلب العلم أو للجهاد أو للرباط في سبيل الله أو للسفارة أو للزيارة أو للتجارة^(٢) . فابن خلدون عندما قرر الاستقرار والعكوف على قراءة العلم اختار السفر الى مملكة غرناطة^(٣) .

وقد زخر بلاط غرناطة بالشعراء والكتّاب والأطباء وغيرهم فهناك الكثير من رجال الأدب الأذكياء الذين احتلوا وظائف عليا في الدولة الأحرورية كابن الحكيم وابن الجياب ولسان الدين بن الخطيب وابن زمرك وغيرهم من رجال الأدب^(٤) .

ونشطت حركة التأليف في العلوم المختلفة فهذا علي بن عبد الرحمن بن هذيل يؤلف كتاب "حلية الفرسان وشعار الشجعان" ، ويهديه الى أبي عبد الله محمد المستعين بالله^(٥) وهذا لسان الدين ينظم بعض القصائد والمقطعات تلبية لاقتراح السلطان أبي الحجاج^(٦)

إن نبوغ جملة من الشعراء والكتّاب والمؤرخين والمتصوفة وعلماء الفلك والطب وغيرهم يعد نتيجة من نتائج الحركة الفكرية التي ساعد حكام غرناطة على ارتقائها ، كما أن أولئك الحكام كانوا يهتمون عند اختيار الوزراء بمقدار ذكائهم وعمق موهبتهم الأدبية وفروسياتهم .

ان النظر في كتابي ابن الخطيب (٧١٣-٧٧٦) "أوصاف الناس في التواريخ والصلوات" و "الاحاطة في أخبار غرناطة" الغنيين بالتراجم التي تبين تعدد الثقافات وتعدد المختصين بها لا سيما من الناحية الادبية من حملة السيوف والاقلام .

(١) ابن الخطيب ، أوصاف الناس ٢٤٠

(٢) انظر الطوخي ، أحمد محمد ، غرناطة الاسلامية في نظر الرحالة الاجانب ، مجلة أوراق .المعهد الاسباني العربي ١٩٨١/٤ ص ١٤١

(٣) ابن خلدون ، العبر ، م ١٠٣٧/٧

(٤) JARRAR.SALAH, Liter ature and literary life in Nasrid grand presented Doctor . London, ١٩٨٢, P٤٠٢

(٥) انظر الخطابي ، محمد العربي ، الأكاديمية ، العدد ١٩٩١/٨ ص ١٠١ .

(٦) انظر : ابن الخطيب ديوان الصيب والجهام والماضي والكهام ، رقم القصيدة ١٣٢ ص ٣٦٥ وانظر قصيدة رقم ٢٣ ص ٦٥٥ .

ولا ننسى أن طبيعة العصر وحبهم للعلم جعل الثقافة عندهم آنذاك موسوعية ، وقلمنا نجد عالما في ذلك العصر مختصا بعلم واحد فقط ، ولسان الدين بن الخطيب أبرز مثال على ذلك فهو كاتب وشاعر وطبيب ومؤرخ وفيلسوف ، وكما يقول عنه معاصره ابن خلدون : "آية من آيات الله في النظم والنثر والمعارف والأدب ، لا يساجل مداه ولا يهتدى فيها بمثل هداه" ^(١) واهتمامهم بالطب كان كبيرا نظرا لانتشار بعض الامراض بينهم كالطاعون ومن الاطباء لسان الدين بن الخطيب ^(٢)

وأبو عبد الله السراج الذي كان طبيبا ماهرا وشاعرا أيضا ^(٣)
والحكيم ابو عثمان بن لبون الذي مال الى صناعة الطب ودون فيها ^(٤)

(١) ابن خلدون ، العبر ، م ٧ / ٩٥٩

(٢) هو الوزير الكاتب الشاعر أو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد التلمساني ، يلقب بلسان الدين ولد في لوشة من أعمال غرناطة سنة ٧١٣ هـ ، وانتقل والده الى غرناطة ، وعمل في بلاط ملوكها بني نصر ، نشأ بغرناطة وقرأ وتأدب ، كتب في ديوان الانشاء ، ولما توفي ابن الجياب حل محله في الوزارة والكتابة فلقب بذي الوزارتين ، توفي سنة ٧٧٦ هـ ، له مؤلفات كثيرة منها : الاحاطة في اخبار غرناطة "اللمحة البدرية في الدولة النصرية" و "ديوان شعر" انظر ترجمته في دراسة خاصة للاستاذ عنان ، وانظر نفير فرائد الجمان ص ٢٤٣ ، وابن خلدون ، العبر م ٧ / ٦٨٩ و ٧٠٨ ودرّة الحجال ج ٢ / ٢٧١ .

(٣) انظر ترجمته عند ابن الخطيب ، اوصاف الناس / ٥٠

(٤) انظر ترجمته المصدر السابق / ٤٨ ودرّة الحجال ٢٩٢/٣ والمقري النفح ٥٤٣/٥ .

ومن العلماء الذين سطع نجمهم في العلوم الإسلامية في زمن بني الأحمر أبو القاسم محمد بن أحمد بن جزي^(١) وأبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير^(٢) وأبو البركات محمد بن إبراهيم البلفيقي^(٣) وأبو القاسم الشريف الحسني^(٤) وأبو الحسن علي بن عبد الله النباهي^(٥) وغيرهم .

أما التصوف فقد ازدهر بسبب الأوضاع السياسية غير المستقرة والحروب المستمرة والأمراض والجفاف وغير ذلك . كل ذلك جعل فئة من الناس تنظر للحياة نظرة عميقة زاهدة بملذاتها الزائلة ، وقد ألقت كتب في التصوف في هذا العصر مثل "روضة التعريف بالحب الشريف" لابن الخطيب .

(١) هو أبو القاسم محمد بن أحمد بن جزي الكلبي ، من أهل غرناطة عاش ما بين ٦٩٣-٧٤١هـ ، كان فقيها ولغويا وأديبا وشاعرا ، شارك في فنون العربية والقراءات والاصول ، وله تصنيفات كثيرة منها : التفسير الجليل "التسهيل في علوم التنزيل" انظر ترجمته في : ازهار الرياض ج ٣ / ١٨٩ ، المقرئ / نفح الطيب ٢٨/٨ . والكتيبة الكامنة ص ٤٦ وانظر اوصاف الناس في التواريخ والصلوات ص ٢٧ .

(٢) هو أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير الغرناطي ، من أهل غرناطة . عاش ما بين ٦٢٧-٧٠٨هـ ، كان خاتمة المحدثين بالاندلس ، عالما برواية الحديث ، شارك في الفقه والتفسير ، شديدا على أهل البدع ، ولي القضاء والخطبة بغرناطة ، له مصنفات منها : "صلة القرابة" .

انظر ترجمته في "الاحاطة ١/١٨٨ . درة الحجال ١/١١ .

(٣) هو أبو البركات محمد بن أحمد بن إبراهيم البلفيقي من حصن بلفيق من أعمال ألمرية . يعرف بابن الحاج . توفي سنة ٧٧٣هـ ، كان فقيها ومشاركا في أصول الفقه وفروعه ، عقد مجلسا للامراء بالمرية ، له شعر ونثر وولي القضاء في مالقة وغيرها ، انظر ترجمته في : للرقبة العليا ص ١٦٤ ونثير فرائد الجمان ٣١٣ ، وأوصاف الناس ٢٨ .

(٤) هو أبو القاسم محمد بن أحمد الحسني الشريف السبتي من أهل سبتة ، عرف بالشريف الغرناطي عاش ما بين ٦٩٧-٧٦٠هـ رحل الى غرناطة فتولى ديوان الانشاء فيها ، وتولى قضاءها ، كان اماما في العلوم وشاعرا ، له "رفع الحجب المستورة عن محاسن المقصورة" . انظر ترجمته في الرقبة العليا ١٧١ ، ودرة الحجال ٢/٢٦٨ ونثير فرائد الجمان ص ٢٣١ .

(٥) هو أبو الحسن علي بن عبد الله بن محمد الجذامي ، من أهل مالقة ولي قضاء عدة مدن منها مالقة ، كتب بديوان الانشاء لسلطين بني نصر ، وسفر للغني بالله سفارة سياسية ، له "المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا" انظر ترجمته في "الاحاطة ٤/٨٨ ، والكتيبة الكامنة ص ١٤٦ .

وقد حفل كتاب (المراقبة العليا) (الاحاطة) ، (اللمحة البدرية) ، (أوصاف الناس) بأسماء القضاة والفقهاء والمحدثين والوعاظ المتصوفة ، ومن المتصوفة من جلس للاقراء أو للوعظ ، ومنهم من فعل ذلك وجاهد واستشهد مثل أبي القاسم محمد بن أحمد بن جُزَي الكلبى ^(١) وظهر عدد كبير من المتصوفة منهم أبو جعفر بن الزبير ^(٢) ، وأبو عبد الله محمد بن محمد بن ابراهيم الانصاري الساحلي ^(٣) وأبو الحسن ابن الجياب ^(٤) الذي كان مائلاً للتبذل والزهد .

وارتباط علوم العربية بالعلوم الاسلامية كبير وواضح لأن اللغة وسيلة تلك العلوم ، اضافة الى حبهم للعربية لغة وانتسابا .

لذا احتل الشعر المنزلة العليا بين فنون العربية تلتها الكتابة والخطابة فمن الشعراء محمد بن خميس التلمساني ^(٥) وأبو القاسم محمد بن أحمد الحسني ^(٦) وأبو عبد الله محمد بن عبد الله

(١) انظر ترجمته في ص ٢٠ .

(٢) انظر ترجمته ص ٢٠ .

(٣) هو أبو عبد الله محمد بن محمد بن ابراهيم الانصاري الساحلي . ولد سنة ٦٤٨ هـ . قرأ بمالقه ، وقطع عمره في التبذل والتجبد ، والزهد ، توفي سنة ٧٣٥ هـ ، انظر ترجمته في الاحاطة ٢٣٩/٣ . الكتيبة الكامنة ص ٤٥ أوصاف الناس ، ١١٥ .

(٤) الوزير الكاتب ابن الجياب (٦٧٣-٧٤٩ هـ) اشتهر كتاب الدولة النصرانية في القرن الثامن الهجري وكان قائماً على العربية اماماً في الفرائض والحساب عارفاً بالقراءات ، متبحراً في الادب والتاريخ مشاركاً في التصوف وشاعراً مبدعاً انظر ترجمته في نثر فرائد الجمان ٢٣٩ ، نفح الطيب ج ٨/٣٩٧ . أوصاف الناس ص ٥٧ .

(٥) هو أبو عبد الله محمد بن خميس التلمساني ، وفد الى غرناطة واتصل بالوزير ابن الحكيم ومدحه ، قتل بعد مقتل الوزير ، جمع شعره في ديوان سماه "الدرر النفيس في شعر ابن خميس" لم يصلنا ، توفي سنة ٧٠٨ هـ انظر ترجمته في : الاحاطة ٥٢٨/٢ . وازدهار الرياض ٣٠١/٢ ، وأوصاف الناس ص ٣٠ .

(٦) وردت ترجمته ص ٢٠ من هذه الدراسة .

المعروف بلسان الدين بن الخطيب^(١) وأبو جعفر بن صفوان^(٢) وأبو عبد الله محمد بن محمد ابن أحمد بن جزي^(٣) وابن خاتمة الانصاري^(٤) وغيرهم .

وظهر عدد من علماء اللغة في هذا العصر منهم : محمد بن علي الفخار^(٥) وأبو حيان الغرناطي^(٦) .

(١) وردت ترجمته ص ١٩ من هذه الدراسة .

(٢) هو أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن صفوان ، عاش ما بين ٦٧٥-٧٦٣هـ كان من اعلام كتاب الدولة الأحمرية ، وإماما في الفرائض والحساب ، عالما بالتاريخ واللغة ومشاركا في التصوف ، له ديوان شعر جمعه لسان الدين سماء الدرر الفاخرة واللجج الزاخرة لم يصلنا ، وله مؤلفات أخرى .
انظر ترجمته في درة الحجال ٧٨/١ ، الاحاطة - ٢٢١/١ .

(٣) هو أبو عبد الله محمد بن محمد بن أحمد بن جزي . من أهل غرناطة ، نشأ في ظل والده أبي القاسم ، كان أدبيا كاتباً ، مشاركا في مختلف العلوم والفنون ، رحل الى المغرب ، فكتب للسلطان أبي عنان المريني ، ودون رحلة ابن بطوطة وله شعر جيد توفي سنة ٧٥٧هـ . انظر ترجمته في لسان الدين :
الاحاطة ٢٥٦/٢ ، ابن الأحمر : نثر فرائد الجمان ص ٢٩٢ ، ابن القاضي درة الحجال ج ٢ / ٢٦٦ .

(٤) هو أبو جعفر أحمد بن علي بن خاتمة الانصاري ، من أهل المرية ، كان شاعرا وكاتباً وفقهياً ومصنفاً ، أثنى عليه معاصروه ، توفي سنة ٧٧٠هـ ، وله ديوان شعر حققه محمد رضوان الداية .
انظر ترجمته عند : لسان الدين ، الاحاطة ٢٣٩/١ ، ابن القاضي درة الحجال ٨٥/١ ، ابن الأحمر :
نثر فرائد الجمان ٢٣١ .

(٥) هو أبو عبد الله محمد بن علي بن أحمد الخولاني المعروف بابن الفخار اللبيري ، كان امام اعلام البصريين من النحاة في عصره . وشارك في غير العربية من قراءة وفقه وعروض وتفسير ، أخذ عنه خلق كثيرون ، انظر ترجمته في المقرئ نفح الطيب ٣٥٥/٥ ، السيوطي بغية الوعاة ١٧٤/١ ولسان الدين الاحاطة ، م ٣٥/٣ .

(٦) محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان الغرناطي ، يكنى أبا حيان عاش ما بين ٦٥٤-٧٤٥ هـ . كان نحويًا ولغويًا ومفسراً ، ومؤرخاً وأديباً ، رحل الى مصر وعاش فيها ، له البحر المحيط .. ، التذييل والتكميل في شرح التسهيل وغيرهما . انظر ترجمته في : الصفدي ، الوافي بالوفيات ٢٦٧/٥ ، السيوطي بغية الوعاة ٢٨٠/١ .

أما العلوم الطبيعية فلم تزدهر مثل ازدهارها في العصور الماضية في الاندلس ، فهذا يحيى بن هذيل أبو زكريا^(١) ، كان شاعرا وطيبا مشهورا ، وملما بالفلسفة والحساب والهندسة، لم يلق التشجيع الذي يستحقه ، فابن الخطيب في الاحاطة وفي اوصاف الناس يقول عنه : "درة بين الناس معطلة ، وخزانة على كل فائدة مقفلة"^(٢) .

وحتى اللحظات الاخيرة من عمر مملكة غرناطة تواصلت حركة التدريس وتلقين العلوم وخاصة العلوم الدينية واللغوية ، تجلى ذلك بكثرة الشيوخ والاجازات وكتب النوازل^(٣) وبعد ، فالناظر الى الصفحات السابقة يتجلى له بوضوح عمق مأساة مملكة غرناطة معاناتها بين فتن داخلية وحروب خارجية ، ويتقيا ظلال الحزن التي انتشرت فوق ارباضها ومدنها وحصونها قبل السقوط وبعده ...

نسمعه نضالا ، واستشهادا ودموعا ورثاء ، فكيف تجلى ذلك الرثاء؟ وما هي اتجاهاته وسماته؟ هذا ما سنحاول الاجابة عنه في الصفحات القادمة ان شاء الله .

(١) هو أبو زكريا بن هذيل ، اخذ عنه ابن الخطيب وتوفي عام ٧٥٣هـ وهو شاعر مبدع ، وله مشاركة في الفلسفة والحساب والهندسة والأصول والأدب قعد بالمدرسة بغرناطة يقرئ الأصول والفرائض والطب . انظر ترجمته في ابن الأحمر : نثير فرائد الجمان ص ٣٢٠ ، لسان الدين الاحاطة ٤/١٦٦ .

اوصاف الناس في التواريخ والصلات ص ٨٥

(٢) ابن الخطيب ، الاحاطة ، ٣٩١/٢ .

(٣) انظر : ثبت أبي جعفر أحمد بن علي البلوي الوادي أشي ٩٣٨ هـ . تحقيق عبد الله العمراني / دار الغرب الاسلامي ، ١٩٨٣ انظر الصفحات ٢١٩ ، ١٩٦ ، ١٩٧ .

الفصل الأول

الرثاء الخاص

اتجاهات شعر الرثاء في عصر بني الأحمر:

الرثاء فن قديم في الادب العربي وللشعر فيه نصيب كبير حيث تناولوه الشعراء على مدى العصور. ذلك لأن الموت جزء من الحياة، كما أن المعاناة من فقد عزيز مستمرة على مدى الأيام وفي كل مكان ، ولم يكن الشعر الأندلسي يبعد عن هذا كله، بل سطر شعراؤه الكثير من قصائد الرثاء فيمن وفيما افتقدوه من عزيز ، فما المقصود بالرثاء ؟ وما مدى ارتباطه بألفاظ مرافقة له كالبكاء، والنواح، والعيول؟ وما علاقة الرثاء بكل من: النعي، والعزاء، والندب ؟

ربما كان الأقرب إلى الصواب اعتبارها طقوس تعبر عن الموت وتقترب به ، فالمصائب بفقد عزيز لا بد أن يبكيه، وقد ينوح عليه^(١) ، أو يشتد صياحه عند بكائه عويلا^(٢) على فقدته ، لذا ارتبطت هذه الكلمات بالرثاء ارتباطا وثيقا .

أما بعد أن يشيع خبر الموت، وينعى^(٣) المصاب فقده إلى الناس، فلا بد أن يتجمعوا حوله لدفن الميت ، ثم يعزونه^(٤) بمصابه في انتماء، واتصال جماعي طالبين إليه حسن الصبر، والتأسي بغيره " فالموت لا يدفع ولا يمنع ولا يرد ولا يؤجل"^(٥)، بل هو رزء من الحياة، وحالة من حالاتها حتى إذا مرت الأيام بدأوا في نذب الميت^(٦)، وتأبينه^(٧) ، ورثائه.

والرثاء لغة : بكاء الميت وتعداد لمحاسنه^(٨)، وزاد الفيروز أبادي "ونظم الشعر فيه"^(٩) ولقد أصبح المدلول اللغوي للرثاء بمرور الزمن يمثل المدلول الاصطلاحي له .

(١) النوح : النساء يجتمعن للحزن واستناح الرجل : بكى حتى استبكى غيره ، انظر : ابن منظور ، لسان العرب ، مادة (نوح)

(٢) العويل : شدة الصياح عند بكاء أو مكروه نزل بالمرء ، انظر : الفراهيدي ، العين ، م ٢٤٨/٢ ، مادة عول ، وانظر : الزبيدي ، تاج العروس ج ١/١٤٤

(٣) النعي : إذاعة خبر الموت بالصوت وغيره ، انظر : الفيروز أبادي ، القاموس المحيط ، ٣٩٦ وانظر : ابن فارس ، مجمل اللغة ، ج ٣/٨٧٤ ، ومعجم مقاييس اللغة ج ٥/٤٤٧ ، وابن سيده ، المحكم والمحيط الأعظم ج ٩/٢٥٥ ،

والزبيدي ، تاج العروس ج ١٠/٣٧٣ والزمخشري ، أساس البلاغة ٦٤٤ ، وانظر : البستاني ، محيط المحيط ٩٠٥

(٤) العزاء : الصبر أو حسنه والتعزي : أن يتأسى بغيره ، انظر : ابن فارس ، معجم مقاييس اللغة ج ٤/٣٠٩ ، الفيروز

أبادي ، القاموس المحيط ، م ٣٦٢/٤ ، البستاني ، محيط المحيط ، ٥٩٩ مادة عزا

(٥) النويري ، نهاية الأرب في فنون الأدب ، السفر ١٦٥/٥

(٦) النذب : هو مدح الميت بعد موته من غير أن يقيد ببكاء ، انظر : ابن فارس ، معجم مقاييس اللغة ج ٥/٣٥٣ و ٤١٣ ،

ابن سيده ، المخصص ، ج ١/٩٥ ، الزبيدي ، تاج العروس ، ج ٤/٢٥٣ و ٢٥٤ مادة نذب

(٧) التأبين (أبن) : مدح الرجل بعد موته ، انظر : ابن فارس ، معجم مقاييس اللغة ج ١/٤٣ ، الزمخشري أساس البلاغة

١٠ ، الأزهرى ، تهذيب اللغة ج ١٥/٥٠٣ والفيروز أبادي القاموس المحيط م ٤/١٩٤

(٨) انظر الزبيدي ، تاج العروس ج ١/٢٣٩ ، ابن سيده المحكم والمحيط الأعظم ج ١/١٨٩ ، الفراهيدي ، العين ، ج ٨/٢٣٤

والأزهرى ، تهذيب اللغة ج ١٥/١٢٣ ، الجوهري ، تاج اللغة وصحاح العربية ج ٦/٢٣٥٢

(٩) الفيروز أبادي ، القاموس المحيط ، م ٤/٣٣٢

رثاء الآباء :

إن للأبناء دور في الحياة كبيراً ، فإن اختطفتهم يد المنون ، فقد الأبناء الراعي ، والمربي وأحسوا بمرارة الفقد وبفراغ لا يملؤه بديل آخر ، وبما أن الموت تعددت أسبابه ولم تنعم مملكة غرناطة بسلام لفترات طويلة ، إذ كانت مملكة مواجهة فقدت من رجالها الكثير ، وهم آباء أو أبناء لأسر في المملكة الأحمرية ، ومن الآباء الذين فقدوا ، والد لسان الدين (عبد الله بن سعيد السلماني) الذي استشهد في (معركة طريف) التي جرت عام (٧٤١هـ) والتي نحق بالمسلمين فيها هزيمة مؤلمة^(١) واستشهد فيها عدد كبير منهم ، وكان من ضمنهم أخو لسان الدين بن الخطيب^(٢) ووالده.

ولم يورد لسان الدين (ت ٧٧٦هـ) قصيدته في رثاء أبيه كاملة^(٣) بل أورد الأبيات الأربعة الأولى منها^(٤) وفي تلك الأبيات تلمس روح التسليم لله تعالى والرضا بقضائه والإقرار بأن الموت قدر لا مفر منه ولا مهرب فقد قال^(٥) :

سهام المنايا لا تطيش ولا تخطي وللدهر كف تسترد الذي تعطي
وإنا وإن كنا على ثبح^(٦) الدننا فلا بد يوماً أن نحل على الشط

ثم يقر لسان الدين في البيتين التاليين بأن الموت يساوي بين الناس غنيهم وفقيرهم قويهم وضعيفهم فيقول^(٧) :

وسيان ذل الفقر أو عزه الغنى ومن أسرع السير الحثيث ومن يبطي
تساوى على ورد الردى كل وارد فلم تغن رب السيف عن ربه القرط

(١) انظر عن معركة طريف : المقرئ ، نفح الطيب ، م ١٤/٥ و ١٥.

(٢) هو أبو محمد عبد الله بن سعيد بن عبد الله السلماني ، انظر ترجمة عند : لسان الدين ، الإحاطة م ٣٨٩/٣ وما بعدها ، والمقرئ ، نفح الطيب م ١٦/٥ وما بعدها .

(٣) أورد لسان الدين هذه العبارة قبل الأبيات " قلت في رثائه من قصيدة أولها : أنظر : لسان الدين ، ديوان لسان الدين ، م ٤٦٣/٢ ، والمقرئ ، نفح الطيب ، م ١٧/٥ .

(٤) لسان الدين بن الخطيب ، الإحاطة ، م ٣٩١/٣ ، المقرئ ، نفح الطيب ، م ١٨/٥ ، ولسان الدين ، ديوان لسان الدين ، م ٤٦٣/٢ .

(٥) المصادر السابقة نفسها ، والأجزاء نفسها ، والصفحات نفسها ، في ديوان لسان الدين وردت يسترد ويعطي .

(٦) الثبح : علو وسط البحر إذا تلاقت أمواجه ، ابن منظور ، لسان العرب ، مادة ثبح .

(٧) المصادر السابقة نفسها والصفحات نفسها ، في نفح الطيب ، ورد البيت الرابع ثالثاً .

ولم يغيب عن أبي محمد عبد الله الأزدي^(١) مواساة لسان الدين في أبيه وأخيه في تلك المعركة، مؤكدا في بداية قصيدته حتمية الموت وعدم استطاعة الإنسان الهروب من قدره فيكتب لابن الخطيب قائلا^(٢):

خطب ألم فأذهب الأخ والأبنا رغما لأنف شاء ذلك أو أبى
قدر جرى في الخلق لا يجد امرؤ عما به جرت المقادر مهربا

ثم يشير الأزدي إلى معركة طريف ، ويبين أن الحزن قد عم أرجاء مملكة غرناطة لفقدائها العديد من أبنائها في تلك المعركة ، ولكن مصيبة لسان الدين أصعب وأمر ، لأنه فقد الأب والأخ معا^(٣) :

وتجمعت فئة الضلال فقابلت فئة الهدى فتفرقت أيدي سبا
يوم لوى ليلانه لم يبق للـ إسلام حد مهند إلا نبيا
دهم المصاب فعم إلا أنه فيما يخصك ما أمر وأصعبا

ثم يوضح سبب مواساته لابن الخطيب قائلا^(٤) :

قاسمتك الشجو المقاسمة التي صارت بخالص ما محضتك مذهبا
لم لا ، وأنت لدي سابق حلبة تزهى بمن في السابقين تأديبا

فالأزدي يقاسم ابن الخطيب الحزن في مصابه، ويقدر مكانة وموهبة لسان الدين الأدبية التي جعلته من السابقين في حلبة الأدب .

ويختم قصيدته مبينا فوز الشهيدين بدار النعيم وحوورها ، طالبا من لسان الدين الاستغناء بالله الرحمن عن سواه :

يهني الشهيدين الشهادة أنها سبب يزيد من الإله تقربا
وردا على دار النعيم وحوورها كلفا يبرهما يزدن ترحبا
فاستغن بالرحمن عن قد ثوى من حزب خير من ارتضى ومن اجتبى^(٥)

(١) هو: أبو محمد عبد الله بن إبراهيم الأزدي ويعرف بالمرابع . انظر ترجمته عند: لسان الدين ، الإحاطة م ٤٢١/٣ ، نصوص جديدة لم تنتشر ، ص ١١٤

(٢) لسان الدين ، الإحاطة في أخبار غرناطة نصوص جديدة لم تنتشر ، ص ١١٧، ١١٦ والمقري ، نفح الطيب ، م ١٢/٥ .

(٣) المصدران السابقان الأجزاء نفسها ، الصفحات نفسها في نفح الطيب وردت كلمة (فئة) مكان كلمة (فيه)

(٤) المصدران السابقان ، الأجزاء نفسها ، الصفحات نفسها .

(٥) المصدران السابقان ، الصفحات نفسها .

ويرد لسان الدين على قصيدة أبي محمد عبد الله الأزدي ، مبينا الأثر الإيجابي
لقصيدته^(١) :

وافيت و الدنيا علي كأنها سم الخياط و طرف صبري قد كبا

ثم يعلن لسان الدين بن الخطيب حزنه الشديد الذي ضاق صدره به^(٢) :

خطب تأو بني يضيق لهوله ربح الفضا وتهي^(٣) لموقعه الربى
لو كان بالورق الصوادح في الدجى ما بي لعاق الورق عن أن تندبا

ولم يعد لسان الدين يرى في الدنيا جمالا ، ولا للعيش لذة وقد فقد الأب والأخ^(٤) :

لا حسن للدنيا لدي ولا أرى للعيش بعد أبي وصنوي مأربا

ولا يستغرق لسان الدين في حزنه دون نهاية ، وذلك لأنه يعرف أن الموت سنة كونية
حتمية ، رضي الإنسان بها أم أبى ، والموت أمر طبيعي كما الشباب والمشيب^(٥) :

لو لا التعلل بالرحيل وأننا ننضي من الأعمار فيها مركبا
فإذا ركضنا للشبيبة أدهما حال المشيب به فأصبح أشهبها
والملقى كثر وفي ورد الردى نهل الورى من شاء ذلك أو أبى
لجريت طوع الحزن دون نهاية وذهبت من خلع التصبر مذهبها

ولسان الدين يلجأ في نهاية قصيدته إلى ثقافته الإسلامية ، فيظهر تجلدا وصبرا وتحملا
للمصيبة ، ورضا بقضاء الله وقدره فيقول^(٦) :

(١) لسان الدين ، الإحاطة بنصوص جديدة لم تنشر ص ١١٧ ، المقرئ ، نفح الطيب م ١٣/٥ و ١٤

(٢) المصدر ان السابقان ، الصفحات نفسها

(٣) تهي : ضعف ، تفرز واسترخى ، ابن منظور ، لسان العرب ، مادة وهى

(٤) لسان الدين ، الإحاطة ، نصوص جديدة لم تنشر ، ص ١١٧ .

(٥) المقرئ ، نفح الطيب ، م ١٤/٥

(٦) المصدر السابق ، ولسان الدين ، الإحاطة بنصوص جديدة لم تنشر ١١٧ ورد فيها (عماد) مكان كلمة (رغما)

رغما ، وحق العبد أن يتأدبا
لم تلف منه سوى إليه المهربا

والصبر أولى ما استكان له الفتى
وإذا اعتمدت الله يوما مفزعا

ومن الجدير ذكره أن الملك يوسف الثالث (ت ٨٢٠هـ) قد بدأ قصيدته في رثاء والده
متسائلا عن الصبر^(١):

خليلي أين الصبر منا ويوسف وأين أياديه الكريمة تصرف

ولقد افتقد أباه الراعي المتفقد لأحواله باستمرار ، الدائم السؤال عنه ، فوالده كان مصدر
أمان وطمأنينة له يعمل على إبعاد الهموم عنه^(٢) :

ودوني حسام الخلافة مرهف
وينتابني تسألته والتعرف
ولا كلفة للنفس فيها تكلف
فكان لها منه الرضا والتعطف

علي ظلال من عناية يوسف
تباكرني تترى عوارفه ضحي
فلا همه للقلب فيها تههم
وحاجات نفس لم أراقب مكانها

لذا انفطر قلب الملك الشاعر ألما على فقد والده يوسف الثاني (ت ٧٩٧ هـ) وذرف
الدماء بدل الدموع وتبدل فكره ، وخامر قلبه حزن لا يوصف^(٣) :

وعيني بقاني الدمع تهمني وتذرف
وخامر قلبي منه ما ليس يوصف

لقلبي أولى أن يذوب تظفرا
تبدل فكري عند فقدي يوسف

ويحاول الملك الشاعر أن يختم قصيدته بأن يبعث الطمأنينة على مصير المرثي بقوله إن
الريحان والملائكة والرحمة ما زالت حول لحد أبيه^(٤):

بلحد ثوى فيه الشريف المشرف

فلا زال ريحان وروح ورحمة

(١) يوسف الثالث ، ديوان ملك غرناطة ، ص ١٤٤.

(٢) المصدر نفسه ص ١٤٤ و ١٤٥.

(٣) نفسه ، ص ١٤٥.

(٤) نفسه ص ١٤٥.

* البيت مكسور .

وتكاد الوحدة تعصف به في قصيدة أخرى ، وهو يطلب السلوان فلا يجده ، فلقد فقد حياته بفقده والده^(١) :

فأننا الآن أحـد	بان صبري وبعده بصري
طلبوا سلوتي فما أجـد	كلفوا مهجتي العزاء وقد
بعد فقد الحياة لي جـد	فقدت نفسي الحياة وهل

رثاء الأمهات

في ثايا الأحداث والسنين نقع على بيتين فريدين لابن الأزرق^(٢) سجل فيهما حزنه وألمه للفاجعة التي ألمت به بوفاة أمه ، وقد بناهما على حوار مع أمه عند احتضارها فقد قال عند وفاتها^(٣) :

نقول لي ودموع العين واكفة	ما أقطع البين والترحال يا ولدي
فقلت أين السرى ؟ قالت : لرحمة من	قد عز في الملك لم يولد ولم يلد

فألمه تذرف دموع الفراق والرحيل بغزارة ، وتنعت لحظة الفراق بالفضاعة ويبدو أن موتها كان ليلاً ، لذا خشي رحيلها وحيدة فسألها : إلى أين أنت ذاهبة ؟ فأجابته : إلى من يملك الرحمة والعزة الواحد الأحد .

ففي البيت الأول جزع وقلق وفي البيت الثاني استقرار وإيمان ، رحم الله جميع أموات المسلمين .

ويبدو لي أن سبب قلة شعر رثاء الأمهات في هذا العصر قد يعود إلى ضياع بعض المخطوطات التي اشتملت على هذا اللون من الشعر أو عدم تحقيقها للآن أو نتيجة إحراقها في

(١) يوسف الثالث ، ديوان ملك غرناطة ، ص ٥٦

(٢) هو أبو عبد الله محمد بن علي بن محمد بن الأزرق الوادي أشي الغرناطي ، قاضي الجماعة بغرناطة ، رحل عن غرناطة قبيل سقوطها إلى تلمسان ثم ارتحل منها إلى المشرق ، توفي عام (٨٩٦هـ) له تاليف منها : "دائع السلك في طبائع الملك" و"شفاء الغليل في شرح مختصر الخليل" انظر ترجمته في : المقرئ ، نفح

الطيب م ٦٩٩/٢-٧٠٤ ، وانظر : المقرئ ، أزهار الرياض ، ج ٣/٣١٧

٣ المقرئ نفح الطيب ، م ٦٩٩/٢ ، المقرئ ، أزهار الرياض ، ج ٣/٣١٩

مضاعفات محاكم التفتيش بعد سقوط غرناطة وربما لصعوبة رثاء المرأة بشكل عام لما تشكله من خصوصية للأسرة .

رثاء الأبناء :

إن حزن الآباء على موت أبنائهم عميق متدفق الشعور ، لأنه ينبع من عاطفة الأبوة التي تمتد ذلك الحزن بجذوة لا تنطفئ ولهيب مستعر لا حد لحرارته فهو افتقاد للفرع الذي يعني استمرار الوجود وبقاء الذكر بين الناس ، والأهم من كل ذلك أن موت الأبناء الشباب في شبوة آبائهم ، يهز شغاف قلوبهم ، ويفقدهم بهجة الحياة وزينتها ، فيلتاعون ويتألمون ، فهذا الوزير ابن الجياب (ت ٧٤٩ هـ) يجأر بعد موت ابنه محمد أبي القاسم قائلا^(١) :

فيا رحمة للشيب يبكي شبيبة قياس غريب عكسه كان أقيسا

ويؤكد في قصيدة أخرى على عظم المصيبة التي حلت به وهدت ركنه الوثيق وهو في عشية من عمره^(٢) :

وهدة خطب نازلتني عشية فما أغنت الشكوى ولا نفع الأسا
فقد صدعت شملي وأصمت مقاتلي وقد هدمت ركني الوثيق المؤسسا

ويستغرب القيسي كيف استطاع الموت أن يغتال ابني صديقه وهما في مقتبل العمر فيقول^(٣) :

إني لأعجب منه كيف غالهما حال الشباب وعمر راق مقتبل

أما ابن رشيد الفهري^(٤) (ت ٧٢١ هـ) فيملاً حزنه على فقد ابنه أقطار نفسه فيقول^(٥) :

(١) ابن الجياب ، ديوان ابن الجياب ، ص ٢٨١

(٢) المصدر السابق نفسه ص ٢٧٩ ، المقرئ نفح الطيب ، م ٤٣٩/٥

(٣) القيسي ، ديوان عبد الكريم القيسي الأندلسي ص ٤٢٢

(٤) هو محمد بن عمر بن محمد بن رشيد الفهري السبتي ، ورد على الأندلس سنة ٦٩٢ هـ وكان محدثاً ورحالة

شهيراً فتقدم خطيباً وإماماً بالمسجد الأعظم ولد في سبتة سنة ٦٥٧ هـ توفي بمدينة فاس سنة ٧٢١ هـ انظر

ترجمته : عند ابن الخطيب الإحاطة م ١٣٥/٣

(٥) ابن الخطيب ، الإحاطة م ١٤١/٣ و ١٤٢

ولا مثل فقدان البني فجيرة
وقد كان ظني أنني لك سابق
وإن طال ما لجت وحلت بوايق
فقد صار علمي أنني بك لاحق

إن حياتهم بعد موت أبنائهم قد تغيرت وانقلبت، فلذئذ عيشهم ونعيمه قد تكدر وتنقص،
فلا لذة فيه ولا نعيم ولا مسرة، فهذا ابن رشيد يقسم^(١) :

وتالله مالي بعد عيشك لذة
ولا راقني مرأى لعيني رايق

وابن الجياب يقول^(٢) :

وقطعت أمالي من الناس كلهم
وأبو حيان الأندلسي الغرناطي (ت ٧٤٥) يؤكد تكدر عيشه بعد موت ابنته نضار^(٣) قائلا :
فلسن أبالي أحسن المرء أم أسا
أبعد نضار ابتغي صفو عيشة
وقد كدرت يا بعد عيشي من الصفو^(٤)

وفي قصيدة أخرى^(٥) :

راحت نضار فلا عيش يلذ لنا
ويجد القيسي بعد فقد توأميه الحسن والحسين أن حلو الحياة أصبح مرا وحسنها أصبح
مستقبحا^(٦) :

تغيرت عندي الدنيا لفقدما
فداوها في فمي مر وفي نظري
تغيرا جبره ما إن لـه سنن
مستقبح من سناها المنظر الحسن

(١) ابن الخطيب الإحاطة م ١٤١/٣

(٢) ابن الجياب، ديوانه، ٢٨٠.

(٣) هي نضار بنت محمد بن يوسف أم العز بنت الشيخ أبي حيان ولدت ٧٠٢هـ وأجاز لها أبو جعفر بن الزبير،
حفظت مقدمة في النحو، وخرجت لنفسها جزءا ونظمت شعرا وكانت تعرب جيدا توفيت عام ٧٣٠هـ فحزن
عليها والدها وجمع في ذلك جزءا سماه "النضار في المسلاة عن نضار" انظر ترجمتها عند : ابن حجر،
الدرر الكامنة ج ٥/١٦٧، ١٦٨

(٤) أبو حيان، ديوان أبي حيان الأندلسي ص ٤٠٨

(٥) المصدر السابق ص ٤٠٠

(٦) القيسي، ديوان عبد الكريم القيسي ص ٣٢٩

فالذكريات تتتابع أمام عيونهم أينما التفتوا ، في مجالسهم مع من فقدوا وفي الأصوات والأسماء المشابهة ، وحتى بطريقة طرق الأبواب فهذه الذكريات تحيط بابن رشيد الفهري فيفتقد ابنه المتوفى ويزداد ألمه فالأشياء التي تذكره بابنه كثيرة ^(١) :

فإنني به والمذكرات عديدة	فنبيل وهم للعوايد خارق
فإن ألتفت فالشخص للعين مائل	وإن أستمع فالصوت للأذن طارق
وإن أدع شخصا باسمه لضرورة	فإن اسمك المحبوب للنطق سابق
وإن تقرر الأبواب راحة قارع	يطر عندها قلب لذكرك خافق
وكل كتاب قد حوت فمذكر	وآثاره كل إليك تواق

وابن الجياب يلتفت حوله وهو غير مصدق فقدانه أعز أبنائه فيتساءل ^(٢) :

أحقا ثوى ذاك الشباب فلا أرى له بعد هذا اليوم حولي مجلسا

ويتعجب في قصيدة أخرى وقد عز عليه أن لا يرد ابنه على ندائه فمدارج طفولة ابنه قد خلت منه ونداؤه يعود إليه دون إجابة ^(٣) :

أعزز علي بأن أنادي مربعا أدرجت فيه فلا ترد جوابي

وفراق الموت فراق لا رجعة فيه ، والذكريات تتوالى متتابعة على أبي حيان فيقول ^(٤) :

مصاب عرانا لا مصاب شبيهة فراق بلا رجعى وذكرى تتابع

أما ملك غرناطة يوسف الثالث فيقرر بأن الذكريات لا تجدي فيقول في رثاء ولده ^(٥) :

قرة العين ما عسى فيك يجدي تذكري

(١) ابن الخطيب، الاحاطة، م ١٤١/٣ و ١٤٢.

(٢) ابن الجياب ، ديوان ابن الجياب ، ص ٢٨٠.

(٣) ابن الجياب ، ديوان ابن الجياب ، ص ١٥٧.

(٤) أبو حيان ، ديوان أبي حيان الأندلسي ، ص ٢٦٦.

(٥) يوسف الثالث ، ديوان ملك غرناطة ص ٨٦.

لقد أقفرت حياة الوزير ابن الجياب من أي أمل وأصبح التأسي صبرا كاذبا غير مقدور عليه ، فقد أصبح قلبه وقفا على الأسى منذ رحيل ولده أبي القاسم محمد^(١) :

أمن بعد ما أودعت روعي في الثرى ووسدت مني فلذة القلب مرمسا
أومل في الدنيا حياة وأرتضي مقبلا لدى أبنائها ومعرسا
وقفت فؤادي مذ رحلت على الأسى وأشهد لا ينفك وقفا محبسا

وفي قصيدة أخرى يقول الوزير ابن الجياب^(٢) :

كيف السلو ولا سلو وإنما غالطت فيه بصيري الكذاب

وجمر الأسى في القلب لا ينطفئ ، والحسرة مستمرة لا يداويها تعاقب الأيام فهذا يوسف الثالث ملك غرناطة يقول في رثاء ابنه عبد الله^(٣) :

أضرم عبد الله جمر الأسى في القلب لما لم يلح بالحمى

ويقول في قصيدة أخرى^(٤) :

يا قطعة القلب مذ نأيت لقد تركت قلبي للواجد والفكر

والسلوان عنهم بعيد ، فكيف يسلون أرواحهم ؟ فقلب أبي حيان بعد موت ابنته نضار قد انقسم ثم حشي بجمرة نار الأسى والحسرة^(٥) :

ما لقلبي مقسم الأفكار وكأن قد حشي بجمرة نار*

أما الوزير ابن زمرك^(٦) (ت ٧٩٦هـ) فيخاطب السلطان الغني بالله بعد وفاة أصغر

(١) ابن الجياب، ديوان ابن الجياب، ص ٢٨٠.

(٢) ابن الجياب ، ديوان ابن الجياب ، ص ١٥٧

(٣) سف الثالث ، ديوان ملك غرناطة ، ص ١٢٤

(٤) يوسف الثالث ، ديوان ملك غرناطة ص ٧٧

(٥) أبو حيان ، ديوان أبي حيان الأندلسي ص ١٩٢

(٦) ابن زمرك هو: محمد بن يوسف بن محمد الصريحي يكنى أبا عبد الله ويعرف بابن زمرك ، ولد في غرناطة، خدم الغني بالله حتى توفي ثم خدم ولده يوسف الثاني حتى مات ، ثم أرسل الملك محمد السابع رجالا داهموا منزله وقضوا عليه عام ٧٩٦هـ ، وكان من تلاميذ لسان الدين الذين انقلبوا عليه وسعوا فيه ، انظر ترجمته عند : لسان الدين ، الاحاطة م ٣٠٠/٢ ، والكتيبة الكامنة ص ٢٨٢ ، والمقري أزهار الرياض ج ٢/٧ -

٢٠٦ ، ونثيرفرائد الجمان ص ٣٢٧

أبنائه مشيرا إلى أن مصيره في الجنة وذلك ليخفف من ألم المصاب قائلا^(١) :
وإن كان قد أذكى الجوانح فقه
سيبردها من مورد الحوض كوثر

أما ابن فركون فيؤيد أن الأسى قد بلغ حده بموت الزوجة زوجة الملك يوسف الثالث ،
ولحاق ولدها بها بعد عقيقته^(٢) :

يمينا لقد جاز الأسى منتهى الحد فيا ليت حسن الصبر في مثلها يجدي

ويلاحظ أنهم عدوا استمرار الحزن نوعا من الوفاء للمرثي ، فالقيسي ألف الحزن على
ولديه لأنه يحفظ عهدهما بذلك^(٣) :

عليهما أبدا لهفي أردده ما دام للروح مثوى مني البدن
والحزن ألفه حفظا لعهدهما مع اعتقادي بأن لا ينفع الحزن

ومصاب الوزير ابن الجياب بابنه أبي القاسم يبدو كبيرا فوفاءه لفقيده يعني مقاطعة
الحياة وسلبها بل والموت من بعده فلا يكاد يصدق أنه قد وضع ابنه بيده موسدا له القبر بين
صفائح وتراب ، ثم تركه وعاد إلى حياته العادية^(٤) :

حقا وضعتك في الضريح موسدا يملك رهن صفائح وتراب
ثم انقلبيت ولم أقاسمك الردى سحقا لرسم في الوفاء خراب

ويتبرأ الوزير ابن الجياب من نفسه لأنها لم تلحق بفلة كبدتها وفي هذه الأبيات إشارة
إلى عادة اجتماعية ربما شملت الرجال أيضا وهي شق الثياب عند موت عزيز^(٥) :

لبرئت من نفسي إذا لم تفظ وجدا على ذاك الشهاب الخابي
لم أوف عهدك إذ دفنتك ثم لم أشق فؤادي لا أشق ثيابي
لو أنني وفيت عهدك صادقا لهجرت بعدك مطعمي وشرابي

(١) ابن زمرك ، ديوان ابن زمرك ، ص ١١٧

(٢) ابن فركون ، ديوان ابن فركون ، ص ١٣٢ ، ٣١

(٣) القيسي ، ديوان عبد الكريم القيسي ، ص ٣٢٨

(٤) ابن الجياب ، ديوان ابن الجياب ، ١٥٧

(٥) المصدر السابق ، ص ١٥٦ ، ١٥٧

ويعاهد أبو حيان نفسه على البقاء بجوار قبر ابنته كئيبا حزينا^(١) :
وعاهدت أني لا أزال إزاءها مقيما كئيبا دائم الشوق والشجو

بل يصل الأمر به إلى تمنى الموت بعدها^(٢) :
أصبحت فردا فليت أني قضيت نحبا لما قضيت

ولا ننسى أن اتصاف المرثي بمناقب تفوق أقرانه ، تجعل حزن الأب عليه مضاعفا ،
لأنهم سيكون الحاضر المفقود والمستقبل الموعود الذي غدا ماضيا فتعداد مناقب المرثي يزيد من
الإحساس بألم الفقد وحرقة البعاد ، فهذا ابن الجياب يعدد مناقب ابنه أبي القاسم قائلا^(٣) :

لله ذاك القبر ماذا ضم من	فضل الحجى ومحاسن الآداب
وسماحة ورجاحة وأمانة	وصيانة وطهارة الأثواب
وشمائل مرضية معسولة	كالشهد ممزوجا بماء سحاب

وهذا ابن رشيد يستبشر بمستقبل يظنه لابنه الذي فقد لولا اغتيال الموت له لكان نجيبا
وجيها لاحقا بأعلام عصره^(٤) :

فلو لم يغللك الموت دمت مجليا وأقبل سكيناً وجيهاً ولاحق

وتحصل مناقب المرثي في قصيدة ليوسف الثالث تلتفيها ، أبين فيها ولده يوسف الذي كان
عدته للخطوب، وكان كما أراده فتوة ، وجلالة ، وكرما ، وطهارة ، وعزة نفس ، فهو يقول^(٥) :

فتى ما فتى ملء النفوس جلالة	وملء الأمانى من يديه المنائح
فتى كانت العلياء أكبر همه	وجل أمانيه الثناء المنافع
جلالة قدر واقتبال شبيبة	وعزة نفس جانبتهما الفضائح
وكنا نرجيه على الدهر عدة	إذا ما عرا خطب من الدهر فادح

(١) أبو حيان ، ديوان أبي حيان الأندلسي ، ص ٤٠٩

(٢) المصدر السابق ص ١٢٤

(٣) ابن الجياب ، ديوان ابن الجياب ، ص ١٥٧

(٤) ابن الخطيب ، الإحاطة ، م ١٤٢/٣

(٥) يوسف الثالث ، ديوان ملك غرناطة ، ص ١٨٦ .

* السكيت : العاشر من خيول السباق وبعده لا يعتد به .

فقد كان فتى يملأ نفوس من حوله جلاله ويملاً أيديهم بالمناجح ، وكانت العلياء أكبر هم له؛ وهو شاب عزيز النفس ، مبتعد عن الرذائل ، لكل ذلك كان رجاء الشاعر على مدى الأيام ، وعدته لمواجهة مصائب الدهر ، بل هو سيفه ودرعه الذي كان يحميه من أذى الأيام ومصائبها^(١) :

وكنت صباحي مشرق اليوم ساطعا فقد صرت في ليل من الحزن عاتم
وكنت مجنبي دون من كنت أتقي أذاه وسهمي في الخطوب وصارمي*

أما أبو حيان فيرى أن من حقه الحزن على ابنته التي لا نظير لها في قريناتها ، فهي تفوقهن جمالا وعقلا وفطنة وتدينا وعلمًا^(٢) :

وما كنضار في البنات ومالها شبيه يرى لا في البداوة والحضر

ويقول^(٣) :

وعطل بيت العلم والدين والحجاء من الذكر والقرآن والفقه والنحو
فتاة كأن الحسن خير أين من يحل بها فاختارها طالب البأو^(٤)

ويغدو الصبر العلاج الأوفى لمن أصيب بعزير ، فالصبر مقرون بالأجر ، والموت حتمي لا مفر منه طال العمر أم قصر ، ولجأ الشعراء للصبر ليداوي جراحهم^(٥) :

تجلدت أبغي الأجر والمجد قائما بواجب حق الصبر أبرع قائم

* ورد في الشطر الأول تضمين من الرائية المشهورة لعمر بن أبي ربيعة.

(١) المصدر السابق ، ص ١٨٧

(٢) أبو حيان ، ديوان أبي حيان ، ص ١٧٩

(٣) المصدر السابق ، ص ٤٠٧

(٤) البأو : الكبير والفخر ابن منظور ، لسان العرب ، مادة بأي

(٥) يوسف الثالث ، ديوان ملك غرناطة ، ص ١٨٧

ويعظم الخطب بالملك يوسف الثالث عند فقد أبيه ثم أخيه ثم ابنه ويعترف بأن لا قبل له بالصبر، ولكنه يسأل الله اللطف في قضائه فيقول^(١) :

هذي القوافي دعت للصبر ناظمها
لكنه اللطف لطف الله يوردنا
وماله بمرام الصبر من قبل
موارد صفوها براء من العلل

إن هول المصيبة التي حلت بابن الجياب يخففها صبره الثابت الذي لا يتزعزع ، وإيمانه بأنه لاحق بابنه لا محالة^(٢) :

ثبت لها صبرا لشدة وقعها
وخفف من وجدي به قرب رحلتي
فما زلزلت صبري الجميل وقد رسا
وماذا عسى أن ينظر الدهر ما عسا

وهذا القيسي يدعو صديقه الذي فقد ابنه الشابين أن يصبر لهذا الحدث العظيم إذا أراد أجرا في الدنيا وفي الآخرة فقال مواسيا له^(٣) :

صبرا جميلا لهذا الحادث الجلل
فالصبر بالأجر مقرون ومرتب
وإن يكن ما به للقلب من قبل
في عاجل العمر أو مستقبل الأجل

ويسبى أن الوزير لسان الدين بن الخطيب قد صبر عند وفاة ابنته مما جعل الكاتب أبا عبد الله محمد الغافقي^(٤) يقول^(٥) :

رجعت للصبر تبغي الأجر محتسبا
في جنة يجلب الأفراح دائمها

ولا يتوانى الوزير ابن زمرك عن حث الملك محمد الغني بالله على الصبر بعد وفاة أصغر ابنائه واعتبار موته تميمة تقي بقية أولاده الحسد. إضافة إلى بيان عظيم الأجر وجزيل الثواب للصابرين الشاكرين عند المصيبة امتثالا لمبادئ العقيدة الإسلامية فيقول^(٦) :

(١) المصدر السابق ص ١٠٦

(٢) ابن الجياب، ديوان ابن الجياب، ص ٢٨١.

(٣) القيسي ، ديوان عبد الكريم القيسي ، ص ٤٢٠

(٤) الشيخ الكاتب أبو عبد الله محمد بن محمد بن حسان الغافقي ، انظر ترجمته عند : ابن الخطيب ، الكنتية الكامنة ، ص ٢٤٥

(٥) ابن الخطيب ، الكنتية الكامنة ، ص ٢٤٢

(٦) ابن زمرك ، ديوان ابن زمرك ، ص ١١٧

فأجرك أجر الشاكرين ولم يزل
وإن كان من قدمت أصغر قومه
وما كان ما بالأمس إلا تميمة
يزاد من النعماء من كان يشكر
فأجرك منه في معادك أكبر
نغمض عينا بالحسادة تنظر

ومرجع الأمر بعد تسطير الآهات المجروحة والأنين المر ، واللجوء للصبر أن يأتي
الإذعان لله تعالى ولقضائه وقدره ، فهذا ملك غرناطة يتوجع لفقد ولده الصغير ، لكنه يمتثل
ويستسلم لإرادة الله - عز وجل - فيقول :

برغمي ورغم المجد والبأس والندى
ورغم المعالي غيبتك الصفائح^(١)

وسبحانه قاهر عباده بالموت ، وهذا ملك غرناطة يدعن الله وأمره :
لفقده القلب غدا موجعا
لما قضاه الله مستسلما^(٢)

وفي موضع آخر يقول :

فوافاه حكم الله والقدر الذي
فجعنا به والله يكتب أجرنا
إذا كان منه الحكم فالأمر ممتثل
كما فجعت قبل الخلائف والدول^(٣)

والموت قادم لكل كائن حي ، مهما طال الوقت أو قصر هذا ما يقرره القيسي في هذه
الأبيات^(٤) :

فسلم الأمر لله العظيم كما
أمرت وأرض بما امضاه واحتمل

وابن الجياب يقتدي بالرسول - عليه الصلاة والسلام - في الصبر والرضا بالقضاء
والقدر :

ولكنه حكم من الله واجب
يسلم فيه من بخير الورى أنتسى^(٥)

(١) يوسف الثالث ، ديوان ملك غرناطة ، ص ١٨٦

(٢) المصدر نفسه ، ١٢٤

(٣) نفسه ص ١٠٦

(٤) القيسي ، ديوان عبد الكريم القيسي ، ص ٤٢١

(٥) ابن الجياب ، ديوانه ، ص ٢٨١ .

أما أبو حيان فيخفف عنه أن الآجال بيد الله وإرادته تقع أينما شاء سبحانه :

ولما قضى الرحمن إنفاذ حكمه وكل الذي قد حم لا شك واقع^(١)

ويلاحظ أن ابن الجياب قد جمع إلى رثاء ابنه تأنيب المغتر بالحياة الدنيا والدعوة إلى هجر ملذاتها^(٢) :

لا كانت الدنيا ولا أبناؤها
يا خابطا في سحتها متهافتا
لو كنت في أحوالها مستبصرا
لهجرتها هجر امرئ منتاب
هي دار كل خديعة وكذاب
ما بين ذؤبان لها وكلاب
لهجرتها هجر امرئ منتاب

أما القيسي فيأخذ مساراً آخر في رثائه لابني صديقه ، فقد طلب من صديقه أن يتعظ من موت الأمم السابقة وربوعها الخالية فالموت سنة من سنن الحياة لم يزل منذ وجدت الخليقة فيقول^(٣) :

فتلك أربعهم بالموت خالية وهم بها بين مصروع ومنجدل

وبعد ، يقف الأب الشاعر أمام قبر من عز عليه فقده ليدعو له بالرحمة والغفران ، وأن تسقيه الغواذي مدرارا ، فالمطر يحيي الأرض الموات ويجعلها زاهرة نضرة ، وكذا يفعل المطر بقبور من فقدوا يحيي ذكرهم في قلوب آبائهم وأهلهم بدموعهم التي يذرفونها كلما افتقدوهم لذا يأتي الدعاء لهم بالسقيا لقبورهم استمرارا للحياة ، لأنهم أحياء في قلوب أعزائهم ، وتزهر الذكرى كلما حنوا إليهم أو بكوهم .

فهذا ابن الجياب يدعو لابنه أبي القاسم^(٤) :

وتغمدتك من المهيم رحمة موصولة ممدودة الأطناب

(١) أبو حيان ، ديوان أبي حيان ، ص ٢٦٨

(٢) ابن الجياب ، ديوان ابن الجياب ، ص ١٥٨

(٣) القيسي ، ديوان عبد الكريم القيسي ، ص ٤٢٢

(٤) ابن الجياب ، ديوان ابن الجياب ، ص ١٥٩

وأبو حيان يتمنى أن تسقي قبر نضار غيمة لا تكف أمطارها عن الهطول أبدا :
سقى روضة حلت نضار قرارها مغب من الغر الغواذي بلا صحو^(١)

وكل طلوع للشمس ، أو هطول لمطر ، أو لمعان لبرق ، يرسل ابن رشيد بسلام إلى
قبر ابنه^(٢) :

عليك سلام الله ما حن ساجع وماطلعت شمس وما ذر شارق
وما همعت سحب غواد رواج وما لمعت تحدو الرعود بوارق

ولا بد من الإشارة إلى أن بعض الشعراء قد جمعوا بين التعزية والتهنئة في قصيدة
واحدة على صعوبة هذا الجمع^(٣) فابن فركون هنا الملك يوسف الثالث ببنت ولدت له على إثر
وفاة مولود له عام (٨١٢هـ) فقد غاب بدره بعد إشراقه فعوض عنه نور شمس الضحى وقد
طلعت بعد أن رأت سيف البدر (المولود) قد أغمد في الأرض ، تلك الوافدة التي أتت بعد ذهاب
ذلك المولود كما قضى الله سبحانه^(٤) :

وبشرى بوافدة قد أتت لها شرف حاز أقصى المدى
على إثر من جد في سيره وحادي المنايا به قد حدا
نقد طلعت هذه عندما رأت سيفه في الثرى أغمدا
فإن غاب بدر الدجى مشرقا فشمس الضحى نورها قد بدا

ولقد استطاع ابن الجياب أن يوازن بمهارة بين تعزية الوزير ابن الحكيم^(٥) بولده وبين
تهنئته بقدومه من العدو فترحه قد نسخه فرحه ، وتبسم المجد بعد عبوسه ، والصدر بعد ضيقه
أصبح منشراحا وليل الأحزان قد أسفر عن فجر مشرق. فقد قال^(٦) :

(١) أبو حيان ، ديوان أبي حيان ، ص ٤٠٩

(٢) ابن الخطيب ، الإحاطة ، م ١٤٢/٣

(٣) انظر : ابن رشيق ، العمدة ، ج ٢/١٥٥

(٤) ابن فركون ، ديوان ابن فركون ، ص ١٣٧

(٥) ابن الحكيم : هو محمد بن عبد الرحمن اللخمي الرندي ، أبو عبد الله ، ويعرف بابن الحكيم ، ولد برندة عام

٦٦٠هـ انتقل إلى غرناطة فعمل في ديوان الإنشاء وتولى الوزارة ثم لقبه السلطان محمد المخلوع بذي

الوزارتين كان كاتباً بليغاً وأديباً شاعراً محباً لجمع الكتب ناقداً للشعر ، استبد بالسلطة فنار عليه اشراف غرناطة

وقتلوه سنة ٧٠٨هـ بعد أن خلعوا السلطان محمد انظر ترجمته عند : لسان الدين ، الإحاطة ٢/٤٢٤ ، ابن

حجر ، الدرر الكامنة ٤/١١٥ المقري ، أزهار الرياض ٢/٣٤٠

(٦) ابن الجياب ، ديوان ابن الجياب ، ص ١٩١

يا ترحة نسختها فرحة فلقـد
وحسرة ضاق منها الصدر آونة
وليل حزن دجت منه غياهبه
تبسم المجد منها بعدما كئـلها
فاليوم أصبح بعد الضيق منشـرحا
فالآن أسفر منه الفجر واتـصحا

ولم ينس ابن فركون أن يختم قصيدته بمدح الملك يوسف الثالث^(١) فأحسن الشعر كما يقول المبرد (ما خلط مدحا بتفجع)^(٢) وكذا ختم ابن زمرك قصيدته التي رثى فيها ابن الملك الغني عبد الله ، بل وخصص قسما منها للنيل من الوزير السابق ابن الخطيب بعد ارتحاله إلى المغرب وقيام نفرة بينه وبين الملك الغني بالله^(٣) .
أما الكاتب أبو عبد الله محمد الغافقي فقد رثى ابنة لسان الدين بن الخطيب واعتذر عن عدم حضوره لتعزيته بها ثم مدحه قائلا^(٤) :

إني لمجدك بالتقصير معترف
وعن مغيبتي لما صفت جوهرة
يا من له شيم رقت نواسمها
حازت بفضلك أسنى الحظ أندلس
على الفروض التي ترعى لوازمها
من اللئى بطن الأرض كاتمها
هي المواهب والرحمن قاسمها
فأنت قطب معاليها وعالمها

ولقد أحسن الشاعر ابن الجياب الجمع بين التهنئة والثناء في هذا البيت إذ هنا الوزير ابن الحكيم بقدومه وبنيله لثواب الصابرين إذ قال^(٥) :

فاهنا بمقدم سعد جل موقعه
وأقن الثواب بصبر يجزل المنحا

بل وذكر ابن الجياب للممدوح أخلاقا توافق الأخلاق المرغوب الاتصاف بها عند فقد عزيز من صبر واتساع للصدر عند المصائب وعدم الطيرة إذ يقول ابن الجياب^(٦) :

(١) ابن فركون، ديوان ابن فركون، ص ١٣٧، ١٣٨

(٢) المبرد ، التعازي والمرائي ص ٢٧

(٣) انظر ابن زمرك ، ديوان ابن زمرك ص ١١٨ و ١١٧

(٤) ابن الخطيب ، الكتيبة الكامنة ، ص ٢٤٦

(٥) ابن الجياب ، ديوان ابن الجياب ، ص ١٩٢

(٦) ابن الجياب ، ديوان ابن الجياب ص ١٩٢

والق المصاب بقلب منك مصطبر
وأودع الخطب صدرا منك منفسحا
لا يستطيع إذا أمر ألم به
ولا يضيق به ذرعا وإن فدحا

ويختم قصيدته بمدحه للوزير ابن الحكيم بأن الخلافة قد ألقت مقاليدها إليه فهو مخلص
ممسك بزمام الأمور عند اشتداد الخطوب^(١) :

إن الخلافة قد ألقت مقالدها
إليك يا منتهى خلصائها الصرحا
بك اكتفت في ملومات الأمور فقد
رأت بسعيك باب الرشد مفتتحا

رثاء الإخوان :

إن عمق العلاقات الأسرية العربية جعلت من فقد الأخ مصيبة عظيمة فهو العضد
وشقيق الروح والمساند على الأيام ، فكيف إذا كان عزيزا وأثيرا لدى أخيه ؟ فهذا الملك الشاعر
يوسف الثالث قد فقد أخاه الأثير لديه الأمير أبا الحسن علي الذي توفي عام (٨١٩هـ)^(٢) ؛ مما
فجر ينابيع الحزن في قلبه فبدأ قصيدته بقوله إن الناس قد جهلوا مكانة أخيه المتوفى وارتقاءه
في العز والشرف والكرم ، وليوضح أن الصبر وطأته عظيمة على نفسه ، ولينادي باسم أخيه
منأسفا متحسرا على غيابه ، وقد غلبه الحزن واللوعة لفقده فيقول^(٣) :

جهلوا المجد والسلف
وعلاء قد ارتقى
وعطايا جزيلة
وطأة الصبر كلفوا
يا علي بن يوسف
والجميل الذي سلف
مظهر العز والشرف
بين ماض ومؤتلف
وهي من أعظم الكلف
غلب الوجد والأسف

فعيش الملك الشاعر لم يعد لذيدا بعد فجيعة بأخيه ، وكل القلوب سلت أخاه إلا قلبه ،
ودمعه لم يجف لأنه قد ألف الحزن^(٤) :

أي عيش يلذ لي
يوم أودى بك التلف

(١) المصدر السابق ، ص ١٩٢

(٢) انظر : ابن فركون ، ديوان ابن فركون ص ٣٥٨ ، ٣٦١

(٣) يوسف الثالث ، ديوان ملك غرناطة ص ١٦٧

(٤) المصدر السابق نفسه ص ١٦٧

كل قلب لقد سلا كل دمع همى وجف
ما عدا صنوك الذي ألف الشجو والدف^(١)

وترتفع ونيرة الحزن عند الملك الشاعر وتتصاعد حسرته لفقده أخيه الذي كان يدخره
عدة للأيام القادمة ، فقد كان ساعده في معاركه وأنيسه وقت راحته فيقول^(٢) :

كنت ذخيرتي وعدتي خلفا لي ممن سلف
كنت أنسي وراحتي ساعدا في الوعي وكف

ثم يبدأ الشاعر بيان أسباب حزنه على فقد أخيه الشاب بأبيات مفعمة باللهفة عليه
والحزن لفراقه ، فالأخ الفقيد كان درته المصونة . وغصنه بل وشمس حياته وبدر ليله ،
وبموت أخيه انكسف نور شمس . ودرته تشظى عنها الصدف ، وغصنه انكسر وبدره انطفأ ،
ليعيش الملك الشاعر وحيدا في ظلمة الحزن واليأس بعد موت أخيه الذي قضى وهو في مقتبل
عمره فشمس عمره في ضحاها ، وهو يراه امتدادا لأبائه وأجداده وكان يأمل أن يخلفه لا أن
يموت قبله!!؟^(٣) :

كنت درا أصونه فتشظى عنه الصدف
كنت غصنا يروقني فتشظى ثم انقصف*
كنت شمسي فنورها في ضحاها قد انكسف
كنت بدري تضىء لي غالة الخطب فانخسف
أفل النور لا أرى بعد الدهر من خلف*

(١) الدنف هو : المرض ، ورجل دنف ودنف : براه المرض حتى أشفى على الموت ابن منظور ، لسان

العرب ، مادة دنف

(٢) يوسف الثالث ، ديوان ملك غرناطة ، ص ١٦٧ .

(٣) يوسف الثالث ، ديوان ملك غرناطة / ١٦٨ .

* البيت مكسور

* البيت مكسور

وفي قصيدة أخرى في ديوانه يشتد الوجد به على أخيه ، لكن الملك الشاعر يبدو فيها أكثر تقبلا لمصيبته في أخيه ، وأقرب للصبر وأعمق رضا بقضاء الله وقدره فيقول^(١) :

لموجدة القلب المفجع موقع ولكن إلى الحكم إلهي نرجع
تقضى شقيق الروح لا زال لحده يعاهده صوب من الغيث ممرع
وهل هي إلا النفس منحة منعم وربى يعطي ما يشاء ويمنع
ولا يلبث أن يعود نبض ألم الفراق ، ... ولوعته إلى قلبه فيعلو صوته قائلا^(٢) :

فقدنا وليا جرع الكأس مرة وأصعب شيء معضل يتجرع
فقدنا أخا غالته طارقه الردى فمن للهوى من طارق يتوقع

ولا ينسى الملك الشاعر نفسه عند رثائه لأخيه ، فنلمح نفس الملك ونخوة الرياسة فيتذكر قائلا^(٣) :

أفضنا عليه من خلافة ملكنا مواهب يهمني صوبهن ويهمع
تجلت عليه من خلافة هدينا تباشير صبح راق منهن مطلع

ويبدو مطمئنا لمصاحبة جبريل - عليه السلام - لأخيه حتى يشفع له نبينا محمد - عليه الصلاة والسلام - فخلال أخيه الحميدة وصفاته الطيبة وأعماله في خدمة الاسلام ورفعته يستحق بعدها شفاعة الرسول الكريم فيقول^(٤) :

وصاحبة الروح الأمين لوجهة يؤمنه فيها الشفيع المشفع

أما الكاتب محمد بن عبد الحكيم بن تداررت^(٥) فيطالعنا مؤبنا أخاه أبا علي حسين ، فيعدد مناقبه الجائلة فقد كان وحيد زمانه كرما كحاتم طيء وجيها بين الناس ، كاتباً وناسخاً ،

(١) نفسه ، ١٣٩.

(٢) نفسه ، ١٣٩.

(٣) نفسه ، ص ١٣٩.

(٤) نفسه ، ص ١٣٩.

(٥) انظر ترجمته عند : ابن الخطيب ، الكتبية الكامنة ، ص ٢١٣.

فارسا صبوراً شديد البأس كعمرو بن معد يكرب ، حسن المظهر ، ومع اتصافه بكل ذلك رمنته
سهام الموت فأصابته فيقول^(١) :

أخي حسينا وحيد الزمان	سقى الله قبرك صوب الولي
فقد كنت في الجود حاتم طي	وفي مجمع الحفل صدر الندي
وفي الكتب آية فخر تتيه	الطروس بمنشئها البابلي
وفي الحرب عمرا ثباتا وصبرا	إذا طاش بالذعر قلب الكمي
وفي الحسن بدر تمام تجلى	فراق العيون بمرأى بهي
رمتك وشيكا قسي المنون	فلم تخط أسهم تلك القيسي

ويبدو أن حسينا قد مات غريقاً ، فاسترجع البحر درته المعتلية^(٢) :

طرتها البحار ولا غرو أن تغار على درها المعتلي

نقد أحس الشاعر بثقل الفجيعة على قلبه عندما سمع نبأ موت أخيه لذا يحق للوجود كله
أن يبكيه ليشاركه ثقل مصابه وعظيم ما حل به فيقول^(٣) :

بكاك الوجود وحق البكا	على فقد ذاك الجمال السني
فيا فجعة طالما أثقلت	فؤادي يوم طروق النعي

وأحسب أن أبيات الكاتب محمد بن عبد الحكيم في مجملها تعبر عن موقف شعوري
حزين الم بالشاعر بعد رحيل أخيه فهو حريص على افتداء أخيه بكل ثمين لو أمكن ذلك غير أن
لجوء الشاعر إلى أسلوب التكلف في رسم هذا الموقف جعل القصيدة تفقد جزءاً من حرارتها
ووهجها . لا سيما وأنها غصت بكلمات من مثل : الحلي ، المال النفيس ، الكنوز ، الحسن
البهلي ، درة حلاها ، ويسجل للشاعر أنه قد التمس التعزية والمواساة بموت سيدنا محمد عليه
الصلاة والسلام ، انظر إلى قوله^(٤) :

(١) ابن الخطيب الكتيبة الكامنة ص ٢١٣ . ٢١٤

(٢) المصدر السابق ص ٢١٤

(٣) المصدر السابق نفسه ، ص ٢١٤

(٤) نفسه ، ٢١٤

فمن للمعالي يصوغ حلاها فتختال زهواً بأبهى الحلبي
فلو كنت تفدى بمال ونفس لأعطيت فيك نفيس الفدي*
ولكن فقدتك كنزا عتيدا فحسبي التأسى بفقد النبي

ولم أعثّر في المصادر التي عدت إليها ولو على قصيدة واحدة في رثاء الأخوات ، ولا ريب أن الأخت قد رثيت وضاع ما قيل فيها مع ضياع الكثير من شعر هذه الحقبة .

رثاء الزوجات:

إن رثاء الزوجات يؤكد المكانة البارزة التي كانت تتبوأها المرأة الأندلسية في المجتمع الأندلسي الغرناطي ، فالزوجة سكن للنفس ، فلا غرو أن تروع قلوب الشعراء لوقوع مصيبة الموت بزوجاتهم ، فتفقد الحياة بهجتها ويحل الحزن قلوبهم ، يفقدهم عدتهم لأيام المحن .

فهذا لسان الدين بن الخطيب قد أصيب بوفاة زوجه في مدينة (سلا) المغربية ودفنها بالبستان المتصل بالدار وأخذ يقول^(١) :

روع بالي وهاج بلبالي^(٢) وسامني التكل بعد اقبال
ذخيرتي حين خانتني زمني وعدتي في اشتداد احوال
حفرت في داري الضريح لها تعطلا بالمحال في الحال

أما أبو حيان الأندلسي (ت ٧٤٥ هـ) فلم يعد يرجو الحياة بعد موت زوجته زمرد^(٣) وقد أحاط به الحزن من كل ناحية فيتساءل قائلا^(٤) :

أرجو حياة بعد فقد زمرد وكانت بها روعي تلذ وتغذي

* كما وردت في المصدر

(١) لسان الدين بن الخطيب ، نفاضة الجراب في علالة الاغتراب ج ٢/٢٠٥

(٢) البلبال والبلباله : شدة الهم والتوسوس ، ابن منظور ، لسان العرب ، مادة بلل

(٣) هي زمرد بنت أيرق زوج أبي حيان أسمعها الكثير على الأبرقوهي وغيره وحدثت سمع منها البرزالي وغيره ماتت سنة ٧٣٦ هـ وكانت تكنى أم حيان وهي والدة نضار بنت أبي حيان ، انظر ترجمتها عند : ابن حجر العسقلاني ، الدرر الكامنة ج ٢/٢٠٨ .

(٤) أبو حيان الأندلسي ، ديوان أبي حيان الأندلسي ص ١٦٧

زمرد قد خلفت للصب لوعة وحزنا بقلبي آخذا كل مأخذ

وينقلب الملك الشاعر يوسف الثالث (ت ٨٢٠هـ) على جمرات البعاد وتوجعته
فزوجته وإن أودعت في التراب فمسكنها سيظل في قلبه ما دام حيا^(١) :

فيا من لقلب ليس يهدأ بعدما تغلب في المشبوب من جمراته
ويا من لقلب ليس يرفأ عندما سرى ركبها والموت بعض حداته
لئن أودعوها في الثرى فمحلها من القلب محمي بطول حياته

إن هول المصيبة التي وقعت جعلت إدعاءه للتحمل واهيا ، ودموعه تسح بغزارة على
قبرها ، ويشعر بكبده الحرى تقدح زناد دموعه^(٢) :

على جدث ثاو برية نازح تسح جفوني أو تقر جوانحي
هو الرزء قد ألقى قناع تجملني وأبرز للأشجان حر سوافحي
فما طارق إلا ودمعي منهل ومن كبدي الحرى زناد لقادح

ولقد كان لموت زوجته فعل الصدمة عليه ، فهو يطرح تساؤلات تشف عن ارتبائه
واضطرابه الناجمين عن عمق الإصابة وقوتها ، فموتها شنت شمله ، وقتل أنسه ، وطرد النوم
عن جفونه^(٣) :

أحقا يعود الشمل بعد شتاته جميعا ويحيى الأنس بعد مماته
وينعم بالسلاوان قلب مقلب ويألف جفن العين بعض سناته
وهل فانت في الدهر يرجى معاده وهل طمع بعد الردى في ثباته

فالأمل يحدوه بداية أن يعود شملهم بعد أن تشتت ، لينعم قلبه بالسلاوى ، وليعود النوم
إلى جفونه الأرقه ، لكنه يصحو على حقيقة أن الدهر الفائت لا يعود كما أن الدهر لا يثبت على
حال .

(١) يوسف الثالث ، ديوان ملك غرناطة ص ١٦

(٢) المصدر نفسه ص ٢٠

(٣) يوسف الثالث،، ص ١٥، ص ١٦

وفي قصيدة أخرى يقول (١):

أحقا إن رحلت فلا إياب وأنا إن سألنا لا نجاب
أوحشتنا بها قضت الليالي أفرقتنا بها سبق الكتاب

وتغدو أجفان أبي حيان الأندلسي كأنها جلد قنفذ مليئة بالأشواك لطول بكائهما وبعد النوم
عنهما فيقول (٢):

فمن مقلتي تسهاد جفن كأنما يمر عليه الليل جلد قنفذ
فقلبي في حزن وعيني في بكا فيا لك شجوا بين ذا قد ثوى وذى

ثم يلقي أبو حيان الضوء على حياته المكروبة بموت زوجته ، فعقله يتخبط ولم تتفعه
الرقى و لا المعوذات وجسمه لا يعرف للراحة طعما في جلوس أو قيام أو اضطجاع ، فالألم
يحاصره من رأسه إلى أخمصه (٣) :

به لمم قد مسه وتخبط فلا بالرقى يهدى ولا بالتعود
وجسمي إذا رمت اضطجاعا لراحة يقلب على جمر الغضا ثم يحتذي *
وإن رمت نهضا للقيام فاحمصي أراه كأن شوك القتاد به حذي
وإن أنا حاولت القعود تواترت هموم متى تعلق بروحي تحبذ

ويبدو الملك الشاعر يوسف الثالث لهول المصيبة مذهولا عن أصدقائه ، أليفا مع أعدائه،
يسمع الألحان نواحا ، وغدا طعم الشراب مرا في فمه (٤) :

ذهلت له عن كل خل موافق وآلفت منه للعدو المكاشح

(١) المصدر نفسه ص ٦

(٢) أبو حيان ، ديوان أبي حيان الأندلسي ص ١٦٧ و ١٦٩

(٣) المصدر السابق نفسه ص ١٦٨ و ١٦٩

(٤) يوسف الثالث ، ديوان ملك غرناطة ص ٢٠

* البيت مكسور ، كما ورد في المصدر

وصار حميا الكأس عندي علقما
كما صارت الألحان رنة نائح

وكان من مضامين مرثياتهم لزوجاتهم تحسر بعضهم على جمال الزوجة الشابة الذي أصبح فانيا ، فهذا لسان الدين بن الخطيب يقسم بأن حزنه سيستمر على شباب زوجته الذي بلي بالموت^(١) :

والله ، حزني لا كان بعد على
ذاك الشباب الجديد بالبالى

وملك غرناطة يتأسف على ذلك الشباب قائلًا^(٢) :

فوا أسفا أن أنجم الروض يانعا
لم أجن ما قد راق من زهراته

ويقول في قصيدة أخرى^(٣) :

أسفا على الوجه الأغر تحجبت
عني بحكم الله غر خلاله

ولبيان أثر غياب الزوجة عن حياة زوجها وأولادها وربما أحفادها أحيانا ، لجأ الشاعر إلى تعداد مناقبها ، فزوجة لسان الدين كانت ماله الذي لا يذهب وقت الشدة وكانت آماله أيضا فهي حياته المادية والمعنوية ، وكأنه يريد أن يقول لنا أنه فقد حياته نفسها^(٤) :

قد كنت مالي لما اقتضى زمني
ذهاب مالي وكنت آمالي

ويكثر أبو حيان الأندلسي من ذكر مناقب زوجته زمردة فهي رزينة العقل ، دمثة الأخلاق ، عفيفة اللسان ، راوية للحديث النبوي الشريف حسنة الصورة ، ماهرة في الطهي ، عطوفة على أولادها وأحفادها^(٥) :

(١) لسان الدين بن الخطيب ، نفاضة الجراب في علالة الاغتراب ص ٢٠٥ ولسان الدين ديوان لسان الدين ص ٥٠٦

(٢) يوسف الثالث ، ديوان ملك غرناطة ص ١٦

(٣) المصدر السابق نفسه ٩٥

(٤) لسان الدين ، نفاضة الجراب ص ٢٠٥ ، ولسان الدين ، ديوان لسان الدين ص ٥٠٥

(٥) أبو حيان ، ديوان أبي حيان ص ١٦٨ ، ١٦٩ ، ١٧٠

وحازت لحسن الخلق خلقا مدمثا
وروت ببيت الله والقدس ما روت
جميلة خلق سهلة الخلق لينة
وكانت لهم أماحنونا وجدة
ولين كلام طاهر ليس بالبذي
لمصري أو شامي أو متبغذ
رقية قلب ثاقب الذهن أحوذي
شفوقا تشهيههم بكل تلذذ

ولم ينس أبو حيان تقواها وإنفاقها في سبيل الله ، وحجها للبيت الحرام وزيارتها لبيت
المقدس وهذا يدل على أنها تعلمت في غير قطرها ، وأنها أخذت عن علماء في البيت الحرام
وبيت المقدس ، فيقول^(١) :

وحجت وزارت مرتين وقدست وما يك من بر تعجل وتنفذ

ويتأسف يوسف الثالث على فقد سكنه المتصفة بصفاء السجية والإخلاص^(٢) :

فوا أسفا على سكن صفي سجيته خلوص واعتقاد

ويبدو لسان الدين أكثر تقبلا لفكرة الموت فهو يطلب من زوجته أن تمهد له مكانا قريبا
منها، فشوقه لقاء زوجته يقلقه وبه شوق للأخرة للقاء زوجته التي يحب فهو لا يطيق الحياة
بعدها^(٣) :

فانتظريني فالشوق يقلقني ويقتضي سرعتي وإعجالي
ومهدي لي لديك مضطجعا فعن قريب يكون ترحالي

ويذعن أبو حيان الأندلسي لقضاء الله النافذ في خلقه فيقول^(٤) :

قضى الله إن عاشت وماتت سعيدة وليس امرؤ مما قضاءه بمنفذ

(١) أبو حيان ، ديوان أبي حيان الأندلسي ص ١٧٠

(٢) يوسف الثالث ، ديوان ملك غرناطة ص ٥٥

(٣) ابن الخطيب ، نفاضة الجراب ص ٢٠٥ ، ولسان الدين ديوان لسان الدين ، ص ٥٠٦

(٤) أبو حيان ديوان أبي حيان ص ١٧٠

ويوسف الثالث وإن كان الصبر إحدى عاداته فإنه يضيق به ذرعا عندما تهيج ذكراها
في قلبه ، فالخطب أليم وقلبه لا يقر له قرار بعدها^(١) :

إذا جالت الذكرى بقلبي بعدها يضيق نطاق الصبر عن زفرائه
فهذا أليم الخطب والصبر عادتي إذا لم يزل الفوت بي عن صفاته

وفي قصيدة أخرى يؤكد^(٢) :

ورام الصبر عنها من شكاها بقلب لا يقر له قرار

وهو متصبر لا صابر^(٣) :

أقمت ولا مقام لمستهام تصبره اضطرار لا اختيار

وربما حملت قصائد الملك الشاعر يوسف الثالث خصوصية ، فقد رثى زوجته وابنها
الرضيع معا ، ولأن حزن الشاعر عميق الغور ، وقلبه مكلوم بجرح يصعب التئامه فلقد كانت
زوجته الأولى التي أحب ، وأم ولده البكر^(٤) وولي عهده الذي خطفه الموت بعد عقيقته فموت
طفلة ذكره بذلك المفقود من قبل فتجدد حزنه مع تجدد ذكرياته^(٥) :

وجدد لي الذكرى رضيع مكانه بإنسان عيني لا أقول فؤاديا
ويقول^(٦) :

لما استهل ولي عهدي ناجما اخفي محياكم ظهور هلاله

ويقول^(٧) :

نظرت إلى ابن من سكنت ثراها صغيرا للكبير به اعتبار

(١) يوسف الثالث ، ديوان ملك غرناطة ص ١٦

(٢) المصدر نفسه ص ٧٣

(٣) المصدر نفسه ص ٧٣

(٤) انظر : يوسف الثالث ، ديوان ملك غرناطة الصفحات ١٦٥ و ١٥ و ٧٣ و ٥٥

(٥) المصدر نفسه ص ١٦٥

(٦) المصدر نفسه ص ١٩٥

(٧) نفسه ص ٧٣

ومن الجدير ذكره لجوء الملك الشاعر إلى وصل الرثاء بالفخر ، فخر بالآباء والأجداد
وحسن الجوار ، مثل قوله^(١) :

وإني اليوسفي أبا وجدا ملوك لا يضام لهم جوار

ويراصل في قصيدة أخرى مستغربا عدم خوف الموت من سيفه وهو الشجاع الكريم
المتسامح^(٢) :

خليلي لم يخش الردى حد مرهفي فيا عجبا والموت في صفحاته
وكيف يقل الدهر للموت عثره ونحن نقيّل الدهر من عثراته
وإني من ترجو العفاة نواله وتخشى أسود الحرب حد شباته

وأحسب أن وصل الملك الشاعر للفخر مع الرثاء دليل على عمق تأثره بالحدث ، وفي
محاولة منه للتماسك أمام قوة الموت بدليل أنه ما لبث أن ختم قصيدته مقرا بسطوة الموت التي
لا تدفع ولا تمنع ولجأ إلى الله ثم إلى الصبر لينال الرضوان فهو يقول^(٣) :

ولكنني لم ألف للموت مدفعا يرد الذي قد خيف من سطواته
عسى الله بالصبر الجميل يعيننا ويمنحنا الرضوان بعض هباته

وفي موضع آخر يقول^(٤) :

ولكنها رجعى إلى الله كلما تنبه جفن الفكر من غفلاته

وأخال أن علاقة حب قد ربطت بين الملك الشاعر وزوجته قبل الزواج وبعده فلقد ذكر
اسمها في معرض النسب في ديوانه^(٥) وبدأ بعض قصائد رثائها بالغزل^(٦) وهذا ليس من عادة
الشعراء أن يقدموا قبل الرثاء نسيبا^(٧) .

(١) نفسه ٧٣

(٢) نفسه ١٦

(٣) نفسه ص ١٧

(٤) نفسه ص ١٦

(٥) انظر: يوسف الثالث ، ديوان ملك غرناطة ، ص ٣٥ وما بعدها

(٦) يوسف الثالث ، ديوان ملك غرناطة ، الصفحات ٧٣ و ٥٥ و ٩٤ و ١٦٥

(٧) ابن رشيق العمدة ، ج ٢/ ١٥١

فلقد بدأ إحدى قصائده الرثائية بقوله^(١) :

تشنأفكم نفس المشوق الواله
ما ضره إلا التشوق فيكم
لو تسعفون عميدكم بسؤاله
فسواكم ما إن يمر بباله

وفي قصيدة رثاء أخرى يبدأها ببيان سهاده وخفقان قلبه^(٢) :

أعِذ الحمى من أن يخيب راجيا
بخافق قلب منجد سبق دمه
تذكر من سلمى حبيبا مناجيا
لإبعاده في الخافقين المراميا

أما ابن الآبار^(٣) فيوجه لومه وسخطه لفقد زوجته على الليالي الغادرة التي تتلف النفيس الغالي من الناس دون أن تدري ماذا تفعل؟! فهي في سعي دائم لفجيرة الأخلاء ولتفريق شملهم سرا وعلانية فيقول^(٤) :

رويد الليالي كم قصر على الغدر
تدب بفجع الخل بالخل دائبا
أتجهل إتلاف النفائس أم تدري؟
وتسري لشت الشمل في السر والجهر

ويقسم ابن الآبار أن الموت قد نال منه أخيرا حين أودى بزوجه وأصبح صبره منهوبا مقسما ، فالموت قد قلل من ماء الحياة التي كان يشرب وضيق عليه الدنيا بما رحبت فأصبح يقول^(٥) :

لعمري لقد نال الردى مني الذي
فغيض من ماء الحياة معينه
أراد وخلي الصبر مقتسما نهبا
وضيق من ذرعي بما صنع الرحبا

(١) يوسف الثالث ، ديوان ملك غرناطة ص ٩٤

(٢) المصدر نفسه ص ١٦٥

(٣) هو أبو عبد الله محمد بن محمد ، الكاتب والفقيه والمؤرخ والشاعر هاجر بعد سقوط بلده بلنسية سنة ٦٣٦ هـ باهله إلى تونس وخدم ملوكها الحفصيين إلى أن نكبوه سنة ٦٥٨ هـ ، له مؤلفات منها الحلة السراء ، أعتاب الكتاب ، ديوان شعر ، انظر إلى ترجمته عند النصفدي الوافي بالوفيات ٣/٣٥٥ ، ابن خلدون العبر ج ٦/٦٥٣ -

٦٥٥

(٤) ابن الآبار ، ديوان ابن الآبار ، ص ٢٠٩

(٥) المصدر نفسه ص ٥٧

ويبدو أن زوجته المتدينة قد ماتت في ريعان شبابها وخلفت وراءها أطفالا صغارا لم يصلوا إلى شاطئ الأمان في الحياة بعد^(١) :

تباينت واليتامى هن في رغب كما تعودن منها وهي في رهب

ويقول في قصيدة أخرى^(٢) :

حنيني لأحداث أطافت برسمها كأصداف در لم ترم ساحل البحر

ويتعهد ابن الآبار لزوجته المتوفاة بالوفاء لها والمحافظة على عهدها إلى يوم القيامة ، وهو لم يتوان عن أداء مناسك العمرة والحج محتسبا أجرهما لها فيقول^(٣) :

وحجي إليها واعتماري جعلته وذاك لعمرى منتهى شرف العمر
وفاء بعهد لا أخل بحفظه إلى عرصة الأموات في عرصة الحشر

رثاء الأخوال :

للخال مكانة في قلوب بعض الشعراء نظرا لمكانته في حياتهم وثقافتهم ولا يمكن تجاهل ألم فقده ، ولوعة افتقاده ، فهذا ابن الحاج الغرناطي^(٤) قد نكب بخاله ابن عاصم القيسي^(٥) فالتاع لفقده وعد فقده مصيبة لا تطيقها الجبال الرواسي . لقد غيرت حياته وحركت سواكنه مثل رياح حركت رمال الكثبان فقال^(٦) :

(١) نفسه ص ٥٧

(٢) نفسه ص ٢٠٩

(٣) نفسه ص ٢٠٩ و ٢١٠

(٤) هو إبراهيم بن عبد الله بن إبراهيم النميري الغرناطي المعروف بابن الحاج (٧١٣-٧٦٨هـ) أديب كاتب شاعر أندلسي ، كتب في ديوان الإنشاء ثم رحل إلى المشرق فحج ، وخدم عند أبي عنان المريني ، ثم عاد إلى الأندلس وولي القضاء ببعض النواحي ، انظر ترجمته عند : إسماعيل بن الأحمر ، نثر فرائد الجمان ، ص ٣١٣ ولسان الدين ، الكتبية الكامنة ص ٢٦٠

(٥) هو أبو عبد الله محمد بن محمد بن عاصم القيسي ويعرف بابن عاصم ، فقيه كاتب ، ولي الحسبة ، وناب عن صاحب القلم الأعلى انظر ترجمته عند : ابن حجر ، الدرر الكامنة ج ٤ / ٢٩٨ لسان الدين ، الكتبية الكامنة ، ص ١٧٢

(٦) إسماعيل بن الأحمر ، نثر فرائد الجمان ، ص ٣١٥

عفاء ليوم جعجعت فيه بالردى قوارع لا يقوى لها جرم ثهلان^(١)
وتبا لدهياء استطار شرارها كمسا لعبت هوج الرياح بكثبان

والشاعر ينادي خاله وقد خانه الصبر ، وطار قلبه في هاوية الأسى وقد أحس بافتقار خاله فقال^(٢) :

أخالاه خان الصبر بعدك وانتحت لواعج وجد بالأسى غير حران
جعلت ألوم القلب عند نعيه وقد طار في مهوى الأسى جد ولهان^(٣)

والشاعر لا يقف وحيدا في حزنه على خاله بل يشاركه الحزن أيضا الملوك الذين عمل خاله في خدمتهم ، فقد افتقدوه وأكبادهم حرى لفقده^(٤) :

وخلف أكباد الملوك لفقده تناسخ لخفاق من البث حران

كما أن قبيلة خاله قيس الممتدة من قيس عيلان^(٥) ، وجميع القبائل العربية عدنانية وقحطانية قد حزنت لفقده،

وهذه قبيلة عاملة^(٦) مثلا ترفض السلوان وتجدد أحزانها عليه باستمرار ، فها هو يقول^(٧) :

ألا إن قيسا بعد يوم ابن عاصم لأنضاء^(٨) أحزان ، وأذواء فقدان
وعاملة لم يلف من عمل لها سوى رفض سلوان وتجديد أشجان

(١) ثهلان : جبل معروف وهو أيضا موضع بالبادية ، ابن منظور ، لسان العرب ، مادة ثهل ، وفي معجم

البلدان : جبل في بلاد نمير ، انظر ياقوت ج ٢/ ٨٨

(٢) إسماعيل بن الأحمر ، نثير فرائد الجمان ص ٣١٦

(٣) المصدر نفسه ص ٣١٧

(٤) نفسه ص ٣١٦

(٥) قيس : بطن من آل عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن بن قيس بن عيلان من العدنانية ،

انظر : ابن حزم ، جمهرة أنساب العرب ص ٢٤٣

(٦) عاملة بن الحارث ، حي من كهلان من القحطانية نسبوا إلى أمهم عاملة بنت مالك ، انظر : ابن حزم ، جمهرة

أنساب العرب ٤١٩-٤٢٠

(٧) إسماعيل بن الأحمر ، نثير فرائد الجمان ص ٣١٥

(٨) النضو : المهزول ، جمعها أنضاء ، ابن منظور ، لسان العرب ، مادة نض

ومن اللافت للنظر تركيز الشاعر على البيئة الصحراوية ومظاهرها بذكر أسماء القبائل العربية الأصيلة ، وأماكن في الجزيرة العربية مثل ثهلان وعسفان^(١) وتوظيفها في خدمة المراثية فالشاعر مثلاً يتساءل هل يطيب للابل أن ترد الماء أو ترعى النبت الحامض بعد موت ابن عاصم ؟ وهل خف لبن النوق التي ترضع حيرانها لموته^(٢) ؟

نشدتكم هل طاب للعيس وردھا وهل راقھا مرعى لحمض^(٣) وسعدان
وهل أرضعت أم الحوار حوارھا وأفھق^(٤) من رسل على الشول^(٥) فقھان

وتكتمل صورة المراثية العربية بتعدداته لمناقب خاله المتوافقة مع الخلق العربي الأصيل فهو مطعم ومطعمان، كريم السجايا ، متبحر في العلوم الخ . ويبث التأبين في ثنايا القصيدة بروح عربية وبذا يكمل نسجه لمراثيه بخيوط عربية ، فالنفس العروبي واضح وبين منذ النبض الأول للقصيدة إلى نهايتها :

ومن الرماح الخط في حومة الوغى يقسمھا ما بين مثى ووحدان^(٦)
رزنا بزاكي الخيم مبيض طرفه بأكرم مطعم وأشرف مطعمان^(٧)
مضى العالم البحر الذي خضعت له رقاب المعاني فهي والجيش سيان^(٨)
مضى رب قيس وابن رافع مجدها شمال معد حيث كان وعدنان^(٩)

ويختم قصيدته بالدعاء لقبر خاله بالسقيا بامطار كثيفة ناتجة عن بروق كالسياط ورعد يجلجل الأسماع . لتتمو البساتين والكأ في كل مكان^(١٠) :

-
- (١) عسفان : على مرحلتين من مكة على طريق المدينة ياقوت : معجم البلدان ج ٤/ ١٢١
(٢) إسماعيل بن الأحمر ، نثر فرائد الجمان ، ص ٣١٥
(٣) حمض : كل نبت مالح أو حامض يقوم على سوق ولا أصل له ، ابن منظور ، لسان العرب ، مادة حمض
(٤) أفھق : أول فقرة من العنق تلي الرأس ، ابن منظور ، لسان العرب ، مادة فھق
(٥) الشول : من النوق التي خف لبنها وارتفع ضرعها ، ابن منظور لسان العرب ، مادة شول
(٦) إسماعيل بن الأحمر ، نثر فرائد الجمان ، ص ٣١٦
(٧) المصدر السابق ، ص ٣١٧ ، الخم : الشيمة والطبيعة والخلق والسجية . ابن منظور ، لسان العرب مادة خيم
(٨) إسماعيل بن الأحمر ، نثر فرائد الجمان ص ٣١٤
(٩) المصدر السابق ص ٣١٤ . معد بن عدنان : بطن عظيم من عقب عدنان انظر : ابن حزم ، جمهرة أنساب العرب ، ص ٩-١١ شمال : أفضل العشيرة و شمال : بالكسر الملجأ والغياث والمطعم في الشدة ، ابن منظور ، لسان العرب مادة ثمل
(١٠) إسماعيل بن الأحمر ، نثر فرائد الجمان ص ٣١٧

سقاء على الأمراع^(١) كل مجلجل
إذا حركته في البروق سياطها
من الغيث هطال العشيات هتان
رمت بعشار المزن في كل بستان

ويؤكد مثل غيره من الشعراء على حتمية لحاقه به ، ويظن أملا أن مستقر خاله الجنة
فيقول^(٢) :

وإني به عما قريب للاحق
وظني أن الدار جنة رضوان

رثاء الأصدقاء

تغدو رابطة الصداقة - أحيانا - نوعا من الأخوة الصادقة ، فالصديق أخ ، فإذا اختطفه
الموت ؛ رزئ صديقه به ، يبكيه ، ويتحسر عليه ، ويتألم لفقده ، وينظم المراثي المؤثرة فيه ،
ويعدد مناقبه فيذكر ويتذكر ، ويأرق ويؤرق ، ويدعو نفسه للصبر فالموت قدر لا بد منه .

وعند بعض الشعراء رثاء الصديق صورة من صور التعبير عن الوفاء والإخلاص له
بعد موته بل هو حق من حقوقه ، ولا عذر للشاعر إن لم يرث صديقه ، هذا ما يؤكد أبو زكريا
ابن هذيل في رثائه لعبد الله بن سعيد السلماني - والد لسان الدين بن الخطيب - فيقول^(٣) :

إذا أنا لم أرث الصديق فما عذري
ولو كان شعري لم يكن غير ندبه
لما كنت أقضي حق صحبته التي
وَأَجْرِيْتُ دَمْعِي لِلْيَرَاعِ عَنِ الْحَبْرِ
إِذَا قُلْتُ أَلْبَانًا حَسَانًا مِنَ الشَّعْرِ
تَوَخَّيْتُهَا عَوْنًا عَلَى نَوْبِ الدَّهْرِ

فالصديق عون على نوائب الدهر ، ولا يعتبر الشاعر نفسه مؤديا لحق الصحبة حتى لو
أجرى الدموع بدل الحبر في قلمه .

ويرى لسان الدين بن الخطيب في رثائه لثلاثة من أصدقائه تقاربت وفياتهم أنه لم يوف
حق مودتهم في قصيدة تجاوزت السبعين بيتا بل ويقر بعجزه والبشرية أمام سلطان الموت^(٤) :

(١) الأمراع : جمع مرع وهو الكلاء ، ابن منظور ، لسان العرب ، مادة مرع

(٢) إسماعيل بن الأحمر ، نثر فرائد الجمان ، ص ٣١٨

(٣) ابن الخطيب ، الإحاطة م ٣/٣٩١ و ٣٩٢ والإحاطة نصوص جديدة لم تنشر ، تحقيق عبد السلام شقور ص

٦٩

(٤) ابن الخطيب ، الإحاطة م ٤/٤٩٤ ، ديوان لسان الدين بن الخطيب ، تحقيق محمد مفتاح ، م ٢/

٦٢٧ * وردت في ديوان لسان الدين (فائت)

ووالله ما وفيت حق مودة ولكنه وسعى ومبلغ إمكان
ولا لوم لي في العجز عن نيل فايت* فإن الذي أعيا البرية أعياني

ويبدو البكاء وذرف الدموع سبيلا معتادا لكثير من الشعراء لإظهار تحسرهم وألمهم على الفقد من ناحية ، ولاستثارة المشاعر من ناحية أخرى ، فالشاعر عبد الكريم القيسي البسطي يرثي صديقه محمد اللحياني فيبكيه دماً لا دموعاً ، ولا يجد للتجلد سبيلا فيستسلم للحزن (١) :

صبري لموت محمد اللحياني متعذر إدراكه أعياني
قد خائني جلدي وأسلمني العزا لعظيم ما ألقى من الأشجان
ما كنت أحسب قبل يوم وفاته دمعي تصوب دما من الأجفان
حتى نعي الناعي بصحة موته فجري بصفح الخد كالعقيان

إن فقد الصديق مصاب يبكي عليه الحجر الصلب ويلين له ، فالصديق قطعة من القلب ، ولا يكفي تمزيق الثياب حزنا عليه ، هذا ما شعر به الخطيب أبو الحسن علي القيجاطي (٢) عند فقد صديقه فقال (٣) :

مصاب به قدت قلوب وأنفس لدينا إذا في غيره قطعت برد
تلين له الصم الصلاب وتتهمي عيون ويبكي عنده الحجر الصلد

أما لسان الدين بن الخطيب فمصيبته في فقدان ثلاثة من أصدقائه جعلته يبكي عليهم دموعا عزيزة كأنها المطر ، ولم ينس ابن الخطيب التورية حتى في فن الرثاء (٤) :

فمن لي بدمع في المحاجر مهتد* عليك وقلب في الحناجر حيران
نسبت إلى " ماء السماء " مدامعي فأورث* لي فيها شقايق نعمان

(١) القيسي ، ديوان عبد الكريم القيسي ص ٦٤

(٢) هو أبو الحسن علي بن عمر بن حسين القيجاطي الكنائي ، خطيب وفقه ، توفي سنة ٧٣٠ هـ انظر ترجمته عند لسان الدين : الكتبية الكامنة ص ٣٧

(٣) لسان الدين ، الكتبية الكامنة ، ص ٣٨

(٤) ابن الخطيب ، الإحاطة في أخبار غرناطة ، م ٤/٩٢٢ ، وابن الخطيب ، ديوان لسان الدين بن الخطيب م ٢/٦٢٣ وردت في ديوان لسان الدين (منهم) .

ويغرق سهل بن محمد الأزدي^(١) ببحر دموعه الغزيرة ، بعد فقد صديقه ، ويشعر
بالشقاء ولا يدري من هو الأكثر شقاء بعد موت صديقه هل هم أبناؤه ؟ أم زمانه الذي خسر
فردا فذا ؟ أم هو الأزدي نفسه ؟ فيقول^(٢) :

أخلائي إني من دموعي بزاخر بعيد عن الشطين منه غريقه
وما كان ظني قبل فقد أبيكم بأن مصابيا مثل هذا اطيعه
ولم أدر من اشقى الثلاثة بعده أبناؤه أم دهره أم صديقه ؟

أما ابن الآبار فيلتاع على صديقه الذي فقد ، وقد استقبل يوم العيد بدموع غزيرة على
الغائب الحاضر ، والغائب الشاهد ، فغياب الصديق ملأ قلب الشاعر بالألم والحسرة ، لا سيما وأن
صديقه كل في واحد فيقول^(٣) :

ما العيد بعدك بالأمني عائد يا غائبا وكأنما هو شاهد
وتقطعت ما بيننا الأسباب فالأف لام خرس والرياح رواكد
جادت صبيحته عليك مدامعي وانهل دمع المزن فيه الجائد^(٤)
يا واحدا حزني جميع بعده إني على عدمي وجودك واجد

ويدعو أبو زكريا بن هذيل من معه للبكاء ، على عبد الله بن سعيد السلماني الذي استشهد
في معركة طريف عام ٧٤١ هـ ، بدموع غالية تسقي البطاح والربا^(٥) :

تعالوا بنا نسقي الأباطح والربا بقطر دموع غاليات على القطر
ألا لا تلم عيني لسكب دموعها فما سكبت إلا على الماجد الحر

إن غياب الصديق عن الحياة بالموت يترك فراغا وأسى في القلوب ، وأرقا ودموعا في
العيون ، وافتقادا للأنيس والجليس ، فموت عبد الله السلماني قد قصم ظهر أبي زكريا بن هذيل
فقال^(٦) :

(١) هو سهل بن محمد بن مالك الأزدي ، انظر ترجمته عند لسان الدين ، الإحاطة م٤/٢٧٥

(٢) لسان الدين ، الإحاطة م٤/٢٨٢

(٣) ابن الآبار ، ديوان ابن الآبار ، ص ١٣٧

(٤) جائد : المطر الغزير ، انظر ابن منظور ، لسان العرب ، مادة جود

(٥) لسان الدين ، الإحاطة في أخبار غرناطة ، نصوص جديدة لم تنشر ، عبد السلام شقور ص ٦٩

(٦) المصدر السابق ص ٦٩ ، لسان الدين والإحاطة ، م٣/٣٩٢

رمانی عبد الله يوم وداعه بداهية دهياء قاسمة الظهــــــــــــــــر
قطعت رجائي حين صبح حديثه فإن لم يوف دمعي فقد خائني صبري *

أما ابن الأبار فلم تعد جفونه تعرف النوم، بعد أن أغمض الموت عيني صديقه محمد فيقول^(١) :
وليس الكرى مما يلح بمقلتي وقد غمضوا في الترب مقلته الوسنى
وغياب أصدقاء لسان الدين الثلاثة (يعقوب، وإبراهيم، وأحمد) قد أثار لواعج الحزن
في قلبه، وأرقه ، لأنه قد ألد مسرته وأنسه وأصبح زندا دون ساعد وعينا أصيب إنسانها وقد
تتابع الأحزان عليه :

وأرق عيني الأسى يبعث الأسى مطوقة ناحت^(٢) على غصن البان^(٣)
سكنتم فحركتم جميع جوانحي وغبتم فأحضرتم لواعج أحزاني^(٤)
وما حال زند لم يؤيد بساعد وما حال طرف قد أصيب بإنسان^(٥)
كفاني أن أدرجت محض مسرتي وجملة أنسى بين لحد وأكفان^(٦)

إن سكون أصدقاء لسان الدين بالموت قد حرك جوانحه الحزينة للتعبير عن حزنها
وغيابهم أحضر ألم الفراق لقلب الشاعر .

واعتر الشعراء بمناقب أصدقائهم وأشادوا بها ، فعبد الله السلماني كان مستودع أسرار
الشاعر أبي زكريا ومؤنسه^(٧) :

وهل مؤنس كابن الخطيب لوحشتي أبث له همي وأودعه سري

ويعقوب صديق لسان الدين كان ذخرا له وناصره ومساعدته على مصاعب الحياة^(٨) :

* البيت مكسور، كما ورد في المصدر .

(١) ابن الأبار ، ديوان ابن الأبار ، ص ٣١٧

(٢) وردت فيه نامت ، ديوان لسان الدين م ٦٢٣/٢

(٣) لسان الدين ، الإحاطة م ٤٩١/٤

(٤) لسان الدين ، الإحاطة م ٤٩٣/٤ وديوان لسان الدين م ٦٢٦/٢ وردت (جسيم) مكان (جميع)

(٥) لسان الدين ، الإحاطة م ٤٩٢/٤ وديوان لسان الدين م ٦٢٤/٢

(٦) المصدران السابقان ، المجلد نفسه الصفحات نفسها وردت (فاني) في الديوان بدل (كفاني)

(٧) لسان الدين ، الإحاطة في أخبار غرناطة ، م ٣٩٢/٣ ، لسان الدين ، الإحاطة نصوص جديدة لم تنشر ص

(٨) لسان الدين ، الإحاطة م ٤٩٣/٤ ، ولسان الدين ، ديوان لسان الدين الخطيب م ٦٢٥/٢

لقد كنت لي ركناً شديداً وساعداً مديداً ومذخوراً لسري وإعلاني
أما إبراهيم فقد كان من ذوي الفضل ، وكتوماً ، صائناً لسر ابن الخطيب^(١) :
وما كان إبراهيم إلا حديقة من الفضل تؤتي أكلها كل إنسان
أمين على السر المصون محافظ على كتمه إن ضاق صدر بكتمان

ولا يقل أحمد بن سليمان عن يعقوب وإبراهيم عند لسان الدين بن الخطيب منزلة فهو
حكيم ومخلص^(٢) :

وإن ذكر الإخوان من مثل (أحمد) ألا كل مرعى بعده غير سعدان
ذخيرة أيامي ووسطى قلادتي ونكتة إخلاصي وحكمة ديواني

كانوا لابن الخطيب أصدقاء صدوقين وقت الضيق والشدائد ويزينون حياته ويفقدونهم فقد
البهجة والسرور :

أخلاء كانوا في الشدائد عدة إذا أثمرت هوج الخطوب بخطبان^(٣)
هوت من سماء بعدما كن زينة فلهفي عليها من ثلاثة شهبان^(٤)

ولم يبق للسان الدين بعد أصدقائه إلا الذكريات التي لا تطفئ عطشه لرؤيتهم فيقول^(٥) :

بساط طواه الدهر إلا تذكرنا فما تتقع الرمضاء غلة ظمان

إن موت محمد صديق ابن الآبار جعل العلى لفظاً دون معنى^(٦) :

أمعنى العلى خلفت من بعدك العلى على الرغم منا وهي لفظ بلا معنى

(١) لسان الدين ، الإحاطة ، م ٤٩٣/٤ ، لسان الدين ، ديوان لسان الدين ، م ٦٢٥/٢ . وردت فيه كلمة (إيان)
مكان كلمة (إنسان)

(٢) لسان الدين ، الإحاطة ، م ٤٩٣/٤ ، ولسان الدين ، ديوان لسان الدين م ٦٢٦/٢ وردت (تعدة) في الإحاطة
مكان (بعده)

(٣) لسان الدين ، الإحاطة ، م ٤٩٣/٤ ، ديوان لسان الدين م ٦٢٦/٢

(٤) لسان الدين ، الإحاطة ، م ٤٩١/٤ وردت فيه (ولهفي) (سمائي) ، ديوان لسان الدين م ٦٢٣/٢

(٥) لسان الدين ، ديوان لسان الدين م ٦٢٥/٢

(٦) ابن الآبار ، ديوان ابن الآبار ، ص ٣١٨

ولم ينس أبو زكريا بن هذيل في مرثيته أن يعظ الناس ويدعوهم للجهاد - وهو يرثي شهيدا - وحثهم على تطهير النفس من أوزارها فالعمر ماض وقصير ، ولا عذر أمام الله لمتخاذل عن الجهاد والعمل الصالح فقال^(١) :

أخواننا جدوا كما جد غيركم وسيروا على خف من الحوب والوزر
على سفر أنتم لدار تأخرت وما الفوز في الأخرى سوى خفة الظهر
وما العيش إلا يقظة مثل نومة وما العمر إلا كالخيال الذي يسري
على الحق أنتم قادمون فشمروا وليس لمخـذول هنالك من عذر

وفي ضوء ثقافته الإسلامية المحضة يقرر لسان الدين هذه الحكمة^(٢) :

ومن باع ما يبقى بفان فإنما تعجل في دنياه صفقة خسران

ولجأ لسان الدين إلى ضرب الأمثال بالملوك السابقين من فرس وروم وعرب ، وصور ما فعله الموت بهم ، وهم من هم قوة وبأسا ولم تشفع لهم عظمتهم ولا قوتهم ، فكلهم قد خضع للموت كما خضع له غيرهم من الناس ، وربما هدف لسان الدين من ذلك بيان قوة الموت وعدله من خلال ربطه بين الماضي والحاضر ، في محاولة منه للتأسي وتقبل موت أصدقائه فيقول^(٣) :

ولا عار في ورد الحمام فإنه سبيل الورى ما بين شيب وشبان
وقس آتيا من أمره بالذي مضى فـرب قياس كان أصلا لبرهان
أما تركت كسرى كسيرا صروفه ولان على صولاته ملك >>اللان<<
وهل دافعت خطبا نوابع تبع وهل درأت كربا سياسة >>ساسان<<

هذا ما خطه شعراء هذه الحقبة فيما يسمى بالرتاء الخاص، وسنحاول أن نتعرف في الفصل القادم على مساهمتهم في شعر الرتاء الرسمي.

(١) لسان الدين ، الإحاطة نصوص جديدة لم تنشر ص ٧٠ ، ٦٩

(٢) لسان الدين ، الإحاطة م ٤٩٤/٤ ديوان لسان الدين ، م ٦٢٧/٢

(٣) لسان الدين ، ديوان لسان الدين ، م ٦٢٦/٢ ، الإحاطة م ٤٩٤/٤

الفصل الثاني

الرثاء الرسمي

رثاء الملوك والأمراء:

كان طبيعياً - مثل كل الشعراء العرب - أن يواكب شعراء عصر بني الأحمر مجتمعهم في كل أحواله، فرحاً أو ترحاً، ولم يغفل ملوك بني الأحمر عن أهمية الشعر ودوره في المجتمع، لذا حرصوا على استمالة الشعراء ورعايتهم فشدا الشعراء بكل ألوان الحياة التي هي ألوان الشعر وأغراضه ومن تلك الألوان الرثاء، فقد قا الشعراء في رثاء الملوك أو من يمت لهم بصلة قرابة بواجب الوفاء حيناً والمجاملة حيناً أخرى، إضافة إلى نيل رضى ذوي المتوفى للحصول على الجاه والمال.

وتنوعت صور تعبير الشعراء عن حزنهم ولوعتهم لموت الملوك والأمراء من بني الأحمر بما يمثلونه من سلطة دينية ودنيوية، فلقد حاول الشعراء إدخالنا دوائر حزن تضيق معها صدور الناس لفداحة الخبر وشدة وقعه عليهم ويتجلى ذلك في قول محمد اللوشي اليحصبي في رثاء إسماعيل بن فرج^(١) إذ قال^(٢):

لا صمّت إلا وهو نارٌ في الحشا لا نطق إلا ما يعود عويلاً

ضاقت صدورُ الخلق عن أنفاسهم إذ ضمّ بطنُ الأرضِ إسماعيلاً

فلأخلعن ثوبَ الرقادِ على البكا ولألبسن ثوبَ السهادِ طويلاً

وامتد أفق ألم الفقد والحسرة عند لسان الدين بموت الملك أبي الحجاج يوسف الأول^(٣) ليتجاوز مملكة غرناطة الحزينة لموت خليفتها وليعم الشام ومصر والدنيا بأسرها إذ يقول^(٤):

(١) هو الملك أبو الوليد إسماعيل بن فرج، انظر ترجمته عند: لسان الدين، اللوحة البدرية، ص ٧٨-٩٠.

(٢) لسان الدين، الكتيبة الكامنة، ص ١٧٦ و ١٧٧.

(٣) هو يوسف بن إسماعيل بن فرج بن إسماعيل بن يوسف بن نصر، أبو الحجاج، انظر ترجمته عند: لسان الدين، اللوحة البدرية، ص ١٠٢-١١٢.

(٤) لسان الدين، ديوان لسان الدين، م ٥٥٦/٢.

فُجِعَتْ بِهِ الدُّنْيَا وَكُدِّرَ شَرُّهَا وَشَكَا "العِرَاقَ" مُصَابَهُ وَ " الشَّامَ "

أما ابن زمرك فينعي الملك الغني بالله للدنيا ومن فيها، فبالخسارة بموته عظمة
والحدث الجلل سيؤثر في البلاد وعلى العباد يقول معبراً عن ذلك^(١):

سَلامٌ عَلَى الدُّنْيَا جَمِيعاً وَمَا فِيهَا غَدَاةٌ نَعَتْ شَمْسُ الْخُلَافَةِ مَنْ فِيهَا

نَعَتْ مَلِكَ الْأَمْلاكِ وَالْكَافِلَ الَّذِي يَكْفُ عَوَادِي الْحَادِثَاتِ وَيَنْفِيهَا

ولما كان الحكم وراثياً اتجهت بعض قصائد هذا اللون من الرثاء إلى الجمع بين
العزاء والتهنئة، وتخلصت من العزاء إلى الإشادة بالملك القادم حتى أن بعضهم قد قسم
مقدمة قصيدته شطراً للتعزية وآخر للتهنئة في طريقة لطيفة للإمساك بالغرضين معاً،
فابن الجياب - مثلاً - استطاع ذلك في رثائه للملك محمد بن محمد بن يوسف الملقب
بالفقيه^(٢) وتهنئة ولده ولي عهده أبي عبد الله محمد بالملك فقد قال^(٣):

مَصَابٌ جَلِيلٌ وَصَنَعَ جَمِيلٌ وَمَلِكٌ سَعِيدٌ وَأَجَرَ جَزِيلٌ

فذاك يهيجُ برحِ الأسي وهذا يسكنُ فرطَ الغليلِ
فموت الملك السابق حدث جلل يبعث الأسي من ناحية، وتولي الملك اللاحق أمر
سعيد، يسكن القلوب الحزينة من ناحية أخرى .

وفي موقع آخر من القصيدة ذاتها يقول ابن الجياب^(٤):

فصبراً لخطب يهد القوى وبشرى بهذا الفعال الجميل
فلولاك يا محيي المكرما ت لما غادر الحزن منا العقول

(١) ابن زمرك ، ديوان ابن زمرك ، ص ٥٠٩ و ٥١٠ .

(٢) انظر ترجمته عند : لسان الدين، اللحة البدرية، ص ٥٠-٦٠ .

(٣) ابن الجياب، ديوان ابن الجياب، ص ٥٨٣، ولسان الدين، اللحة البدرية ، ص ٥٨ و ٥٩ .

(٤) ابن الجياب، ديوان ابن الجياب ، ص ٥٨٤ .

فموت (الملك الفقيه) مصيبة تهدم القوة ، ولكن الصبر وتولي محيي المكارم الحكم جعل الحزن يغادر عقولهم المتفهمة لاستمرارية الحياة.

وتبع ابن زمرك ابن الجياب في مزج العزاء بالتهنئة في البيت الواحد في قصيدة نظمها عند موت الملك الغني بالله محمد وتسلم ولده يوسف الثاني مقاليد الحكم، منها قوله^(١):

عِزَاءٌ فَإِنَّ الشَّجْوَ قَدْ كَادَ يُسْرِفُ	وَبُشْرَى بِهَا الدَّاعِي عَلَى الْفَوْزِ يُشْرِفُ
لَئِنْ غَرِبَ الْبَدْرُ الْمَنِيرُ مُحَمَّدٌ	لَقَدْ طَلَعَ الْبَدْرُ الْمَكْمَلُ يُوسُفُ
وَإِنْ رُدَّ سَيْفُ الْمَلِكِ صَوْنًا لِعَمْدِهِ	فَقَدْ سُلَّ مِنْ غَمْدِ الْخَلِيفَةِ مُرْهَفُ
وَإِنْ طَوَتْ الْبُرْدُ الْيَمَانِي يَدُ الْبَلَى	فَقَدْ نُشِرَ الْبُرْدُ الْجَدِيدُ الْمُقَوَّفُ ^(٢)
وَإِنْ صَدَعَ الشَّمْلُ الْجَمِيعَ يَدُ النَّوَى	بِیُوسُفَ فَخَرِ الْمُنْتَدَى يَتَأَلَّفُ

ويقفو ابن فركون خطو ابن الجياب وابن زمرك في قصيدة عزى فيها الملك أبا عبد الله محمد بوفاة والده الملك يوسف الثالث وهنأه بتولي الملك فقال^(٣):

أَخْطَبُ هَوَى بِالنَّيِّرَاتِ مِنَ الْعَلَا	وَبُشْرَى بِهَا وَجْهُ الزَّمَانِ تَهْلَلَا
وَإِنْ غَرِبَ النُّجْمُ الَّذِي كَانَ يُهْتَدَى	بِهِ فَمُحِيَا الصُّبْحُ قَدْ لَاحَ مُقْبَلَا
وَإِنْ كَانَ لَيْلُ الْخَطْبِ مِنْ بَعْدِهِ دَجَا	فَقَدْ طَلَعَتْ شَمْسُ الْهَدَايَةِ وَانْجَلَى

(١) ابن زمرك، ديوان ابن زمرك، ص ٤٤٠ والمقري، ازهار الرياض ، ج ٢/ ١٤٩.

(٢) المفوف البياض ، انظر ، ابن منظور، لسان العرب، مادة فوف .

(٣) ابن فركون، ديوان ابن فركون، ص ٣٨٢.

ومن الجدير ذكره، أن أسلوب الجمع بين التهنئة، والعزاء ليس جديداً في الرثاء العربي الذي كان "بسبب تحول الخلافة إلى حق وراثي يتناوبه الأبناء بعد آبائهم"^(١)، وقد دعا الشعراء إلى ذلك الأسلوب أسباب عديدة منها:

- ١ - طبيعة الموقف الذي يحمل معنيين متضادين هما الحزن والسرور.
- ٢ - لجوؤهم لتعزية أنفسهم، ومجتمعهم في ملوكهم مع أملهم بأن يكون الخلف امتداداً لسلفه، في الكرم، والشجاعة، وغيرها من الخصال الحميدة.
- ٣ - محاولة بعض الشعراء بهذا الأسلوب، الحفاظ على ثبات مكتسباتهم المادية بعد تغيير الحاكم.
- ٤ - مقاومة فكرة الفناء، وتأكيد فكرة الملك الحي، فالحاكم الجديد تتمثل فيه -حسب رأي الشعراء- مظاهر شخصية أبيه.

ولكن بمَ أبّن شعراء عصر بني الأحمر موتاهم من الملوك؟ وماذا بكوا فيهم؟ وهل هناك فصل بين المدح، والتأبين؟ يرى قدامة بن جعفر في كتابه [نقد الشعر] أن "لا فصل بين المدح والتأبين إلا في اللفظ دون المعنى"^(٢)، "فتأبين الميت إنما هو بمثل ما كان يمدح به في حياته"^(٣)، وإخال أن قدامه قد نظر إلى التأبين كأحد مجالات قصيدة الرثاء، ولم يتجاوزَه إلى العزاء، أو النذب، أو الحكمة، أو وصف القبر، وما إليه. فمضامين قصيدة الرثاء متنوعة وعديدة ولا تقتصر على التأبين فقط.

فانظر إلى تأبين الرئيس فرج بن اسماعيل^(٤) فلقد كان مثوى المكارم والمجد والرضى، والفوز، والبشر، والإحسان، والعلواء، كلها مناقب تصلح لمدح حي. وكلمة قبرهي التي دلت على التأبين^(٥):

سلام على قبر المكارم والمجد	مقام الرضى والفوز والبشر والسعد
مناسبة إحسان ومعهد رحمة	ومستودع العلىا والسّر والعد

(١) روضة الحمد، اتجاهات الرثاء في القرن الثالث الهجري. ص ٨٢.

(٢) قدامة بن جعفر، نقد الشعر، ص ٥٠.

(٣) المصدر نفسه، ص ٤٩.

(٤) هو الرئيس أبو سعيد فرج بن اسماعيل بن يوسف بن نصر، ولي مالقة (٦٧٧هـ) ثم فتح سبتة

عام (٧٠٥هـ)، دعا لنفسه عام (٧١١هـ)، وقدم لذلك ولده اسماعيل وسماه السلطان. توفي عام (

٧٢٠هـ)، أنظر ترجمته عند: لسان الدين، الإحاطة م ٢٤١/٢ واللمحة ص ٣٥ و ٧٥.

(٥) لسان الدين، الإحاطة، م ٢٤٥/٤.

أما الإشادة بفضائل الميت تفجعاً، وتوجعاً، وألماً وحسرة، فأمر قد دأب عليه الشعراء في عصور الشعر العربي المختلفة، وذلك لاستثارة احزان المتلقي، ويشعر بعظم الفقد لشخصية قد حوت أخلاقاً عالية ونفساً رفيعة، لذا عمد شعراء هذا العصر إلى الإشادة بمناقب الميتين من الملوك، وبالغوا في عرضها، وتصويرها، فأبنوهم بالكرم والشجاعة، والحنكة في الرأي، والتسامح، والتواضع، والحلم وغير ذلك من الصفات.

وألح شعراء عصر بني الأحمر على صفتي الكرم والشجاعة، لما كان لهما من قيمة في بيئة العربي المسلم، واثنوا على صفة تقوى الميت، واستقامته في الدين، وجهاده في سبيل الله.

ولا شك أن هذه الفضائل النفسية التقليدية كانت تمثل مظاهر السيادة والقوة في المجتمعات العربية الإسلامية آنذاك، عدا عن حاجة تلك المجتمعات أصلاً لتلك الصفات لذا تعلق الناس بمتصفيتها.

فمملكة غرناطة كانت تعيش حالة حرب مع اعدائها، وكانت الحرب سجالات بينهما، فمن الطبيعي إذن اعتبار الشجاعة فضيلة بل فضيلة الفضائل في ذلك المجتمع لذا تطرق الشعراء في تأبينهم لملوك بني الأحمر وامرائهم لشجاعتهم وجهادهم، وقس على ذلك صفة الكرم التي احتاجها مجتمع مملكة غرناطة وهو يعيش حالة عدم استقرار اقتصادي في ضوء الحروب والفتن الداخلية أو الجفاف أو الحصار أو غيرها، عدا عن تمسك مجتمع المملكة بعبادات العرب الأصلية ومنها الكرم، ولا ننسى دور الإسلام في الحث على مكارم الأخلاق ولما كان الشعراء جزءاً من الشعب رثوا تلك الصفات في ملوكهم وتحسروا على فقدانها.

ولقد تنوعت طرق التعبير عن صفة الكرم وكثيراً ما ربطها الشعراء بغيرها من الصفات والفضائل فالشاعر ابن الجياب ربط بين السماحة والكرم والفروسية في تأبينه للملك محمد بن محمد الملقب بالفقيه إذ قال:-(^١)

ومن للعباد ومن للبلاد ومن للسماح وبذل الجزيل

(^١) ابن الجياب، ديوان ابن الجياب، ص ٥٨٤.

وصور الشعراء مرثيهم مطراً يعم بخيره الناس ويتجلى ذلك في الصورة التي قدمها ابن الجياب في تأبينه للرئيس أبي سعيد فرج بن إسماعيل إذ يقول^(١):

لله ما إذا قبض الموت من بسطة كف تهمني* بالنوال

أما الشجاعة فهي من مظاهر القوة والسيادة، ولقد أكثر الشعراء من الإشادة بها ومن ذلك قول ابن الجياب في شجاعة الملك محمد بن محمد الملقب بالفقيه فأبنه قائلاً^(٢):

ومن للكفاح وسمر الرماح ومن للحسام الإيمان الصقيل

وصور الشاعر ابن الجياب مرثية الرئيس أبا سعيد جريئاً كالأسد في قوله^(٣):

إن تلقه في يوم حرب العدا فالأسد الورد على السرب صال

وكثيراً ما ربط الشعراء صفة الشجاعة بغيرها من الصفات مثل الجود والحلم ومن ذلك قول ابن زمرك حين رثى الملك الغني بالله فقال^(٤):

ألم تر أن الحلم والبأس والندى وعر المساعي قد تضمنها القبر

ومن ذلك قول لسان الدين بن الخطيب في مرثية يوسف الأول (أبي الحجاج) حيث قال^(٥):

وفاك أمر الله حين تكاملت فيك النهى والجود والإقدام

(١) ابن الجياب، ديوان ابن الجياب، ص ٤١٣.

(٢) المصدر نفسه ص ٥٨٤.

(٣) نفسه ص ٤١٣.

(٤) ابن زمرك، ديوان ابن زمرك، ص ٢٨٤.

(٥) لسان الدين، ديوان لسان الدين، ٥٥٧/٢ والإحاطة ٣٣٧/٤، المقرئ، نفح الطيب ٨٢/٥.

* تهمني: كل سائل من مطر وغيره، انظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة همي.

ويطول المقام لو استقصيت كل الشواهد الدالة على سخاء أولئك المرثيين فهي كثيرة ومتشابهة في معانيها وتكاد لا تخرج عما قدمته الشواهد السابقة^(١).

وأضفى الشعراء على مرثيهم سمة العدل وهي من مظاهر السلطة والسيادة، وديمومة الحكم وقد عبر عنها ابن الجياب حين رثى الرئيس أبا سعيد فرج بن إسماعيل حيث قال^(٢):

فلتـ _____ بكـه أندلسـ أنـه أوسعها العدل المديد الظلال

وسجل الشعراء جوانب أخرى من شخصية الملوك، فوصفوه بصفات الحلم والعلم والتقوى، فاكتملت لديهم صفات الملك الأمثل ويتجلى ذلك في قول ابن فركون في مرثية الملك يوسف الثالث حيث قال^(٣):

أحقاً ثوى تحت الثرى ملك الورى وأورده المقـدار للحـتف مـنـهـلا
ومن راق منه العلم والحلم والتقوى ومن أسبغ النعمى علينا وأجزلا

أما صفة السماحة فقد جعلها الشاعر ابن زمرك من فضائل مرثيه الملك الغني بالله فقال^(٤):

ويا عجباً من ذلك الثرب كيف لا يفيض ببحر للسماحة مزبـ

وأشاد الشعراء بتقوى الملوك واستقامتهم واتباعهم لأوامر الله وتحدثوا عن مظاهر تقواهم ومنهم الشاعر لسان الدين بن الخطيب في مرثيه الملك أبي الحجاج يوسف الأول إذ قال^(٥):

يا صاحب الصدقات في جنح الدجى والناس في فرش النعيم نيام
يا حافظ الحرم الذي بظلاله ستر الأرامـل واكتسى الأيتام

(١) لمزيد من الأمثلة أنظر: لسان الدين، ديوان لسان الدين ٥٥٧/٢، الإحاطة ٣٣٧/٤ وابن الجياب.

ديوان ابن الجياب، ص ٥٨٤ و ٤١٥

(٢) ابن الجياب، ديوان ابن الجياب، ص ٤١٥

(٣) ابن فركون، ديوان ابن فركون، ص ٣٨٢ و ٣٨٣

(٤) ابن زمرك، ديوان ابن زمرك، ص ٣٨٨ والمقري، ازهار الرياض، ١٥٣/٢

(٥) لسان الدين، ديوان لسان الدين، ٥٥٧/٢، والإحاطة، ٣٣٧/٤.

ومن مظاهر تقوى جدة أبي الحجاج يوسف الأول التي صور لسان الدين بن الخطيب سعيها لعمل المعروف بكل وسيلة، من إغاثة الملهوف ونصرة مضطر حيث قال^(١):

بإبقاء معروف ورعي وسيلة بإيواء ملهوف بنصرة مضطر

لقد كان الجهاد ضرورة ملحة في مملكة تتسع حدودها وتضيق مداً وجزراً بحسب قوة حكامها أو ضعفهم واتحاد أعدائهم أو تفرقهم^(٢)، لذا ألقى الشعراء الضوء على أثر موت الملوك والأمراء على الأشياء التي كانوا يزاولونها وعلى أدوات حربهم من سيوف ورماح وخيول لإبراز دورهم في الجهاد ومقارعة الأعداء ولبيان تفردهم بكل الصفات والمآثر ويتجلى ذلك في قول ابن زمرك في مرثية الغني بالله إذ يقول^(٣):

فكم من جهاد قد رفعت بنوده وقد أثمرت فيها المعالي عواليها
وكم من منار قد أعدت أذانه وأعلن فيه دعوة الحق داعيها
وكم من رياض للكتائب قد غدت تضيق بمسكن الجياد نواحيها
غراس زكي للجهاد غرسه فصرت إلى دار السعادة تجنيها

فالجهد غرس زكي النبت ثمرته الجنة قال تعالى: "إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون"^(٤). ومثله قول ابن فركون مبيناً فضل الجهاد في نيل شفاعة الرسول عليه الصلاة والسلام - وذلك في رثائه للأمير علي معز الدولة (شقيق الملك يوسف الثالث) حيث قال^(٥):

(١) لسان الدين، الصيب والجهام، ص ٥٢٩، وديوان لسان الدين ٣٩٧/١.

(٢) وليد سرميني، خصائص الشعر الأندلسي في عصر غرناطة، ص ٩.

(٣) المقرئ، أزهار الرياض، ١٥٧/٢.

(٤) التوبة: ١١١.

(٥) ابن فركون، ديوان ابن فركون، ص ٣٦٠.

سلوا عنه في الهيجاء أرض شقوره وقد أصبحت منها المعاهد بلقعا
سيلقى لدى الرحمن فضل جهاده شفيحاً كما يُرضي النبي مشفعاً

ويرثي الشاعر ابن الجياب الرئيس أبا سعيد فرج بن إسماعيل فيصور الخيول الأصيلة
التي أعدها للقتال تبكيه وكذلك السيوف والرماح فيقول^(١):

وليبكه الوفد يـرجونه ولتـبكه البـيـض وسـمر العـوالي
ولتـبكه الخـيل العـتـاق التـي أعدـها ذـخـراً لـيـوم النـزال

وصور الشعراء الآثار العمرانية التي أمر بإنشائها الملوك تبكيهم لبيان أثرهم في
الحرب والسلام ويتجلى ذلك في قول لسان الدين بن الخطيب في تأبين أبي الحجاج
يوسف الأول في قوله^(٢):

تبكي عليك مساجد عمرتها فالناس فيها سجد وقـيام
تبكي عليك خلائق أمنتها بالسلام وهي كأنها أنعام

أما الفضائل والصفات الجسمية فقد عز وجودها في مراثي الملوك في هذا
العصر، واقتصر الشعراء على وصف نضارة مرثيهم وجمال وجوههم التي ضاهت
البدر وهذا ما عبر عنه ابن زمرك إذ رثى الملك الغني بالله فقال^(٣):

هوى القمر الوضاح من أفق العلا فأظلم جو النـيرات لسـاريها
وقد كسفت شمس الهداية بعدما أبان سبيل الحق للخلق هاديها

وصور بعض الشعراء موت الملوك مصيبة كبرى وحادثاً جلاً اضطربت لها
مظاهر الكون وذلك لجعل المتلقي يعيش الحدث ويتمثله ويدرك شدته فقد جعلوا مظاهر

(١) ابن الجياب، ديوان ابن الجياب، ص ٤١٥.

(٢) لسان الدين، ديوان لسان الدين م ٥٥٧/٢، الإحاطة ٣٣٧/٤ و ٣٣٨ والمقري، نفح الطيب، ٨٢/٥.

(٣) ابن زمرك، ديوان ابن زمرك، ص ٥١٠، المقري، أزهار الرياض ١٥٤/٢ و ١٥٥.

الطبيعة تشاركهم حزنهم وبكاءهم فشخصوها وأعطوها ما يلائمها من صفات كالرفعة والريادة ومن ذلك قول الشاعر ابن زمرك في رثاء الملك الغني بالله^(١):

مناقبه زهر النجوم لمهتد فيا من رأى لحداً يغيب به الزهر؟

أما الشاعر ابن فركون فقد استخدم الطبيعة للتعبير عن خلق اجتماعي ذميم هو الحسد، يرجحه الشاعر سبباً لموت الأمير معز الدولة علي شقيق الملك يوسف الثالث وهو في ريعان شبابه فعزا ابن فركون موت الأمير علي إلى حسد النجوم له لعلو أخلاقه^(٢):

لقد حسدت زهر النجوم خلاله فأبدت إلى عليائهن تطلعا
رمنته على عمد سهام عيونها فما أخطأته حيث لم تلف مدفعاً

ولجأ ابن زمرك إلى توظيف الطبيعة في قصائده التي رثى فيها الملك الغني بالله، حيث صور الأرض والشهب والسحب تبكيه ملء جفونها، كما صور النجوم المنيرة قد لبست الظلام حدادا عليه^(٣):

ستبكيك أرض كنت غيث بلادها وتبكيك حتى الشهب في كل مشهد
وتبكي عليك السحب ملء جفونها بدمع يروى غله المجذب الصدى
وتلبس فيك النيرات ظلامها حدادا ويذكى النجم جفن مسهد

ومن مضامين رثاء الملوك والأمراء أيضاً بيان سبب وفاتهم لاسيما إن كان غير طبيعي مثل الغدر بالملك أبي عبد الله محمد بن إسماعيل بن فرج أثناء عودته من إحدى المعارك وتركه في العراء دون صلاة عليه ودون دفنه مما أثار حفيظة الكثيرين ومنهم الشاعر ابن شبرين^(٤)، لا سيما وقد كان الملك بطلاً شجاعاً محباً لمعالي الأمور^(٥).

(١) ابن زمرك، ديوان ابن زمرك، ص ٢٨٣ و ٢٨٤.

(٢) ابن فركون، ديوان ابن فركون، ص ٣٦٠.

(٣) ابن زمرك، ديوان ابن زمرك ص ٣٩٠، المقرئ: أزهار الرياض ١٥٤/٢ نفح الطيب ٢٣٦/٧.

(٤) سترد ترجمته في ص ٩٨، من هذه الدراسة.

(٥) أنظر: لسان الدين، اللوحة البدرية ص ٩٨-١٠١. والإحاطة ٥٣١/١.

ويكتب الشاعر بأخذ الثأر للملك القليل، وهذا ما فعله أخوه الملك أبو الحجاج يوسف الأول بعد حين^(١):

ومضى حـكم إلـه ماله في الملك ثان
بأبـي والـه أشـلا ء على الرمل حـوان
والمعالـي تطلب الـثأ ر وثأتي بالأمانـي
وهـي الأرحـام لا تـنـسـى ولو بعد زمان

ويأتي عام (٧٥٥هـ) ليسجل الشعراء طريقة موت أبي الحجاج يوسف الأول حيث طعن أثناء صلاة عيد الفطر فقد قال لسان الدين في ذلك^(٢):

وسقاك عيد الفطر كأس شهادة فيها من الأجل الوحي مدام
وختمت عمرك بالصلاة فحبذا عمل كريم سعيه وختام

وقد عمد الشعراء في مراثيهم وفي كل عصور الأدب العربي إلى الحكمة والفلسفة، خاصة وأن موضوع الرثاء يستدعي التفكير في حقيقة الحياة والموت ومصير الإنسان، والحكمة في قصائد الرثاء تتلاءم مع المعاني التي يعرضها الشاعر، كما أنها تعتمد على ثقافة الشاعر وعمق تفكيره.

أما طرق تعبير الشعراء عن حكمتهم في قصائد رثاء الملوك فقد تنوعت في عصر بني الأحمر ويمكن حصرها في اتجاهين هما:

الاتجاه الأول المستمد من الدين الإسلامي ومن الثقافة الأدبية العربية التراثية، وقد ظهر في هذا الاتجاه الإيمان بحتمية الموت والتعبير عن روح الاستسلام للقضاء والقدر، وبينوا وضعف البشر حيال الموت ويتجلى ذلك في قول لسان الدين في رثاء الملك أبي الحجاج يوسف الأول حيث يقول^(٣):

العمـر نـوم والمـنى أحـلام ما ذا عـسى ان يـستـمر مـقام
من لم يـصب في نـفسه فـمصـابه بحـبيبـه نـفـذت بـذا الأحـكام
دنـياك يا هـذا مـحـلة نـقلـه ومـناخ رـكب ما لـديه مـقام

(١) لسان الدين، اللحة البدرية ص ٩٨-١٠١.

(٢) لسان الدين، ديوان لسان الدين ٥٥٧/٢، الإحاطة ٣٣٧/٤، المقرئ، نفح الطيب ٨٢/٥.

(٣) لسان الدين، ديوان لسان الدين، ٥٥٦/٢، الإحاطة ٣٣٦/٤.

والله قد كتب الفناء على الورى وقضاؤه جفت به الأقسام

وقول ابن زمرك في رثاء الملك الغني بالله معزياً ولده الملك يوسف الثاني إذ يقول^(١):

عزاء أمير المسلمين فإنها مقادير رب الخلق في الخلق يجريها

ومنها قوله في قصيدة أخرى في رثاء الملك الغني بالله^(٢):

فكل ابتداء صائر لنهاية وإن طال الأعوام واتصل الشهر

وصور الشعراء الموت منهلاً لا بد أن يشرب منه جميع البشر حتى الأنبياء فهو من سنن الحياة منذ آدم - عليه السلام - هذا ما قاله الشاعر ابن زمرك حين رثى الملك الغني بالله^(٣):

هو الموت ورد للخلقة كلها أواخرها تقفو سبيل أواليها
وما بيننا حي وما بين آدم ألا هكذا سوى البرية باريها
وفي موت خير الخلق أكبر أسوة تصبر أحرار النفوس وتساليها

ولقد نبعت الأفكار التي عبر عنها الشعراء من تعاليم الإسلام في الحياة والموت ومن تلك المعاني ما قاله لسان الدين من قصيدة له في رثاء عبد العزيز شقيق أبي ثابت عامر بن محمد^(٤) إذ قال^(٥):

وللصبر أولى أن يكون رجوعنا إذا لم نكن بالحزن نرجع فائتاً

(١) ابن زمرك، ديوان ابن زمرك، ص ٥١١.

(٢) المصدر نفسه، ص ٢٨٤.

(٣) نفسه، ص ٥١١، المقرئ أزهار الرياض ١٥٥/٢.

(٤) هو عامر بن محمد بن علي، المكنى بأبي ثابت، شيخ قبيلة هنتاة. من قبائل المصامدة تولى رئاسة الشرطة لأبي الحسن المريني ثم تولى الجباية لأبي عنان فارس قتل عامر بن محمد سنة (٧٧١هـ)، أنظر: الناصري، الاستقصا ١٧/٤-٥٦.

(٥) لسان الدين، ديوان لسان الدين ص ٣٣٢، المقرئ نفح الطيب ٤١٤/٦.

وقوله حين رثى السلطان أبا الحسن المريني^(١) إذ وقف لسان الدين على قبره
وأشدد قصيدة طويلة^(٢) منها هذا البيت^(٣):

ووراء غفلتنا معاد جامع هاتيك جناته وهذي ناره

وهاجم الشعراء الدنيا، ووصفوها بالغدر، وقله الوفاء، وعدوها دار زوال لا
أمان لها، ويتجلى ذلك في قول ابن الجياب في رثاء الرئيس أبي سعيد فرج بن
إسماعيل^(٤):

تبا لدنيا التي لم تزل خداعة أبنائها بالمحال
نعناها دار مقام لنا وهي لدى التحقيق طيف خيال

ويقول ابن الجياب في قصيدة له يرثي فيها الملك أبا الوليد إسماعيل بن فرج^(٥):
فتبا لدار لا يدوم نعيمها فما عرسها إلا طليعة مآثم
ولا أنسها إلا رهين بوحشة ولا شهداها إلا مشوب بعلقم

ولقد سار لسان الدين، على خطى أستاذه ابن الجياب في ذم الدنيا، ووصفها
بالغدر في مطلع قصيدة له، رثى فيها جدة الملك أبي الحجاج يوسف الأول حيث قال^(٦):

نبئت على علم يقين من الدهر ونعلم أن الخلق في قبضة القهر
ونركن للدنيا اغتراراً بلهوها وحسبك من يرجو الوفاء من الغدر

(١) أبو الحسن علي بن عثمان بن يعقوب بن عبد الحق المريني من كبار ملوك بني مرين ببيع بفاس
بعد موت أبيه سنة (٧٣١هـ) وتوفي سنة (٧٥٢هـ)، أنظر: الناصري، الاستقصا ١٠٣/٣ و ١١٧،
المقري نفح الطيب ٢١٤/٦.

(٢) وردت القصيدة كاملة في ديوان لسان الدين ٤٤٠/١-٤٤٥.

(٣) لسان الدين، ديوان لسان الدين، ٤٤٠/١.

(٤) ابن الجياب، ديوان ابن الجياب، ص ٤١٣.

(٥) المصدر نفسه، ص ٥٨٨.

(٦) لسان الدين، ديوان لسان الدين ٣٩٦/١، الإحاطة ٣٨٦/١ و ٣٨٧ الصيب والجهام ص ٥٢٨.

ونغرى بما يفنى المطامع والهوى ونرفض ما يبقى فيا ضيعة العمر

ويصور لسان الدين الدنيا بالأفعى الغادرة، التي ينبغي الحذر منها إذ يقول في رثائه لأبي الحسن المريني^(١):

لا تخذعن بزيئة من زخرف عما قليل يسترد معاره
من سالم الدنيا سالم حية مرهوبة فليدر كيف حذاره؟

وأخذ الشعراء يحتذون حذو سابقينهم في تأمل حال الجبابرة، وأصحاب القوة والجاه من البشر، فوجدوا بأنهم خضعوا للموت كغيرهم من ضعفاء الناس، وهدفوا من وراء إبراز هذا المعنى إلى بيان قوة الموت، وعدله لذا عمدوا إلى الربط بين الماضي والحاضر، وركز الشعراء على أمم، وملوك بعينهم، وهم الذين طار صيتهم بين الناس وعرفوا بالقوة، والبأس، والسطوة أمثال: كسرى، والهرمزان، والفراعنة وغيرهم ويتجلى ذلك في قول ابن الجياب، في رثاء الملك أبي الوليد إسماعيل بن فرج حيث قال^(٢):

وكم كسرت كسرى وفضت جيوشه فلم تحمه منها كتائب رستم

وفي قول لسان الدين في رثاء السلطان أبي الحسن المريني^(٣):

قسم زمانك عبرة أو عبرة هذي ثراه وهذه آثاره

وضرب الشاعر ابن الجياب الأمثال: بالملوك السابقين من الفرس، والروم، وصور ما فعله الموت بالصحابية - عليهم رضوان الله - أمثال: علي، وعثمان، وعمر، ولم تشفع لهم عظمتهم في دفع الموت عنهم، فقال في رثاء أبي الوليد إسماعيل بن فرج^(٤):

ولو أنها ترعى إمام هداية لأعفت علياً من حسام ابن منجم

(١) لسان الدين، ديوان لسان الدين، ٤٤٠/١ و ٤٤١.

(٢) ابن الجياب، ديوان ابن الجياب، ص ٥٨٨.

(٣) لسان الدين، ديوان لسان الدين، ٤٤٠/١.

(٤) ابن الجياب، ديوان ابن الجياب، ص ٥٨٨.

وما قتلت عثمان في جوف داره ففدس من مستسلم ومسلم
وما أمكنت فيروز من عمر الرضى فهدت من الإسلام أرفع معلم

أما الاتجاه الثاني، فقد استمد فيه الشعراء حكمتهم من واقع مرثيهم وذلك حين
راحوا يتأملون فيما كان عليه أولئك الملوك من قوة وبأس ومجد وجاه وسلطان ونفوذ
وكنوز كل ذلك لم يعصمهم من الموت حين حان أجلهم، ولهذا عدوا موتهم من أكبر
العظات والدلائل على حتمية الموت لكل البشر ومن ذلك قول لسان الدين في رثاء
السلطان أبي الحسن المريني^(١):

أين الملوك بنو الملوك ومن إذا طلب الصعاب تيسرت أو طاره
فكأنما أجدائهم لما بدت آيات وعظ رتبته أسطاره
هذا أمير المسلمين ومن جرى مثلاً شروداً مجده وفخاره
قصده عادية الزمان فأقصدت لم تغن عنه عندها أنصاره

وتأمل الشعراء في حال مرثيهم، وقد أحاطت بهم حصونهم، وجيوشهم تنصرهم
وتذب عنهم. ومع ذلك انكسروا أمام الموت، وانقادوا لحكمه صاغرين، وقد عبر عن
هذه المعاني ابن الأبار حين رثى أبا زكرياء^(٢) الحفصي الذي توفي عام (٦٤٧هـ)^(٣):
أنى ومن أين استدار له الردى والجيش ملء عمائر وموام^(٣)
سيف الهدى أودى به سيف الردى قد يفتك الصمصام بالصمصام

إن المعاني والصور التي قدمها الشعراء في جملتها تقليدية لا جديد فيها، سوى
ما كان مستمداً من واقع الملوك المرثيين، لاسيما الجزء المتعلق بتصوير المصيبة،

(١) لسان الدين، ديوان لسان الدين، ١/٤٤١ و٤٤٢.

(١) السلطان أبو زكرياء الحفصي من أشهر سلاطين بني حفص، أنظر: البيان المغرب ٣/٣٩٤ و
١١٦-١١٩.

(٢) ابن الأبار، ديوانه، ٢٦٣.

(٣) جمع موماء، الفلا والمفازة الواسعة، أنظر ابن منظور، لسان العرب، مادة موم.

وأثرها على الكون والطبيعة، والتركيز على المناقب النفسية التقليدية التي تداولها الشعراء منذ القدم.

ولا يمكننا تجاهل وقوف لسان الدين بن الخطيب على قبر الملك المعتمد بن عباد^(١) في (أغمات) أثناء جولته إلى الجهات المراكشية عام (٧٦١هـ)، وكان القبر على هيئة من التغرب والخمول مما أثار اشجان لسان الدين، فأنشد في الحال أبياتاً تتم عن حس وطني عميق، وفخر وتقدير لماضي الأندلسيين، واتعاض به فقد قال^(٢):

قد زرت قبرك عن طوعٍ بأغمات رأيتُ ذلك من أولى المهمات

ثم لا أزروك يا أندى الملوك يداً ويا سراج الليالي المدلهمات

وأنت من لو تخطى الدهر مصرعةً إلى حياتي لجادت فيه أبياتي

أناف قبرك في هضبٍ يميزه فتتحيه حفات التحيات

كرمت حياً وميتاً واشتهرت علأ فأنت سلطان أحياء وأموات

ما رى مثلك في ماضٍ ومعتدي أن لا يرى الدهر في حالٍ ولا آت

وقد جمع لسان الدين في هذه الأبيات القليلة مناقب الملك المرثي من كرم، وشجاعة، كما وذكر، وتذكر ماضي الأندلسيين في إطار من الوعظ والتقدير. فمكانة المعتمد بن عباد كبيرة عند لسان الدين، شاعراً، وملكاً، وماضياً، وتاريخاً لأهل الأندلس جميعهم.

(١) هو المعتمد على الله أبو القاسم محمد بن عباد اللخمي، ملك وشاعر، أحد ملوك الطوائف، وقد نفاه المرابطون إلى "أغمات" بالمغرب بمراكش. بعد أن جازوا إلى الأندلس في القرن الخامس الهجري وقد سجن ابن عباد "بأغمات" إلى أن توفي عام (٤٨٨هـ) أنظر ترجمته عند: لسان الدين: نفاضة الجراب ٥٧/٢، الناصري: الاستقصا ٣١/٢-٥٤.

(٢) لسان الدين، ديوان لسان الدين، م ١/١٨١، والصيب والجهم، ص ٣٣٨ ونفاضة الجراب ج ٢/٥٧، والمقري، نفح الطيب ج ٦/٣٩٥ و م ٩٨/٤.

رثاء الوزراء:

كان للوزراء نصيب من شعر الرثاء في عصر بني الأحمر، فمكانتهم في المجتمع كبيرة، وفقدانهم يترك أثراً لا يستهان به، لذا عبر الشعراء عن حزنهم وألمهم لفقد الوزراء، وبينوا أثر فقدهم على نواحي الحياة المختلفة، وابتنوا سبب وفاتهم خاصة إن كان موتهم غير طبيعي.

وتحدث الشعراء عن الأسباب التي دعته إلى رثاء الوزراء، فبينوا أن الحزن الحقيقي والرغبة في الوفاء للصدقة والاعتراف بالجميل كانت دوافعهم وراء ذلك ويتجلى ذلك في قول ابن شبرين في رثاء ذي الوزارتين ابن الحكيم^(١) حيث يقول^(٢):

رثيتك عن حب ثوى في جوانحي	فما ودع القلب العميد ولا قلبي
وكنيت لأمالي حياة هنيئة	فغادرت مني اليوم قلباً مقتلاً
فلا وأبيك الخير ما أنا بالذي	على البعد ينسى من ذمامك ما خلا
فأنت الذي أويتني متغرباً	وأنت الذي أكرمتني متطفلاً
فأليت لا ينفك قلبي مكمداً	عليك ولا ينفك دمعي مسبلاً

وقد يكون الوزير المرثي أستاذاً لتلاميذ حفظوا عهد الوفاء له فرثوه حباً وتقديراً لدوره في حياتهم فهذا لسان الدين يرثي استاذه الوزير ابن الجياب قائلاً^(٣):

ثق بالوفاء على المدى من فتية	بك تقتدي في العهد والميثاق
سجعت بما طوقتها من منة	حتى زرت بحمام الأطواق

(١) هو: محمد بن عبد الرحمن اللخمي الرندي: كنيته أبو عبد الله ويعرف بابن الحكيم ولده برندة سنة ٦٦٠ هـ وأسلافه من إشبيلية يعرفون ببني فتوح، انتقل إلى غرناطة، وعمل في ديوان الإنشاء وتولى الوزارة ثم لقبه السلطان محمد المخلوع بذي الوزارتين، كان كاتباً بليغاً وأديباً شاعراً، ناقداً للشعر محباً لجمع الكتب، استبد بالسلطة فثار عليه أشراف غرناطة وقتلوه سنة ٧٠٨ هـ بعد أن خلعوا السلطان محمد، انظر ترجمته في: الإحاطة: ٤٤٤/٢، الدرر الكامنة ١١٥/٤، أزهار الرياض ٣٤٠/٢، وفي نفح الطيب م ٤٩٨/٥.

(٢) لسان الدين، الإحاطة، ٤٧٦/٢، والمقري، نفح الطيب ٥٤٢/٥ و ٥٤٣.

(٣) لسان الدين، ديوان لسان الدين ٧١١/٢، الإحاطة ١٤٩/٤، المقري، نفح الطيب ٤٤٧/٥.

والدهر لم يوهن من وفاء الفقيه الشاعر أبي عبد الله بن جزي لاستاذة الوزير المرثي ابن الجياب إذ يقول^(١):

وبيك مني ذاهب الصبر موجه توقد في جنبه للحزن جاحمه
فتى نال منه الدهر إلا وفاءه فما وهنت في حفظ عهد عزائه

وتعددت المعاني التي دارت حولها مراثي الشعراء لوزراء هذا العصر ومن أبرز تلك المعاني الإشارة إلى الحادثة التي أودت بحياة الوزير لا سيما وأن أغلب وزراء بني الأحمر قد قتلوا نتيجة لفتن أو دسائس حيكمت في ذلك العصر. ويتجلى ذلك في قول القاضي ابن الجقالة^(٢) في رثاء الوزير ابن الحكيم حيث يقول^(٣):

قـتلوك ظـمـماً واعـتـدوا في فعلهم حـدد الوجـوب
ورمـوك أشـلاء وذا أمر قضـته لك الغـيوب
إن لم يكن لك سيدي قبر فقبرك في القلوب

والأرجح أن هذه الأبيات لم تدع بين الناس حين قيلت، وربما كانت جزءاً من قصيدة طويلة، لم ينج منها إلا هذه الأبيات الثلاثة، وذلك لأنها قيلت في وزير منكوب لسلطان مخلوع مغلوب في وقت قل انصارهما وكثر الملتفون حول السلطان المنصب الغالب (أبو الجيوش)، وهي أبيات تحمل معاني غزيرة منها الوفاء والإخلاص للوزير المرثي وتدل على جراءة الشاعر وإيمانه بالقضاء والقدر، عدا عن تسجيلها لحادثة مقتل الوزير ابن الحكيم ظلماً وعدواناً ورمي جسده أشلاء في العراء.

ويشير ابن شبرين إلى حادثة قتل الوزير ابن الحكيم إذ يقول^(٤):

(١) لسان الدين، الإحاطة ١٥١/٤، والمقري، نفح الطيب ٤٤٩/٥.

(٢) هو: محمد بن يوسف، يكنى أبا القاسم، ويعرف بابن الجقالة، كان قاضياً وشاعراً مجيداً من شعراء القرن الثامن الهجري، انظر ترجمته عند: ابن الخطيب في: الكتبية الكامنة ص ١٠٩، وأوصاف الناس، ص ٤١.

(٣) لسان الدين، الكتبية الكامنة ص ١١٠، المقري، نفح الطيب ٥٠٤/٥، أزهار الرياض ٣٤٤/٢ و ٣٤٥.

(٤) لسان الدين، الإحاطة، ٤٧٤/٢ و ٤٧٥، المقري، نفح الطيب ٥٤١/٥ و ٥٤٢.

سقى الله أشلاء كرم من على البلى

وما غص من مقدارها حادث البلى

تعاورت الأسياف منه ممدحاً

كريماً سما فوق السماكين منزلاً

يد الله في ذاك الأديم ممزقاً

تبارك ما هبت جنوباً وشمالاً

ومن حزني أن لست أعرف ملحداً

له فأرى للترب منه مقبلاً

يسوء المصلى أن هلك ولم تقم

عليك صلاة فيه يشهدا الملا

أما ابن الجياب فيصف ميته الوزير علي بن مسعود المحاربي^(١) إذ قتل دفاعاً
عن سلطانه بأنها ميته شهيد شجاع شريف حيث يقول^(٢):

ولا سيما إذ مات ميته عزة بعيداً شهيداً ماضياً غير رعديد

(١) هو: ابن الحسن علي بن مسعود بن علي المحاربي من اعيان غرناطة وذوي النباهة والعلم فيها،
وزر للسلطان أبي الوليد إسماعيل الذي اغتاله ابن عمه محمد بن إسماعيل، وقتل الوزير علي بن
مسعود عندما حاول أن يكر على قتلة السلطان أبي الوليد توفي سنة ٧٢٥هـ، انظر ترجمته في:
الإحاطة م٤/٧٠، واللمحة البدرية، ص ٧٩.

(٢) لسان الدين، الإحاطة، ٧٣/٤.

وفياً لمولاه مطيعاً لربه وقد بطلت ذعراً رقاب الصناديد

ولسان الدين بن الخطيب يشير إلى قتل الوزير رضوان النصري^(١) بصوت هامس بأبيات أنشدها عند قبره بصوت "دون الجهر من القول لمكان النقية"^(٢) خوف البطش من السلطة إذ قال^(٣):

أ "رضوان" لا توحشك فتكة ظالم

فلا مورد إلا سـيتلوه مصدر

ولله سر في العباد مغيب

يشيد بخافيه القضاء المقدر

ويشير الملك الشاعر يوسف الثالث إلى حادثة قتل الوزير ابن زمرك من قبل أنصار أخيه الملك محمد السابع (عام ٧٩٦هـ) إذ قال متحسراً^(٤):

يا نائم الجفن أسعف دائم السهر بيكي دماً لقتيل الصارم الذكر
يا لهف نفسي لو قد كنت حاضره غداه جرعة أدهى من الصبر
لما تركت له شلواً بمضيعة ولا تولى صريع الناب والظفر
فإن عدائي عنه من عليه عدا فلست أياس أن ادعى بمنتصر

ومن الجدير بالملاحظة حرص الملك الشاعر يوسف الثالث على رثاء الوزير ابن زمرك بعد قتله بسنوات، وربما يعود ذلك لمراعاة روابط أدبية بينهما أو مجازاة

(١) رضوان النصري، رومي الأصل، فتح باغة، وأحدث بعض الآثار العمرانية، وفي ليلة ٢٨ رمضان من عام ٧٦٠ هـ، دخل عليه الغادرون فقتلوه بين أهله وولده أنظر ترجمته عند: لسان الدين، الإحاطة م ٥١٤/١.

(٢) لسان الدين، الإحاطة، ٥٢١/١.

(٣) لسان الدين، ديوان لسان الدين، ٤٢٥/١، الإحاطة، ٥٢١/١.

(٤) يوسف الثالث، ديوان ملك غرناطة، ص ٧٥، المقرئ، أزهار الرياض ١٣/٢.

على مواقف سياسية، عارض فيها ابن زمرك الملك محمد السابع، على سجنه أخيه يوسف الثالث.

ولا يمكننا إغفال وجود شامتين بمقتل هذا الوزير، أو ذاك ونهايته بطريقة مفاجئة، كأحد مضامين رثاء الوزراء ولقد أشار الشعراء إلى وجود هذه الفئة من الناس، ويتجلى ذلك في قول القاضي ابن شبرين في رثائه للوزير ابن الحكيم^(١):

رويدك يا من قد غدا شامتاً به فبالأمس ما كان العماد المؤملاً
وكننا نغادي أو نراوح بابيه وقد ظل في أوج العلا متوقلاً^(٢)

وفي قول ابن الجياب في رثاء الوزير علي بن مسعود المحاربي إذ يقول^(٣):
فلا يشمت الأعداء إن حان حينه

فما بالردى عار فكل امرئ مودي

وأخذ تأييد الوزراء عند الشعراء في هذا العصر منحيين، أولهما: الإشادة بمناقب الوزراء المرثيين من كرم، وشجاعة، وتقوى، وتواضع، وعقل، وغير ذلك من الصفات النفسية التقليدية، ويتجلى ذلك في قول ابن شبرين في رثاء الوزير ابن الحكيم، وبيان اتصافه بالكرم. إذ قال^(٤):

لنعم قتل القوم في يوم عيده قتل تبكيه المكارم والعلا
لتبك عيون الباقيات على فتى كريم إذا ما أسبغ العرف أجزلا

وتحدث الشعراء عن الصفات التي تحلى بها مرثيوهم من كرم، وشجاعة، مثل قول ابن الجياب في رثاء الوزير علي بن مسعود المحاربي. إذ يقول^(٥):

(١) لسان الدين، الإحاطة، ٤٧٥/٢.

(٢) متوقل: أي صاعد، التوقل هو الصعود، انظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة وقل.

(٣) لسان الدين، الإحاطة، ٧٢/٤، ابن الجياب، ديوان ابن الجياب ص ٢٢٤، وردت كلمة يشمت

(٤) لسان الدين: الإحاطة، ٤٧٤/٢ و ٤٧٥، المقرئ، نفح الطيب، ٤١/٥.

(٥) ابن الجياب، ديوان ابن الجياب، ص ٢٢٢ و ٢٢٣، لسان الدين، الإحاطة، ٧١/٤ و ٧٢.

أيا زفرتي زيدي ويا عبرتي جودي على فاضل الدنيا على ابن مسعود
على الشامخ الأبيات في المجد والعلو على السابق الغايات في البأس والجود
على من إذا عد الكرام فإنه بواجب فضل الحق أول معدود

وقول الفقيه الشاعر ابن جزى، إذ رثى الوزير ابن الجياب، وصوره كحا تم
الطائي كرماً، وكقس بن ساعده بلاغه. إذ قال^(١):

وعطل من حلي البلاغة قسها وعري من جود الأنامل حاتمها
ليبك علياً فضل كل بلاغة يخلده في صفحة الطرس راقمه^(٢)

وتحدث الشعراء عن مكانة مرثيهم الأدبية، وكشفوا عن فصاحتهم، وتمكنهم من
العلوم البلاغية المختلفة، ويتجلى ذلك في رثاء لسان الدين للوزير ابن الجياب إذ قال^(٣):

خطب أصاب بني البلاغة والحجى شب الزفير به عن الأطواق

وقول لسان الدين في رثاء الوزير ابن الجياب، إذ وصفه بالموسوعة التي حوت
المعارف المتنوعة، وصور المعرفة بالكنز الذي لا يفنى. إذ قال^(٤):

كنز المعارف لا تبديد نقوده يوماً ولا تفنى على الإنفاق
من للفنون جيل في ميدانها خيل البيان كريمة الأعراق

أما الملك يوسف الثالث فقد وصف ابن زمرك بالحكمة، والبلاغة إذ قال^(٥):

إن قال قولاً ترى الأبصار شاخصة

لما يحبر من وحي ومن خبر

(١) لسان الدين، الإحاطة، ١٥٠/٤، المقري، نفح الطيب، ٤٤٨/٥.

(٢) الطرس: الكتاب الممحو الذي يستطيع أن تعاد عليه الكتابة، انظر: ابن منظور، لسان العرب،
مادة طرس

(٣) لسان الدين، ديوان لسان الدين، ٧٠٩/٢، الإحاطة، ١٤٨/٤.

(٤) نفسيهما

(٥) يوسف الثالث، ديوان ملك غرناطة، ص ٧٥، المقري، أزهار الرياض ١٣/٢.

ونالت سمة التقوى عناية الشعراء، فأكثرُوا من تداولها والحديث عن مظاهرها المختلفة، من تعبد، وقيام ليل، وقراءة قرآن، وتجلّى ذلك عند ابن الجياب في رثاء الوزير ابن مسعود المحاربي^(١):

ذكرتك في المحراب والليل دامس تـردد أي الذكر أطيب تـريد

وذكر الشعراء الاعتكاف على العبادة كمظهر من مظاهر التقوى، وتجلّى المعنى السابق في قول لسان الدين في رثاء الوزير ابن الجياب^(٢):

تبكي فراقك خلوة عمرتها بالذكر في طفل وفي إشراق^(٣)

ورثى ابن جزي الوزير ابن الجياب فأشاد بورعه، وتحدث عن مظاهر تقواه من صيام نوافل، ومداومته على الصلاة ليلاً^(٤):

ليبك علياً ليله وهو قائم يكابده أو يومه وهو صائمه

ومن الصفات التي تحدثوا عنها ما تحلى به مرثيوهم من تواضع، وسخاء، وإباء وحسن تدبير، ويتجلّى ذلك في قول ابن جزي في الوزير ابن الجياب حيث قال^(٥):

وزاد على بعد المنزل تواضعاً أبى الله إلا أن تتم مكارمه
تكفل بالرزق المقدر للورى إذا الله أعطى فهو في الناس قاسمه
سخي على العافين سهل قياده أبى على العادين صعب شكائمه

أما المنحى الثاني فلاشادة بصفات المرثيين المتصلة بمهامهم المناطة بهم، والتي قاموا بها خير قيام، ومنها كتابة الرسائل بلسان الدولة إلى الأعداء، وإلى الأصدقاء، ورسائلهم تلك ترد على تهديدات العدو، أو طلبه الصلح، أو فك أسرى

٥٦٢٨١٥

(١) ابن الجياب، ديوان ابن الجياب، ص ٢٢٣، لسان الدين، الإحاطة ٧٢/٤

(٢) لسان الدين، ديوان لسان الدين، ٧١١/٢

(٣) طفل: فترة الغروب، انظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة طفل

(٤) لسان الدين، الإحاطة، ١٥٠/٤، المقرئ، نفح الطيب ٤٤٨/٥.

(٥) نفسيهما

المسلمين، وغير ذلك مستخدمين أسلوب اللين أحياناً، والتهديد والوعيد أحياناً أخرى، وبوتهم خلت ساحات الجهاد والقتال، من ذلك قول لسان الدين في رثاء الوزير ابن الجياب إذ قال^(١):

من للرقاع الحمر يجمع حسنها خجل الخدود وصبغة الأحداق
تغتيال أتشاء العدو كأنها صفحات دامية الغرار رقاق

وقول ابن جزى في المرثي الوزير ابن الجياب^(٢):

وقام بأمر الملك والدين حامياً فذل معاديه وضل مراغمه
ففي يده وهو الزعيم بحقها يراعيته والمشرقي وخائمه

ومن مهام الوزير أن يساند الملك ويعاضده، فابن شبرين يشيد بقوة الوزير ابن الحكيم إذ قال^(٣):

على عضد الملك الذي قد تضرعت مكارمه في الأرض مسكاً ومنذلاً

وقد ترددت الدعوة لقبور الوزراء بالسقيا، ولساكنيها بالسلام والمغفرة، هذه المعاني عبر عنها الشعراء في مرثيهم فاستعانوا بالسحب وأملوا فيها الخير والرحمة فهي مجددة الرحمى وديمة هطاله، ومن الأمثلة على ذلك قول ابن الجياب في رثاء الوزير ابن مسعود المحاربي^(٤):

عليه سلام الله ما ذر شارق وما صدحت ورقاء في فرع أملود^(٥)
وجادت ثرى اللحد الزكي سحاب مجددة الرحمى بأحسن تجديد

(١) المقرئ، نفح الطيب، ٤٤٦/٥.

(٢) لسان الدين، الإحاطة، ١٥١/٤، المقرئ، نفح الطيب، ٤٤٩/٥.

(٣) لسان الدين، الإحاطة، ٤٧٥/٢، المقرئ، نفح الطيب، ٥٤٢/٥.

(٤) ابن الجياب، ديوان ابن الجياب، ص ٢٢٥، لسان الدين، الإحاطة ٧٣/٤.

(٥) أملود: ناعم، انظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة ملد.

وحين يدعو الشعراء للقبور بالسقيا، يكشفون عن رغبتهم في بقائها خضراء يانعة وهذا ما عبر عنه لسان الدين، إذ قال في رثاء الوزير ابن الجياب^(١):

جاءت ضريحك ديمة هطالة تبكي عليك بواكف رقراق
وتغمدتك من الإله سعادة تسمو بروحك للمحل الراقى

ومثله قول الفقيه أبو عبد الله بن جزي، في المرثي الوزير ابن الجياب^(٢):

سُقيت النوادي أي علم وحكمة ودين متين ذلك القبر كاتمته

والعزاء جزء من قصيدة الرثاء، ولقد عبر عنه الشعراء بطرق مختلفة منها تعزية ذوي المرثيين، حين بينوا أنهم ليسوا وحدهم في المصيبة، وأنها عمت الناس جميعهم ويتجلى ذلك في قول لسان الدين الذي عزى بنى الجياب. حيث قال^(٣):

صبرا "بنى الجياب" إن فقيدكم سيسر مقدمه ما هو لاق
وإذا الأسى لفج القلوب أواره فالصبر والتسليم أي رواق

وتعزى الشعراء عن مصابهم حين تحدثوا عن مشكلة الحياة، والموت، وصور الشعراء الموت عادلاً يساوي في الحكم بين البشر غنيهم وفقيرهم، بخيلهم وكريمهم، ونظر الشعراء إلى المصير الذي انتهى إليه مرثيوهم، إذ أصبحوا تحت التراب دون جاه ودون سلطان، ومن ذلك ما عبر عنه أبو عبد الله بن جزي في رثائه للوزير ابن الجياب حيث قال^(٤):

تساوى جواد في رداءه وباخل فلا الجود واقية ولا البخل عاصمه
وما نفعت رب الجياد كرامه ولا منعت منه الغني كرائمه
وكل تلاق فالفرار أمامه وكل طلوع فالغروب ملازمه
سأصبر مضطراً وإن عظم الأسى أحارب حزني مرة وأسأله

(١) لسان الدين، ديوان لسان الدين، ٧١١/٢، الإحاطة، ١٤٩/٤.

(٢) لسان الدين، الإحاطة، ١٥٢/٤، المقري: نفح الطيب، ٤٤٩/٥.

(٣) لسان الدين، ديوان لسان الدين، ٧١١/٢، الإحاطة، ١٤٩/٤، المقري، نفح الطيب، ٤٤٧/٥.

(٤) لسان الدين، الإحاطة، ١٥٠/٤، والمقري، نفح الطيب، ٤٤٨/٥ و ٤٤٩.

وعبروا عن تعزية نفوسهم بما أصابهم من فقد المرثيين، بدم الدنيا وسرورها المؤقت، ومن ذلك قول ابن الجياب في رثاء الوزير علي بن مسعود المحاربي إذ قال^(١):

عفء على الدنيا ولا در درها فما جمعها إلا رهين بتبيديد
فمهما حلت منها لديك مسرة ففي إثرها فارقب مرارة تنكيد

ويخص لسان الدين الوزير ابن الجياب، بدعاء لنيل السعادة التي ترتفع بروحه الى الجنة، وبأن تجود على قبره ديمة غزيرة الأمطار كأنها تبكيه فيقول^(٢):

جَآدَتْ ضَرِيحَكَ دِيْمَةً هَظَالَةً تَبْكِي عَلَيْكَ بَوَاكِفَ رَقَرَاقِ

وتغمدتك من الإله سعادةً تسمو بروحك للمحلِّ الرَّاقِي

أما وقد عزَّ اللقاء بين الفقيه أبي عبد الله بن جزي، والمتوفى الوزير ابن الجياب فإنه يهديه تحية وثناء طيب الرائحة، ويدعو له بالسقيا فما زال الناس يستسقون بفضل استسقائه للأحياء قبل موته، ففضله باقٍ بعد موته أيضاً^(٣):

وأهديك إذ عزَّ اللقاء تحيةً وطيب ثناء كالعبير نواسمة

سُقِيت الغواذي، أي علم وحكمة ودين متين ذلك القبر كاتمة

وما زال يستسقي بدعوتك الحيا وهما هو يستسقي لقبرك ساجمة

ومن اللافت للنظر، وجود مثناة في رثاء الحاجب محمد ابن أبي عمرو^(٤)،

(١) ابن الجياب، ديوان ابن الجياب، ص ٢٢٥، لسان الدين، الإحاطة ٧٣/٤.

(٢) لسان الدين، ديوان لسان الدين، م ٧١١/٢، والإحاطة، م ١٤٩/٤.

(٣) لسان الدين، الإحاطة، م ١٥٢/٤ و ١٥١، المقري، نفح الطيب، م ٤٤٩/٥.

(٤) هو الحاجب : أبو عبد الله محمد بن أبي عمرو (ت ٧٥٦هـ) كان أباه وأجداده رجال علم، ولذلك جعله أبو الحسن يودب ولده أبا عنان، فلما أصبح أبو عنان ملكاً في المغرب، جعله حاجباً له، أنظر ترجمته عند : الناصري، الاستقصا ج ٣/١٨٥ و ١٨٦.

حاجب أبي عنان المريني^(١)، من نظم لسان الدين بن الخطيب، أدارها حول ثلاثة محاور، أولها: الإشادة بالدور السياسي للحاجب محمد بن أبي عمرو، ويتضح هذا المعنى من خلال قول لسان الدين : ^(٢)

وَصَيَّرَتْ صَعْبَ الشَّرْقِ لِلْغَرْبِ هَيِّنًا وَكُنْتَ مُسْرًا، لِلْخُلُوصِ وَمَعْلَنًا
لَبِستَ الرِّضَى فِي بَدَاةٍ وَتَمَّةٍ وَدَافَعْتَ عَنْ مَوْلَاكَ كُلِّ مَلَمَةٍ ^(٣)
بَقِيتَ إِذَا اسْتَكْفَاكَ كُلُّ مُهْمَةٍ وَلَمْ تَأَلُ فِي صَيِّتٍ بَعِيدٍ وَهْمَةٍ
وَكُنْتَ أَحَقَّ الْمَخْلُصِينَ بِنِعْمَةٍ فَقَدَّسْتَ مِنْ آلِ كَرِيمٍ وَرَمَّةٍ

فلقد ساهم الحاجب ابن أبي عمرو بحنكته السياسية، والعسكرية في اتساع رقعة الدولة المرينية وحماية سلطانه، وكل مهمة تناط به يقوم بها على الوجه الأكمل بهمة عالية، لذا حُمدت سيرته بين الناس^(٤)، ولقد أخلص لسلطانه، فهو من ذرية كريمة هذا ما يسجله ابن الخطيب للحاجب ابن أبي عمرو.

أما المحور الثاني: للمثمنة فهو تأبين الحاجب ابن أبي عمرو، وذكر مناقبه الجليلة التي كان متصفاً بها ، وذلك ليزيد من التأثير على السامع بلوعته عليه، وبكائه والتحسر لفقده، فيقول ^(٥):

وَمَا كُنْتَ إِلَّا الْبَحْرَ وَالطُّودَ وَالسَّنَا تُضِيءُ ضِيَاءَ الزَّاهِرَاتِ الثَّوَابِ

(١) أبو عنان المريني (ت ٧٥٩هـ) فارس بن علي بن عثمان بن يعقوب المريني المتوكل على الله ، انظر الناصري: الاستقصا ج ٣/٢٠٤، وما بعدها .

(٢) لسان الدين، ديوان لسان الدين ، م ١/١٢٦ .

(٣) المصدر نفسه، م ١/١٢٧ .

(٤) الناصري، الاستقصا، ج ٣/١٨٦ .

(٥) لسان الدين، ديوان لسان الدين، م ١/١٢٦ .

ألهفاً عليها من خلال كريمة كروض الربا تفتّر في أرض ديمة
تترف جناها عن أصول قديمة وذرة مجّدة لا تُقاس بقيمة
تدوّد عن الأحرار كلّ هزيمة وكم من معال قد حوت عظمة
وما كنت إلا حائزاً كلّ شيمة من الفخر سباقاً لبذل الرغائب

فأخلاق الفقيد متنوعة، وكثيرة، وطيبة أيضاً، وتمتد إلى جذور قديمة من نسبه، فقد حاز الفقيد على كل خلق يبعث الفخر، من: كرم، وسمو خلق، وثبات على الحق، ومناصرة، للأحرار إذا وقع عليهم ضيم.

أما المحور الثالث والأخير فقد جعله لسان الدين في الدعاء للحاجب محمد بن أبي عمرو، مقدماً عن ذلك المعنى بالتعبير عن حزنه الشديد لفقده، وجريان دموعه عليه^(١):

وأنهائي وردّ الدُموع وعلّني وما أنا عن حزني عليك بمنثني
فبإله ما دُمعي براق وإنني أكفّ منه كالعهاد السّواكب^٢

فحزن لسان الدين لن ينثني ودمعه لن يكف، بل لقد أصيب بالمرض نتيجة دموعه التي كالينبوع وكالمطر الذي في إثره مطر وهكذا .

أما الدعاء للحاجب ابن أبي عمرو فكان ان تشمله رحمة من الله ، وأن ينال الجنة ويرافق حورها ، ومن يقدم الخير يجر به ، فالفقيد يستحق السكنى في قصور الجنة وتحية الحور العين، ويبعث له لسان الدين بسلام من الله كلما برقت غيمة وكلما

(١) المصدر نفسه م ١٢٧/١.

(٢) العهاد: مطر أول السنة، وقيل هو كل مطر بعد مطر ، أنظر : ابن منظور، لسان العرب، مادة عهد .

هدلت حمامة، فترديد الحمام لهديله بنجمة حزينه جعلت الشعراء يظنون أنها تندب أليفاً
أو تفتقد شيئاً ؟!! .

فانظر إلى أبيات لسان الدين ^(١):

وغمّك الرّحمنُ منه برحمةٍ	تُبَلِّغُكَ الزُّلْفَى وَأَقْصَى المَارِبِ
ورافقتَ ولدانَ الجنانِ وحُورَهُ	وَمِنْ قَدَمِ الخَيْرِ استطابَ وجُورُهُ ^(٢)
فضاعفَ في مثواكَ ربُّكَ نُورَهُ	ونضرتَهُ لفاكهها وسُرُورَهُ
وبوأكَ مِنْ أَعْلَى الجنانِ قُصُورَهُ	تحْيِيكَ فِيهَا مُسْتَبَلَاتُ الذَّوَانِبِ
عليكَ سلامُ اللهِ ما لاحَ بَارِقُ	وما سَجَعَتْ وَرَقُ الحمامِ النُّوَادِبِ ^(٣)

ومن الجدير بالملاحظة، اهتمام لسان الدين بالخروج من الشعر التقليدي إلى نظم
مثمّنة في الرثاء ، ومع ذلك حرص على مخاطبة رفيقين له على عادة الشعراء في
العصر الجاهلي، فهو يخاطبهما في بداية ثمّنته مناجياً وطالِباً منهما البكاء على الفقيد
الجليل السّمح، العالي الشأن حيث يقول ^(٤):

أيا صاحبي نجواي دعوةٌ صاحبِ	أطافتَ بهِ الأشجانُ مِنْ كُلِّ جانبِ
المّا بأحداثِ العُلَى والمناقبِ	تُحْيِي ثَراها واكفاتِ السَّحائبِ

(١) لسان الدين، ديوان لسان الدين، م ١٢٧/١ أو ١٢٨.

(٢) وجوره: الدواء يُجرّفي وسط الفم ، ابن منظور، لسان العرب، مادة وجر .

(٣) الورق : جمع ورقة : الحمامة التي لونها بين السواد والغبرة، ابن منظور ، لسان العرب، مادة ورق .

(٤) لسان الدين، ديوان لسان الدين، م ١٢٥/١.

ألا فابكيا روض الجلال الذي ذوى
على حين هزته السماحة واستوى
وجادته أخلاف الخلافة فارتوى
ونوحا على نجم العلاء الذي هوى

إن رثاء الوزراء قد حمل الكثير من مضامين الرثاء من تأبين، وندب، وعزاء
ووصف لحادثة القتل. وبيان لدواعي الرثاء من وفاء وإخلاص وتقدير للوزير المرثي
وتطرق بعضهم إلى فلسفة الحياة والموت، وعموماً كانت قصائد رثاء الوزراء متنوعة
وغنية بمعانيها وصورها في إطار من التقليد لم تخرج عنه.

رثاء آل البيت:

لآل بيت الرسول - عليه الصلاة والسلام - مكانة رفيعة في قلوب المسلمين وهم على الدوام محط رعاية المسلمين وإجلالهم أينما حلوا ، ولقد وصل بعضهم إلى الأندلس واستوطنها ، فعلم فيها أو خطب أو قضى أو تصوف أو جمع بين كل ذلك ، وكانوا بين الناس خير خلف لخير سلف ، حتى إذا وافى أحدهم الموت تأسف الناس على فقده ، ولجت السنة الشعراء بتأبينه وبيان فضله وعلو مكانته وتصوير ما سيلقاه - إن شاء الله - من الثواب وحسن المآب .

أما مضامين هذا اللون من الرثاء فقد تنوعت ومنها اهتمام الشعراء بتصوير مصيبة موت المرثيين من آل البيت وأثر ذلك على الكون والطبيعة فنبأ موتهم قد أصم المسامع ، وأمسى به الليل أشد حلكة ، وأشرق الصبح بعده كاسفاً وقد تجلت هذه الصور في قول ابن زمرك في رثاء القاضي الشريف أبي القاسم الحسني^(١) إذ قال^(٢):

أغرى سراه الحي بالإطراق نبأ أصم مسامع الأفاق
أمسى به ليل الحوادث داجياً والصبح أصبح كاسف الإشراق

ومن ذلك مخاطبة الملك الشاعر يوسف الثالث البرق ليرسل سلامه إلى العراق حيث قتل الحسين بن علي رضي الله عنهما - في كربلاء حيث يقول^(٣):

واستوقف البرق مستفهماً أكابد من خفقته جمرتين
وخص العراقي من دونهم سلام مشوق إلى الرافدين
لئن حل جسمي بالمغربيين فقد صار قلبي بالمشرقين

(١) هو محمد بن أحمد الحسني ولد بسنة ٦٩٧هـ ، وتوفي بغرناطة سنة ٧٦٠هـ وقد تولى قضاءها والخطبة في مسجدها الأعظم ، له مؤلفات منها "رفع الحجب المستورة عن محاسن المقصورة" انظر ترجمته عند لسان الدين: أوصاف الناس، ص ٩٣.

(٢) ابن زمرك، ديوان ابن زمرك، ص ٤٤٥، المقرئ، أزهار الرياض، ١٦٠/٢.

(٣) يوسف الثالث، ديوان ملك غرناطة، ص ١٣٤.

ولقد تغنى الشعراء بمناقب مرثيهم وصفاتهم فذكروا لهم انتسابهم للهاشميين،
وعدها الشعراء من أفضل مناقبهم وأكثرها رفعة وفضلاً ويوضح ذلك قول ابن الجياب،
في رثاء عمر^(١) بن علي الهاشمي^(٢):

ففي إمامنا التقى الخاشع الطاهر الذات الزكي السير
قرشي هاشمي من تقى من عنصر الشرف المطهر

ويرى ابن زمرك أن نسب النبوة يشمل العلم والخلق الكريم إضافة إلى طهارة
النسب^(٣) حيث وصف القاضي أبا القاسم الحسني^(٤):

يا وارثاً نسب النبوة جامعاً في العلم والأخلاق والأعراق
ورد الكتاب بفضلكم وكمالكم فكفى ثناء الواحد الخلاق
ومن الذي يحصي مناقب مجدكم عدّ الحصال لرمّل غير مطاق

وفي قول الشاعر أبي عبد الله محمد بن علي الغرناطي^(٥) إشارة إلى النسب
الطاهر في رثائه لحمزة بن عبد المطلب وقد وقف على قبره فقال^(٦):

يا ابن الأعزة من خلاصة هاشم سرج المعالي والكرام المجّد

(١) هو عمر بن علي بن عتيق بن أحمد بن عبد العزيز الهاشمي المعروف بالقرشي فقيه ومتصوف،
لقى شيوخاً وأعلاماً مشاهير، وأخذ عنهم وروى وقيد وخطب بالجامع الأعظم بغرناطة نيافاً وثلاثين
سنة، صنف في التصوف "مطالع أنوار التحقيق والهداية" توفي سنة ٧٤٤هـ، وقد اختلف باسمه،
فلسان الدين ذكره في الإحاطة ٢٠٠/٤ والكتيبة الكامنة (ص ٥١) باسم علي بن علي بن عتيق أما
المقري في النفح ٤٤٥/٥ باسم عمر بن علي، انظر ترجمته عند: لسان الدين الإحاطة م ١٩٧/٤،
والكتيبة الكامنة ص ٥١، أوصاف الناس في التواريخ والصلوات، ص ١١٧.

(٢) ابن الجياب، ديوان ابن الجياب، ص ٢٦٢

(٣) أنظر الآية ٣٣ من سورة الأحزاب والآية ٧٥ من سورة الأنفال، والآية ٤ سورة القلم.

(٤) ابن زمرك، ديوان ابن زمرك، ص ٤٤٦ و ٤٤٧، المقري، أزهار الرياض، ١٦٢/٢، ونفح
الطيب، ١٩٦/٥.

(٥) هو محمد بن علي بن يحيى بن علي الغرناطي المعروف بالشامي ولد بغرناطة سنة ٦٧١هـ،
وقرأ القرآن بقرآته السبع على أبي جعفر بن الزبير، كان أديباً فقيهاً مشاركاً في عدة فنون، وله شعر
جيد، مات بالمدينة المنورة سنة ٧١٥هـ، أنظر ترجمته عند ابن حجر: الدرر الكامنة ج ٤/٢١٤.

(٦) المقري، نفح الطيب، ٦٦١/٢

وأثنى الشعراء على شجاعة آل البيت، وبينوا إقدامهم في القتال ويتجلى ذلك في قول الشاعر أبي عبد الله محمد بن علي الغرناطي في رثاء حمزة بن عبد المطلب - رضي الله عنه -^(١):

يا أيها البطل الشجاع المحتمي دين الإله بيأسه المستأسد
حمزة الخير المؤمل نفعه يوم الهياج وعند فقد المنجد

ونالت سمة التقوى اهتمام الشعراء فبينوا اتصاف آل البيت بها وتحدثوا عن مظاهرها المختلفة وبرزت بصورة جلية عند الشاعر ابن الجياب في رثاء عمر القرشي الهاشمي حيث قال^(٢):

يشهد الليل عليه أنه دائم الذكر طويل السهر
في صلاة بعثت وفودها زمراً للمصطفى من مضر
قائماً راعياً وساجداً لطلوع فجره المنفجر

وقد صور الشعراء العلم وقد أفقرت ربوعة بموت المرثي، والأدب وقد كسدت سوقه والعدل قد ذهب حاميه ويوضح كل ذلك قول ابن زمرك في مرثية القاضي الحسني^(٣):

واحسرتا للعلم أقفر ربيعته والعدل جرد أجمل الأطواق
ركدت رياح المعلوات^(٤) لفقدتها كسدت به الآداب بعد نفاق

وجعل الشعراء مظاهر الطبيعة تشاركهم حزنهم فشخصوها وأعطوها من الصفات ما يلائمها ومن ذلك إشادة ابن زمرك برقة طبع الشريف الحسني ولين جانبه

(١) المصدر نفسه، ٦٦١/٢ و ٦٦٢

(٢) ابن الجياب، ديوان ابن الجياب ص ٢٦٢ و ٢٦٣، المقرئ نفح الطيب ٤٥٥/٥

(٣) ابن زمرك، ديوان ابن زمرك، ص ٤٤٥ و ٤٤٦

(٤) المعلوات: جمع معلوة: واحدة المعالي

وعلو شأنه إذ قال^(١):

علم الهداة وقطب أعلام الهدى حرم العفواة ألمجتنى الأرزاق
رقت سجاياه وراقبت مجنلى كالشمس في نعد وفي إشراق
كالزهر في لآلئه والبدر في عليائه والزهر في الإيراق

أما الملك الشاعر يوسف الثالث فيعود بنا إلى مقتل سبطي^(٢) الرسول -عليه
الصلاة والسلام- أيام حكم بني أمية ليرثيهما بقصيدتين وليقف متحسراً على ما حل
بالطف^(٣) وعلى موت الحسن بن علي رضي الله عنهما -مسموماً^(٤):

لهف نفسي لو شفقني عنهم عرض الديار
بعد ضيف الطف تطغى لوعتي أدمع عيون
آل حارب وزيناد خطبهم ليس بهيرون
قطعوا بالسهم قلبي ثم ثنوا بالرديون
وبدور من بنوهم صرعوا ما بين ذين

وهنا نتساءل لماذا يعود الملك الشاعر يوسف الثالث كل هذه السنين الطويلة
لرثاء سبطي الرسول -عليه الصلاة والسلام-؟؟ وهل يمكن اعتبار قصائد رثاء آل البيت
في عصر بني الأحمر نوعاً من النزوع إلى التشيع^(٥)؟؟

من المؤكد أن حب الرسول -عليه الصلاة والسلام- وآله موجود في قلب كل
مسلم ومسلمة، ناهيك عن حب الأندلسيين لموطن الإسلام وجذوره الأولى، لا سيما وقد

(١) ابن زمرك، ديوان ابن زمرك، ص ٤٤٦، المقرئ، أزهار الرياض ١٦٢/٢

(٢) توفي الحسن بن علي رضي الله عنهما -مسموماً في المدينة المنورة عام ٤٩هـ، أما الحسين
بن علي رضي الله عنهما -فقد قتل في كربلاء عام ٦١هـ، أنظر السيوطي، تاريخ الخلفاء ص
١٩٢ و ٢٠٧

(٣) الطف: اسم موضع بناحية الكوفة قتل فيه الحسين بن علي انظر: ابن منظور، لسان العرب مادة
طف.

(٤) يوسف الثالث، ديوان ملك غرناطة، ص ١٣٣.

(٥) انظر: رأي عبد الله كنون في مقدمته لديوان ملك غرناطة ص م.

أصبحت مملكة غرناطة مستهدفة من قبل أعدائها ومهددة بعروبته وأسلامها بل ووجودها لذا زاد تمسك الأندلسيين بإسلامهم وعروبته، وربما كان هذا أحد الأسباب التي دعت ملك غرناطة لرياء سبطي الرسول -عليه الصلاة والسلام- عدا عن اتخاذ رياء آل البيت وسيلة تقربهم من الرسول وطلب شفاعته فملك غرناطة يوسف الثالث يقول^(١):

وحسبي الشفيع إذا ما الذنوب أحاطت بنفسي في الموقفين
جعلت التشيع في آله وسائل أرجو بها الحسنيين

وابن الجياب يقول^(٢):

جمع الرحمن شملنا غدا بحبيب الله خير البشر
وتلقاه وفود رحمة الله تأتي بالرضا والبشر

ومحمد بن علي الغرناطي في رثائه لحمزة رضي الله عنه - يوضح سبب الرثاء فيقول^(٣):

لذنا بجانب الكريم توسلا وكذا العبيد ملازمهم بالسيد
فاشفع لضيفك فالكريم مشفع عند الكريم ومن يشفع يقصد
فقد اعتمدنا منك خير وسيلة نرجو بها حسن التجاوز في غد
لم لا تؤم وأنت عم محمد ولدينه قد صلت صولة أيد

(١) يوسف الثالث، ديوان ملك غرناطة، ص ١٣٤.

(٢) ابن الجياب، ديوان ابن الجياب، ص ٢٦٣، المقرئ، نفح الطيب ٤٥٥/٥، لسان الدين، الإحاطة ٤/٢٠١.

(٣) المقرئ، نفح الطيب، ٦٦٢/٢.

رثاء العلماء والأدباء:

امتاز عصر بني الأحمر بظهور عدد كبير من الشخصيات الأدبية والعلمية التي كان لها دور بارز ومؤثر في الحياة الثقافية ، تلك الحياة التي انمازت بموسوعيتها، فقد كان الأفراد يتلقون علوم عصرهم جلها من فقه وقراءة وعربية وأدب ومعرفة بالوثائق والأحكام . . الخ ، ثم يُبدع بعضهم في مجال من مجالات العلم، وتبقى روابط اجتماعية ثقافية فيما بينهم، فيتراسلون بالخطب والأشعار والكتب ويربطهم العلم برابط ولا أقوى، حتى إذا جاء أحدهم الموت - وتعددت أسبابه - افتقده أصدقاؤه وتلاميذه فيرثونه ويثنون اللوعة لفراقه، فهذا القاضي أبو بكر بن شبرين^(١) في رثاء محمد بن البلوي^(٢) (ت ٧٣٨ هـ) يفتقد خطاباته وخطبه وكتبه التي كانا يتبادلانها قبل موته ويبين أن الوفاء للصحة وبكاء الماضي شكلاً حزناً حقيقياً في قلبه على الفقيد^(٣):

لله وللآجال قاطعة ما بيننا من خطابات ومن خطب

ومن فرايد آداب يُحسبها فيودع الشهب أفلاكاً من الكتب

ويفتقد رسائل محمد بن علي السبتي^(٤) بعد موته أيضاً فيقول^(٥):

أين الرسائل منك تـأ تينا كما نظم العقود ؟

(١) هو محمد بن أحمد بن محمد بن شبرين يكنى أبا بكر (ت ٧٤٧ هـ) قاضٍ وفقه كان أحد شيوخ ابن الخطيب، وقد قدم على الأندلس، وذو الوزارتين ابن الحكيم يدبر ملكها انظر ترجمته عند : ابن الخطيب ، الإحاطة ج ٢/ ٢٣٩، والكتيبة ص ١٦٦، والمراقبة العليا ، ص ١٥٣. ورد عند البناهي، المراقبة العليا، شبرين، (بفتح الشين) أما في بقية المصادر فلقد وردت الشين بالكسر .

(٢) هو محمد بن محمد بن محمد بن عبد الواحد البلوي يكنى أبو بكر من أهل المريّة، ت (٧٣٨ هـ)، انظر ترجمته عند : ابن الخطيب، الإحاطة م ٢/ ٢١٨.

(٣) لسان الدين، الإحاطة ، م ٢/ ٢٢٣.

(٤) هو محمد بن علي بن هاني اللخمي السبتي يكنى أبو عبد الله ، توفي بجبل الفتح والقشتاليون يحاصرونه، أصابه حجر المنجنيق في رأسه (ت ٧٣٣ هـ) انظر ترجمته عند : لسان الدين، الإحاطة، م ٢/ ١٤٣، وما بعدها، وانظر : المقرئ، نفح الطيب، ج ٦/ ٢٤٩، وما بعدها.

(٥) لسان الدين ، الإحاطة ، م ٣/ ١٥٤، والمقرئ، نفح الطيب ، م ٦/ ٢٥٣.

أَيُّنَ الرُّسُومِ الصَّالِحَا ت ؟ تُصَرِّمَتُ أَيُّنَ الْغُهوذُ؟

أما إذا مات أحد أساتذة علم من العلوم، فيهب تلاميذه الذين أخذوا عنه سابقاً أو الذين ما برحوا يأخذون يحملون نعشه على رؤوسهم^(١) وفاءً وعرفاناً، ويرثونه بقصائد يؤبنونه فيها ويعددون مناقبه وأثره فيهم، فإن لم يفعلوا، أعتبر ذلك منهم " تقصيراً عن الحق وقدحاً في نسب الوفاء"^(٢)، لذا تنشرت في كتب ذلك العصر قصائد ومقطوعات لرثاء القضاة أو الأدباء أو الأطباء أو المتصوفة أو القادة ... وغيرهم .

وفاء ممن أخذ عنهم لهم، فرابطة العلم والتلمذة من أقوى الروابط في ذلك العصر الذي يُقدَّر العلم ويعظمه .

فما المعاني المشتركة التي اشتملت عليها مراثي الشخصيات الثقافية في عصر بني الأحمر ؟ وما المناقب التي أبرزها الشعراء لموتاهم من العلماء ؟ وما نمط الدعاء لهم ؟ من المعاني التي أشار إليها شعراء هذا العصر التعبير عن أساهم ومعاناتهم وأرقهم وقلة صبرهم وحسرتهم وما ذرفوه من دموع غزار على مرثيئهم ولا تكاد تخلو قصيدة من هذه المعاني ومن ذلك قول ابن الحاج الغرناطي^(٣) في رثائه للطيب ابن عمار^(٤):

ألا أسعدا عيني على السهد والبكا فقد واصل السهد المبرخ تذكاري

وأبدى الردى فتك ابن عباد اذ سطا فلا غرو أن أبكي لفقد ابن عمار

فتذكره للطبيب ابن عمار قد أطل سهده وبكاهه، وقد جانس الشاعر بين اسمي عمار وعباد ليبين أن الردى يفتك بالبشر مهما كانت مناصبهم .

أما أبو الحسن الوراد فيبكي أستاذه محمد بن أحمد المعروف بالقطان^(٥) دماً، فقلبه مكلوم لفقده، وجفونه تترجم ألمه بالدم عوض الدمع^(٦):

(١) لسان الدين، الإحاطة ، م ٢٠٠/١ .

(٢) المصدر نفسه ، م ٣٧/٣ .

(٣) وردت ترجمته في رثاء الأخوال، ص ٣٠ .

(٤) المقرئ، نفح الطيب ، ج ١١٨/٧ .

(٥) هو محمد بن أحمد بن قاسم الأمي، أبو عبد الله ويعرف بالقطان، زاهد، ورع تكلم في فنون من العلم، توفي بسبب مرض الطاعون سنة (٧٥٠هـ)، انظر ترجمته عند : لسان الدين، الإحاطة ، م ٢٤١/٣ .

(٦) لسان الدين ، الإحاطة ، م ٢٤٣/٣ .

أَبْعُدْ وَلِيَّ اللَّهِ دَمْعِي يُسْجَمُ وَغَمَارِ قَلْبِي مِنْ كُلِّ لَوْمٍ تَتَرَجَّمُ
فَوَادِي مَكْلُومٍ بِحُزْنِي لَفَقَّدهُ لِذَاكَ جَفُونِي دَمْعُهَا كُلُّهُ دَمٌ

ومحمد بن عبد الله اللوشي لا يعذر عينيه إن لم تشابها المطر في غزارته حزنا
على استاذة محمد الخولاني المعروف بابن الفخار^(١) ويطلب من الحمام مساعدته على
البكاء^(٢) :

فَلَا عُذْرَ لِلْعَيْنَيْنِ إِنْ لَمْ تُسَايِحَا بَدَمْعٍ يَحَاكِي الْوَبْلَ يُشْفَى لَوَاجِدِ
أَلَا يَا حَمَامَ الْأَيْكَ سَاعِدِي بِالْبُكَاءِ عَلَى عِلْمِ الدُّنْيَا وَزِينِ الْمَشَاهِدِ

ويأمر القاضي أبو بكر بن شبرين عينه بالبكاء ، وقد أجابت عيونه لمنعى محمد
ابن محمد البلوي، ولو لغير منعه ما أجابت دموعه^(٣) :

يَا عَيْنَ سَحْيٍ بَدَمْعٍ وَاكِفٍ سَرِبَ لِحَامِلِ الْفَضْلِ وَالْأَخْلَاقِ وَالْأَدَبِ
أَجَابَ دَمْعِي إِذَا نَادَى النِّعَى بِهِ لَوْ غَيْرَ مَنْعَاهُ نَادَى الدَّمْعَ لَمْ يُجِبْ

فالدموع لا تقضي حقاً للفقيد العزيز حتى ولو كانت سيولاً وبحاراً، هذا ما يقوله
القاضي أبو جعفر بن أبي جبل^(٤) في رثاء القاضي أحمد بن الزبير^(٥) :

وَمَا لِمَاقِي لَا تَقْضِي شَأْنُونَهَا نَجِيعاً عَلَى قَدَرِ الْمَصِيبَةِ أَحْمَرَا
فَوَ اللَّهِ مَا تَقْضِي الْمَدَامَ بَعْضُ مَا يَحِقُّ وَلَوْ كَانَتْ سَيُولاً وَأَبْحَرَا
والوزير الشاعر ابن الجياب يؤكد هذا المعنى نفسه في رثائه ابن الزيات الكلاعي^(٦)

(١) هو أبو عبد الله محمد بن علي بن أحمد الخولاني المعروف بابن الفخار الألبيري ، كان إماماً أعلام البصريين من
النهضة في عصره . وشارك في غير العربية من قراءة وفقه وعروض وتفسير ، أخذ عنه خلق كثيرون ، أنظر
ترجمته في المقرئ نفح الطبل ٣٥٥/٥ ، السيوطي بغية الوعاة ١٧٤/١ ولسان الدين الإحاطة ٢٣١ .

(٢) لسان الدين ، الإحاطة ، ٣٧/٣ / وردت ترجمته ص ٢٢ .

(٣) لسان الدين ، الإحاطة ، ٢٢٢/٣٠ .

(٤) هو أحمد محمد بن أبي جبل المغافيري الأندلسي ، يكنى أبو جعفر ويعرف بابن أبي جبل ، علماً من أعلام الشعر
في عصره (ت ٧٢٦هـ) ، أنظر ترجمته عند : ابن حجر ، الدرر الكامنة ، ٢٧٧/١ ، لسان الدين ، الكتيبة
الكامنة ، ١٠٧ ، أوصاف الناس ، ٣٦ .

(٥) لسان الدين ، الإحاطة ، ٢٠٠/١ .

(٦) هو أبو جعفر أحمد بن الحسن بن علي الكلاعي المعروف بابن الزيات من أهل مالقة كان صوفياً وقوراً ، خطيباً
قديراً (ت ٧٢٨هـ) ، أنظر ترجمته عند لسان الدين ، الكتيبة الكامنة ، ص ٣٤ ، والإحاطة م ٢٨٧/١ وما بعدها .

قائلاً^(١):

فما الدمع قاض حقه لو تمدد
على مثله خصا به الدهر فاجع

سحاب نجيع فيضها متتابع
تفيض نفوس لا تفيض المدامع

ويقول ابن الجياب في رثائه للخطيب أبي الحسن بن فضيلة بأن البكاء حق له
لاتصافه بصفات جليلة قل أن يتصف بها أحد^(٢):

حُقَّ أن نبكي الثقي والفضلاً
إذ أصابت أيدي المنية فضلاً

ونريق الدموع حزناً على من
لم يُخلف في الدين والعلم مثلاً

أما أبو عبد الله الجنان فيخاطب أولاد استاذة المرثي سهل بن محمد الأزدي^(٣)
ليصور موته فجيلة لم يصب الناس بمثلها^(٤):

مصاب مصيب للقلوب سيّد
رمى عن قسيّ لليالي عواتك^(٥)

وتعزى الشعراء عن مصابهم حين تحدثوا عن الدنيا، ووصفوها بالأفعى التي
تخدع الإنسان ويتجلى هذا المعنى في قول أبي الحسن الوراد في رثائه لمحمد بن أحمد
الأمي المعروف بالقطان إذ قال^(٦):

أعد لها درياق صبرك إنها
من البؤس والتلوين والله أرقم

(١) ابن الجياب، ديوان ابن الجياب، ص ٣٢٥.

(٢) ابن الجياب، ديوان ابن الجياب، ص ٥١٩.

(٣) سهل بن محمد الأزدي، صنف في العربية، وله تعاليق في أصول الفقه، وهو شاعر أيضاً (٦٣٩هـ) أنظر ترجمته عند: لسان الدين، الإحاطة، م ٢٧٧/٤.

(٤) لسان الدين الإحاطة، م ٢٨٨/٤.

(٥) عتاك: كر، انظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة عتاك.

(٦) لسان الدين، الإحاطة، م ٢٤٣/٣.

وتعزى الشعراء عن موتاهم حين تحدثوا عن مشكلة الحياة والموت ومتاع الحياة الزائل ومن ذلك قول الشاعر عبد الكريم القيسي^(١) في رثائه للكاتب محمد الأزرق إذ قال^(٢):

والعيش في الدنيا كأحلام الكرى تبذوله في النوم مهما يطرق
وحقيقة الأشياء مثل مجازها فالموت فيها عند كل محقق

فعلام نكثر من تعلقنا بها وبها السليم العاقل لم يعلق
لقد لجأ الشعراء للنأسي عن مصابهم ولتخفيف وطأته في نفوسهم ونفوس الآخرين إلى التعزي وتنوعت طرقهم في العزاء ومنها النأسي بموت الرسول - عليه الصلاة والسلام - ويعبر ذلك الشاعر الورداد في قوله^(٣):

هو الموت لا ينفك للخلق طالبا يروح ويغدو كل حين عليهم
وما هو إلا الداء عز دواؤه فليس شيء في البسيطة يحسم
دها كل مخلوق فما منه سيّد له الجاه عند الله ينجو فسلموا
ولو كان ذا كان النبي محمد تجنّب به صلّوا عليه وسلّموا

وصور الشعراء الموت عادلاً يساوي في الحكم بين البشر جبانهم وشجاعهم قويهم وضعيفهم ومن ذلك ما عبر عنه الشاعر عبد الكريم القيسي إذ قال في رثاء ابن الأزرق :

لكنه الموت الذي لا مهرباً عنه لحي عاقل أو أحمق

(١) عبد الكريم بن محمد القيسي ، شاعر أندلسي عاش في القرن التاسع الهجري ، أنظر : مقدمة ديوان عبد الكريم القيسي ، ص ٧-١٥ .

(٢) عبد الكريم القيسي ، ديوان عبد الكريم القيسي ، ٤٠٣ و ٤٠٤ .

(٣) لسان الدين ، الإحاطة ، ٢٤٤/ ٣ .

(٤) عبد الكريم القيسي ، ديوانه ، ٤٠٣ .

فشجاعهم من ذعره . كجبانهم وجبانهم من خوفه كالخرنق^(١)

وهي الحياة الى الممات مآلها والجمع فيها مُعَقَّبٌ بتفرق

إن الأمثلة على تعزي الشعراء، في قصائد رثاء العلماء والأدباء كثيرة،
وسنكتفي بما أوردناه^(٢).

وقد ربط بعض الشعراء بين موت الشخصية الثقافية، وبين الحديث النبوي
المتضمن رفع العلم بقبض أرواح العلماء^(٣)، فالشاعر ابن الجنان يوضح أن إهلاك الله
سبحانه للعلوم يكون بإهلاكه لأهل العلم، ولا يبارك الله في الدهر الجهول، لأن العلم هو
روح الإنسان، وإذا خرجت الروح فلا يتماسك الجسم^(٤):

أما قد علمنا والعقول شواهدٌ بأن انقراض العلم أصل المهالك

إذا أهلك الله العلوم وأهلها فما الله للدهر الجهول ببارك

هل العلم إلا الروح والخلق جثة وما الجسم بعد الروح بالمتماسك

والمعنى نفسه يورده الشاعر أبو الحسن الوراد في قصيدته في رثاء القطان^(٥):
وهل كان إلا رحمة عاد فقّدها علامة فقّد العلم والله أعلم

(١) الخرنق : ولد الأرنب، ابن منظور، لسان العرب ، مادة خرق .

(٢) للمزيد من الأمثلة أنظر: لسان الدين، الإحاطة ٣٧/٣ و ٢٨٩/٤ و ١٥٣/٣ المقرئ نفح الطيب ٦
/٢٠٢، وابن الجياد، ديوان ابن الجياد ص ٣٢٨.

(٣) عن عبد الله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنهما - قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه
وسلم ، يقول : " إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من الناس ولكن يقبض العلم بقبض العلماء ،
حتى إذا لم يبق عالماً ، اتخذ الناس رؤوساً جهالاً ، فسئلوا ، فأفتوا بغير علم ، فضلوا وأضلوا " متفق
عليه رواه البخاري ١٧٤/١ و ١٧٥، ومسلم (٢٦٧٣).

(٤) الإحاطة م ٢٨٧/٤.

(٥) المصدر نفسه م ٢٤٤/٣.

وتجدر الإشارة إلى أن الشعراء ذكروا مناقب العلماء في ذلك العصر ممتزجة بالصفات الدينية وذلك لموسوعية معرفتهم، وارتباط العلم بالدين، عدا عن كونها مملكة مواجهة مع أعداء اتخذوا من العنصرية الدينية محركاً لشعوبهم لقتال المسلمين.

ولا ننسى ارتباط بعض المناصب كالخطابة أو القضاء بالدين الإسلامي، وكان العلماء يشاركون في مجالس العلم مهما علت مناصبهم، لذا تحدث الشعراء عن الآثار الناجمة عن موت العلماء والأدباء على الناحيتين العلمية والاجتماعية. وألقوا الضوء على تأثير المجتمع بموتهم وتحسره عليهم وبرزت هذه المعاني عند أبي الحسن الوارد في رثاء العالم (القطان) إذ يقول^(١):

تردّي فأردى فقدّه أهل ريّة فما منهم إلا كئيبٌ ومُغرمٌ

عدا أهلها من فجعة بمصابه وعيشهم صابٌ قطيعٌ وعلقمٌ

وهل كان إلا والد مات عنهم فيا من لقوم يُتموا حين أو يتم

وقد عبر الشعراء بلسان مجتمعهم الذي يعيشون فيه ويعتبرون مرآته، فبينوا أن أحد أسباب حب الناس للعلماء هو اتصافهم بمناقب جليلة من صدق وتواضع، ورأفة، وعطف، ويوضح ذلك قول أبي الحسن الوارد في رثاء محمد القطان: ^(٢)

أفادهم من كل علم لبابه وفهمهم أسرارهم فتفهموا

أبان لهم طرق الرشاد فأقدموا وحذرهم عن كل غي فأحجموا

فقيه نزية زاهد متواضع رؤوف عطوف مشفق مترحم

يوذ لو أن الناس أشرى جميعهم فلم يبق مسكين ولم يبق معدم

(١) الإحاطة، م ٢٤٤/٣.

(٢) الإحاطة، م ٢٤٤/٣ و ٢٤٥.

يُودُ لو أنَّ اللهَ تَابَ على الوَرَى فتابوا فما يَبْقَى من الكلِّ مُجْرَمُ

أما ابن الجباب فيدخل الى تعداد مناقب أبي بكر الساحلي عن طريق الاستفهام الاستتكري مع التكرار ، فيبدو غير مصدق لنبا موت الساحلي العالم القدوة المغيـث الذي يتصف بالحكمة والتمكن من علمه ^(١):

أحَقَّا فَقَدْنَا القُدوةَ العلمِ الذي غَدَانَا ورَبَّانَا بصِيرَا بِنَا طَبَا

أحَقَّا فَقَدْنَا غَوَّثَنَا وصرِيخَنَا إِذَا مَا دَعَوْنَاهُ لِحَادِثَةِ لَبَى

أحَقَّا فَقَدْنَا بحرِ علمٍ وحكمةٍ يَفِيضُ عَلَيْنَا علمُهُ لَوْلَا رَطْبَا

وصور الشعراء حزن الأماكن التي كان يؤدي فيها العلماء شعائرهم الدينية فوردت صورة المسجد وصورة المنبر وهي تبكيهم وتحن إلى صلواتهم ويتجلى ذلك في قول ابن الجباب في رثاء أبي بكر الساحلي إذ يقول ^(٢):

قَضَى الخَاشِعُ القَوَامُ يَشْهَدُ لَيْلَهُ على النُومِ لم يُكْحِلْ لأَجْفَانِهِ هُذْبَا

وفي خدمة المختار أفنى زمانه رآه بعين القلب حقاً فلا حُجْبَا

بكى مسجداً أسست بنيانه على قواعد للتحقيق تُرضي بها الرِّبَا

بكى المنبر المشهود بالخطب التي صدعت بها نوراً ضربت بها عَضْبَا

واستغرق الشاعر أبو عبد الله بن الجنان ستة عشر بيتاً من مرثيته لتعداد خلال استاذة (سهل بن محمد الأزدي)، فبين زهده وحسن مقالته وخطبه وكتاباتة واحياءه الليل

(١) ديوان ابن الجباب ، ص ١٥٣ و ١٥٤ .

(٢) ديوان ابن الجباب، ص ١٥٤ و ١٥٥ .

بقراءة القرآن، وبراعته في العلوم الدينية، وهو يدفع عن الشرع من يريد به خفضاً
ونقتطف من تلك المراثية الأبيات التالية^(١):

وَمَنْ لِلشَّرْعِ يَرْفَعُ خَفْضَهُ وَيَمْنَعُ مَنْ تَمْزِيقَهُ كَفَ هَاتَكَ
وَمَنْ لِكِتَابِ اللَّهِ يَدْرُسُ وَحْيَهُ وَيَقْبِسُ مِنْهُ النُّورَ غَيْرَ مُتَارِكِ
وَمَنْ ذَا يُزِيلُ اللَّبْسَ فِي مُتَشَابِهِ وَمَنْ ذَا يُزِيحُ الشُّكَّ عَنْ مُتَشَابِكِ
وَمِنْ آيَةٍ تَبْكِي بَنُورَ صَبْحِهَا إِذَا قَامَ فِي جَنَحٍ مِنَ اللَّيْلِ حَالِكِ

وبين الشعراء أثر موت العلماء والأدباء على مجالس العلم التي أصبحت قفراً
وباب العلم الذي أغلق ويتضح هذا في قول محمد بن عبد الله اللوشي في رثاء ابن
الفخار محمد الخولاني إذ يقول^(٢):

أُسْتَاذُنَا كُنْتَ الرَّجَاءَ لِأَمَلٍ فَأَصْبَحْتَ مَهْجُورَ الْفَنَاءِ لِقَاصِدِ
فَلَا تُبْعِدُنْ شَيْخَ الْمَعَارِفِ وَالْحُجَا وَلَيْسَ الَّذِي تَحْتَ التُّرَابِ بِبَاعِدِ
لِيَبْكُ عَلَيْكَ الْجُودُ وَالذِّينُ وَالنُّقَا وَحَسِبُ الْبَكَاءَ أَنْ صُرْتُ مَلْحُودَ لَاحِدِ
أَمْوَلَايَ مِنْ لِلْمَشْكَلَاتِ يُبَيِّنُهَا فَيُجْلِي عَمَى كُلِّ الْقُلُوبِ الشَّوَاهِدِ
وَكَيْفَ وَبَابُ الْعِلْمِ بَعْدَكَ مُغْلَقٌ وَمَوْزِدُهُ الْمَتْرُوكُ بَيْنَ الْمَوَارِدِ

وتجدر الإشارة إلى أن كثيراً من الكتاب قد اتقنوا فن البلاغة، واستطاعوا من
خلال وظائفهم في الدولة أن يردوا على رسائل الأعداء ببراعة فقد كانوا مجاهدين

(١) الإحاطة ، م ٤/٢٨٨.

(٢) الإحاطة ، م ٣/٣٧.

بأقلامهم ومن أولئك الأدباء محمد الأزرق وقد رثاه عبد الكريم القيسي مبيناً المعاني السابقة إذ قال ^(١):

ما غاص في بحر البلاغة فكره
إلا أتى بالسحر مما ينتقي
نظم كنظم الدر إلا أنه
أبها وأبهر عند كل محقق
أغنى الملوك عن الكتائب كتبه
قد جاهد الأعداء منه بفيلق
لدواته خط قويّم شكله
للحسن في ترتيبه لم يسبق
وله محيا حسنه وحيأوه
جالا معاً في مائه المترق

وصور الشعراء الإسلام يبكي علماءه، وأنه بموتهم قد تصدعت أحكامه، ويتجلى ذلك في قول الشاعر أبو عبد الله محمد بن الجبير ^(٢) في رثاء الفقيه محمد السرقسطي ^(٣) إذ قال ^(٤):

بكتك رسوم الدين يا أوحّد العليا
ونورك لما غاب أظلمت الدنيا
لئن صدع الإسلام فيك فطالما
صدعت أحكام الشريعة والفتيا
وصور الشعراء العلم ضائعاً بعد موت العلماء، فلقد أثر موتهم على الناحية العلمية ومن ذلك قول ابن أبي جبل في رثاء ابن الزبير ^(٥):

تحرى كتاب الله شغلا فلم يزل
مقيماً عليه رائحاً ومبكراً

(١) ديوان عبد الكريم القيسي، ص ٤٠٢ و ٤٠٣.

(٢) هو أبو عبد الله محمد بن الجبير اليحصبي، ذكره السخاوي من شيوخ ابن الأزرق الضوء اللامع:

٢١/٩، والمقري في أزهار الرياض ٣/٣٠٢-٣٠٥.

(٣) محمد بن محمد السرقسطي الأنصاري أبو عبد الله، فقيه (ت ٨٦٥هـ) ولغوي أنظر: رحلة القلصادي، ١٦٤ أو ١٦٥.

(٤) رحلة القلصادي، ص ١٦٥.

(٥) الدرر الكامنة، ج ١/٢٧٧.

مَتَى جَنَّتْهُ الْفَيْتَةُ مُتَلَبِّسًا بِهِ تَالِيًا أَوْ مَقْرَنًا أَوْ مَفْسِرًا
فَوَا أَسْفًا لِلْعِلْمِ ضَاعَتْ فُنُونُهُ وَأَمْسَى مِنَ التَّحْقِيقِ مُنْفَصِمَ الْعُرَى

وقد نهج الشعراء طريقين للدعاء لمرثيهم من العلماء والأدباء، أولهما: السير على نهج الشعراء في العصر الجاهلي ويتمثل بالدعاء لقبر الميت بالسقيا وهذا النهج أصيل وقديم في بناء قصائد الرثاء، وثانيهما: منذ مجيء الإسلام أصبح الدعاء للميت بسحب من رحمة الله تسقي قبره وتمد روحه بالمغفرة وقد جاءت تلك الدعوة في أماكن شتى من مرثي العلماء والأدباء ومن ذلك قول ابن الجياب في مرثية أبي بكر الساحلي^(١):

عَلَى السَّيِّدِ الْمَفْقُودِ طَيِّبُ رَحْمَةٍ تَبَوَّئُهُ فِي الْجَنَّةِ الْمَنْزِلَ الرَّحْبَا
وَأَنَا لِنَرْجُو أَنْ نَلَاقِيَهُ غَدَا عَلَى الْحَوْضِ يَسْقِينَا بِهِ الْكَوْثَرَ الْعَذْبَا
وَيَشْفَعُ فِينَا لِلرَّسُولِ شَفَاعَةً فَنَسْحَبُ أَذْيَالَ النِّعَمِ بِهَا سَحْبَا

والدعاء بالرحمة والسلام استمدها الشعراء من المعاني والصور التي وردت في القرآن الكريم والسنة المشرفة، ولاعتقاد الشعراء بانتفاع الموتى بالدعاء فهذا الشاعر أبو عبد الله بن الجنان يخص سهل بن محمد الأزدي برحمة وسلام إذ يقول^(٢):

فِيَا رَحْمَةً الرَّحْمَنِ وَافِي جَنَابِهِ وَيَا رُوحَهُ سَلِّمْ عَلَيْهِ وَبَارِكْ

ومثله الشاعر الوراد في رثاء (محمد الأمي) المعروف بالقطان^(٣):

عَلَيْهِ مِنَ الرَّحْمَنِ أَوْسَعُ رَحْمَةٍ فَقَدْ كَانَ فِينَا الدَّهْرُ يَحْنُو وَيَرْحُمُ

(١) ديوان ابن الجياب، ص ١٥٦.

(٢) الإحاطة، م ٢٩٠/٤.

(٣) الإحاطة، م ٢٤٥/٣.

وأثر الشاعر محمد اللوشي أن يدعو لاستأذه اللغوي محمد الخولاني المعروف
بابن الفخار بالسقيا بالغوادي الصادقات الرواعد فقال ^(١):

عليك سلام الله ما دامت الصبا بغصن في الأراكاة ما يد

ويا حفرة خطت له اليوم مضجعا سقتك الغوادي الصادقات الرواعد

وكذا القاضي أبو بكر بن شبرين في دعائه للمرثي محمد بن علي السبتي فقد
قال ^(٢):

جاءت صدك غمامة يُروى بها ذاك الصبي

وتعهدت من المهيب من رحمة أبدا وجود

والقاضي أبو القاسم الحسني ^(٣) يدعو للسبتي في مطلع مرثيته بالسقيا بعد أن
مات السبتي شهيدا بحجر منجنيق أصابه أثناء حصار القشتاليين للجزيرة الخضراء ^(٤):
سقى الله بالخضراء أشلاء سودد تضمّنهنّ التراب صوب الغمام

ويته الشاعر عبد الكريم القيسي إلى الله طالبا منه أن يؤمن قاضي بسطة ابن
مفضل من خوفه وأن يرحمه يوم الحساب من العقاب - وفي ذلك إشارة إلى عدم رضا
الشاعر عن بعض الأحكام التي كان يصدرها ابن مفضل - ^(٥) فالقيسي يقول ^(٦):
يا رب أمن خوفه وارحمه في يوم الحساب

(١) المصدر نفسه م ٣/٣٧ و ٣٨.

(٢) المصدر نفسه م ٣/١٥٤.

(٣) وردت ترجمته في التمهيد، ص ٢٠.

(٤) الإحاطة، م ٣/١٥٢ ونفح الطيب ج ٦/٢٥١.

(٥) انظر: لتعريض الشاعر بأحكام القاضي ابن مفضل في ديوان عبد الكريم القيسي، ص ٢٤٣ و
٢٤٥.

(٦) ديوان عبد الكريم القيسي، ص ٣٤٢.

وقبـه إذا قام الـورى للـررض مـخـذور العـقاب

ويختلف الأمر عند دعائه للكاتب محمد الأزرق، فيطلب من الله رحمة طيبة
زكية تخص ابن الأزرق بزيارة في قبره ترضي أصدقاءه الأحياء منهم والأموات، كما
ويدعو تلك الرحمة أن تنزل مطراً معطراً سكوباً على قبر الكاتب ابن الأزرق لتوافق
دموعه التي أصبحت دماً^(١):

يا رحمة الله التي نفحاتها في الطيب فوق المسك للمستنشق

خصية منك بزورة ترضي بها من مات من إخوانه أو من بقي

واستمطري العطر السكوب لقبره مع دم عيّن الواكف المذقق

ويبسط الشاعر أبو عبد الله محمد بن الجبير يديه إلى الله داعياً ومناجياً بأن
يرحم السرقسطي وينزل على مثواه الغيث والرحمة فيقول^(٢):

وقد بسطوا أيدي الدعاء وبقولهم مناجين رب العزة الواحد الحيا

على السرقسطي الرضى منك رحمة تعود على مثواه بالغيث والسقيا

(١) ديوان عبد الكريم القيسي، ص ٤٠٤.

(٢) رحلة القلصادي، ص ١٦٥.

رثاء الشهداء:

للسهداء مكانة عالية عند الله وعند الناس، ومكانتهم تتوقد في كل عصر من عصور الأدب العربي، لأنهم أحياء عند ربهم، وأحياء في ذاكرة أسرهم، وأحبائهم، وربما كانت قصائد رثائهم قليلة في هذا العصر، لاعتقاد المسلمين أن الشهداء أحياء والحي لا يرثى، ولأن مملكة غرناطة اعتادت تقديم الشهيد تلو الآخر في معاركها التي لم تنته حتى بعد سقوطها.

ويدخلنا الملك الشاعر يوسف الثالث في أجواء رثاء القادة العسكريين من خلال رثائه لقائده، وصهره مفرج^(١) بمخمسة عبّر فيها عن حزنه، وافتقاده لذلك القائد الذي قضى شهيداً مع كوكبة من جنده دفاعاً عن مملكة غرناطة .

وقد بدأ الملك الشاعر الخمسة بتصوير لغروب نجوم السماء، واحمرار للأفق وكأن قطرات الدم قد تساقطت من جفون الأفق، وقد شكّل بهذا التصوير مدخلاً ذكياً لقصيدة في رثاء شهيد انتهت حياته في معركة دامية حيث يقول^(٢):

أما عجباً أن غربت أنجم السما وكنا عهدناها تروقُ تؤسما

فيا جيرة قد يمموا أجرع الحمى سلوا الأفق الشرقي مما تجهما

ولم قطرتُ أجفانُ مقلته دماً

وفي محاولة من الملك الشاعر للموازنة بين الشعر العربي التقليدي، ومجازاة لفنون عصره الشعرية، يقف الشاعر على الأطلال، متسائلاً عن الراحلين في مخمسة عكس فيها حزنه على الطبيعة، فبدت رياضها ذابلة ، وتوقفت رياح الصبا عن هبوبها^(٣):

وقفنا به ربعا شجبتا طولوه نسائل ركب الخيف أين حلولة

وأين صباه لدنة وقبولة ورّيان ذاك الروض ممّ ذبولة

(١) انظر: مقدمة ديوان ابن فركون ، ص ٣١-٣٨.

(٢) ديوان ملك غرناطة ، ص ١١٨.

(٣) المصدر نفسه ، ص ١١٨.

ومنظومُ ذاكِ الشَّعرِ ممَّ تلتما

ويبين الملك الشاعر أن مورد الشهادة عذب لشاربه، والشهداء بجوار الله
مُكرمين في مكانة رفيعة استحقوها لموتهم في سبيله، فالشهادة مغنم، ويلاحظ أن يوسف
الثالث قد تحدث عن مجموعة شهداء في الخمسة من ضمنهم القائد مفرج فهو يقول^(١):
لئن قادهم يوماً إلى الحتف مصرع وأوردهم للمورد العذب مشرع

لهم في جوار الله حزب مرفع كراماً تساموا والأسنة شرع

ألا في سبيل الله ذخراً ومغنماً

ويختتم يوسف الثالث مخمسته ببيان أن اسلحة المجاهدين بعد استشهادهم قد
نُهبت، إذ قال^(٢):

قضوا فئة طوع الجهاد رئيسة حوت أثراً مسموعة ومقيسة

فإن أصبحوا نهبا وعادوا فريسة فما بذلوا إلا نفوساً نفيسة

ولم يقصدوا إلا الجناب المكرما

وفي عام (٨٥٦هـ) كانت معركة لورقة التي هُزم فيها المسلمون وكان عددهم
ألفاً وخمسمائة رجل بقيادة ابن عبد البر، فنظم القيسي خمسة مؤثرة مشحونة باللوعة
والأسى والمرارة صور فيها وقع الهزيمة المرّ على نفوس الأندلسيين^(٣):

لمصاب أندلس تصوب الأدمع ولما جرى فيها تذوب الأضلع

فلها مع الأعداء حال تفرغ تقضي بحسرة من يرى أو يسمع

(١) المصدر نفسه، ص ١١٩.

(٢) نفسه، ص ١١٩.

(٣) عبد الكريم القيسي، ديوان عبد الكريم القيسي، ص ١٧٤.

وتكاد مهجته له تتصدغ
فقد أحال عدوها أحوالها
حين الخطوب أذاقها أهوالها
وأفاض في أقطارها إذلالها
يوم العروبة كان فيه المصراع
والشاعر يثني على المجاهدين الشهداء منهم أو الأسرى الذين لم يفدوا، مع أن
المعركة انتهت بهزيمتهم وذلك لأنه موقن أنهم بذلوا وسعهم أمام عدو يفوقهم عددا
وعدة^(١) :
ذهب الجميع مجاهدين كما ابتغوا
وحسوا هناك من الشهادة ما حووا
ماذا نكوا أعداءهم ماذا نكوا
ولربما منهم أسارى ما افتدوا
كم أمرضوا من خاطر كم أوجعوا

إن لجوء الشاعرين للتخمين يعطي دلالة على حاجتهما لتنويع القافية لبث
الآهات الحزينة وبأكثر من حرف، كما أن الانكسار واليأس واضح في الخمستين
لأسيما في خمسة القيسي فقد نظمها وقد أشرفت غرناطة على السقوط، ومع أننا لا
نستطيع أن نطلق حكماً عاماً على قصائد رثاء الشهداء في عصر بين الأحمر بناء على
مخمسيتين فقط، لكننا نلاحظ أنهما لم تشتتلا قوة وحماسة كما يفترض في قصائد لشهداء
دولة مستهدفة ومحاصرة من قبل أعدائها. كما أن معانيها تقليدية لا جديد فيها سوى
تعبيرها عن واقع الأندلسيين المرير في ذلك العصر.

(١) نفسه، ص ١٧٤.

الفصل الثالث

اتجاهات اخرى في الرثاء

إتجاهات أخرى في الرثاء :

١- رثاء الجواري والغلمان:

إن للجواري عامة، وللمحظيات خاصة حظاً في رثاء الشعراء، فقد شكلن جزءاً من المجتمع الإسلامي آنذاك، وكانت العلاقة بهن أمراً مألوفاً، هذا ولم أقع في استقصائي على نصوص لرثاء الجواري في عصر بني الأحمر إلا على خمسة لابن زمرك في رثاء (عشق) حظية السلطان أبي العباس أحمد المريني^(١)، ومقطوعة للسان الدين في رثاء مملوك.

وقد تحدث ابن زمرك في الخمسة ناطقاً بلسان السلطان أبي العباس، مصوراً حزنه العظيم، وذرفه للدموع الغزار على (عشق)^(٢):

أيا صاح رفقاً ما حديثي مفترى لنفسي على نفسي رقيبٌ قد أنبرى

أبتك حتى دمعى المتحدراً (إذا زارني الطيف الملم مع الكرى)

(تهيب بحراً من دموعي مزبداً)

لم يعد الشاعر يحس بالسعادة فقد وهب للشقاء نعيمه، وجافاه النوم فعيونه مشغولة بالبكاء لإطفاء نيران بعده عن (عشق) فقلبه لا يسلو بعدها، وحبها لها ما زال يتجدد حتى بعد موتها^(٣):

وهبت نعيمي في الغرام لشقوتي فجفني لم يطعم مذاقاً لغفوتي

ودمعي ما تطفئه نيران جفوتي (أيا عشق قلبي لا يقر بسلوتي)

أيا عشق حبي لا يزال مُجدداً

ومن اللافت للنظر، دوران الشاعر حول معنى واحد في مخمسته وهو بيان حزن السلطان، وتعاسته، وأرقه، وكثرة البكاء، وعدم السلوان للفقيدة (عشق) دون ذكر لمناقبها وفضائلها التي جعلت منها حظية لسلطان .

(١) هو السلطان أبو العباس أحمد بن سالم المريني ملك المغرب، بويغ له سنة ٧٧٦هـ لقب بذي الدولتين، لأنه ولي الملك مرتين، أنظر: الناصري، ج ٤/٦١-٨٩.

(٢) ابن زمرك، ديوان ابن زمرك، ص ٣٣٢.

(٣) المصدر نفسه، ص ٣٣٢.

ومن الملاحظ أن ابن زمرك ختم مختمته بالقسم بالله القادر على إخراج حي
النبات من ميت النوى، على أنه لن ينسى (عشقا) ولن يجد السلوان عنها، فحزنه يزداد
مع مرور الوقت، وذكر الشاعر لصفتي الله، المحيي والمميت في قصيدة رثاء لفئة
مناسبة لختم مختمته^(١):

وَحَقَّ الَّذِي يَجْزِي الْمَحَبَّ بِمَا نَوَى وَيَسْقِيهِ كَأْسَ الدَّمْعِ حِيناً وَمَا اكْتَوَى
وَيُخْرِجُ حَيَّ النَّبْتِ مِنْ مَيِّتِ النَّوَى (لقد مرّ لي عشرون حولاً على النوى)

(وما ضرب السلوان لي فيك موعداً)

ولم أجد في استقصائي لرثاء المماليك في عصر بني الأحمر إلا بيتين قالهما
لسان الدين بن الخطيب بديهة على قبر (يزيد) مملوك سلطانه^(٢).
واستطاع لسان الدين بن الخطيب في تلك المقطوعة أن يتخذ من اسم المملوك
وسيلة ليصنع منه تورية، ويبرز قدرته على التلاعب بالألفاظ، إذ يقول معزياً
سلطانه: ^(٣):

هَوْنٌ عَلَى النَّفْسِ النَّفِيسَةِ أَمْرُهَا وَإِذَا سَلِمَتْ فَلَا تُرْعُ لِفَقْدِ
لَمْ يَأْتِ صَرْفُ الدَّهْرِ بَدْعاً مُحْدَثاً كَمَ مِنْ "يَزِيدٍ" قَدْ مَضَى وَ"يَزِيدٍ"

(١) المصدر نفسه، ص ٣٣٢.

(٢) عاصر لسان الدين السلطان أبا الحجاج بن السلطان أبي الوليد بن نصر ثم ولده السلطان الغني
بالله، ولم يحدد لسان الدين أيهما ملك (يزيد) أنظر: لسان الدين، ديوان لسان الدين، م ٣١٨/١.

(٣) لسان الدين، ديوان لسان الدين، م ٣١٨/١.

رثاء الحيوان :

لقد عرف الشعر العربي هذا النوع من الرثاء على مدى عصوره الأدبية المختلفة، فهو غرض له أهمية خاصة لأنه يعبر أحياناً عن رثاء خالص لحيوان أليف عز فقده على مالكه، فحزن لموته حزناً قد لا يقل عن حزنه على موت إنسان وقد يكون في أحيان أخرى معبراً عن أوضاع اقتصادية أو نفسية أو سياسية للشاعر أو لمجتمعه . فما وضع رثاء الحيوان في عصر بني الأحمر تحديداً ؟ وماذا يمثل ؟ وماذا يمكن القول عن رثاء القيسي لخروفه؟ ورثاء الأزدي لديكه؟ هذا ما سنحاول الإجابة عنه من خلال مناقشة القصيدتين الممثلتين لرثاء الحيوان في عصر بني الأحمر.

ولنبداً برثاء الشاعر عبد الكريم القيسي لخروفه الذي ما فتئ الشاعر يرعاه ويطعمه حتى غدا كثير اللحم والشحم وله قرنان رائقان، ومع ذلك يقتله الهم والغم، فيفقد الشاعر أنسه وصبره مع فقده لخروفه فيصيح قائلاً^(١):

أي أنس بل أي صبر ألوف يرتجي مثلي بعد موت الخروف

ولقد كان لي ضحية عيد ذات قرنين رائقين وصوف

كم شعير أطعمته مع فول كله مُحَكَّم وكَم من رغيف

مات غمّاً إذ كان صاحب لحم وعلى ذي الشَّحم اعتدأ شُفوف

ثم يرزق في الغداة بكبش جميل الشكل ، لكن الموت يغتاله أيضاً كما اغتال الخروف الذي قبله، وتعظم حسرة الشاعر وأمه، ويبتئس عيشه ويتنكد عيده فيقول^(٢):

فأصابتُ الغداة منه بكبش حسن الوجه في الكبش ظريف

لهف نفسي والهف نفسي عليه ألف لهف مضافة لألوف

(١) عبد الكريم القيسي، ديوان عبد الكريم القيسي، ص ١٦٤.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٦٤.

أيُّ عيشٍ يطيبُ لي بعده أو أيُّ عيدٍ - تراه عيني - شريف
بأن عني وحمل القلب حزناً دائماً ليس حملاً بالخفيف

وتحوم الذكرى في خاطر الشاعر ويستحضر صورة ذلك الخاروف الذي يسرع
في تلبية ندائه، ويمرح بخفة ورشاقة فيزيد بكاءه ويقول^(١):
كيف لا أكثر البكاء عليه ولكم لبي دعوتي ذا خفوف

فمصائب الشاعر بفقد أضحيتين مصاب جل ومخيف، لذا احتسب ما فقد عند الله
تعالى، بعد أن بكى وانتحب لأجل ما فقد، والشاعر كان مستعداً لفداء خروفيه بما له
الموروث والمكتسب، لكنه موقن أن لا مساومة في الأجل^(٢):

حسبي الله من مصابي عليه فهو حسبي لكل خطب مخوف

لو تأتني فداؤه لفدينا ه بتالد ما لنا والطريف

لكن الموت ما لنا منه بُدُّ كل نفس تذوق كأس الحتوف

ويختتم قصيدته بأمل أن يخلف الله الرؤوف عليه بخروف سمين فيقول^(٣):
وأنا في إخلافه بسواه واثق القلب بالإله الرؤوف
فعسى أن يمن لي بسواه غير غث وغير جسم نحيف

(١) عبد الكريم القيسي، ديوان عبد الكريم القيسي، ص ١٦٤ و ١٦٥.

(٢) نفسه، ص ١٦٥.

(٣) نفسه، ص ١٦٥.

هذا، ونكاد نلمح في قصيدة عبد الكريم القيسي، ومن خلال بعض القرائن ما يدل على أن هذه القصيدة عكست الوضع النفسي المتأزم للشاعر، ناهيك عن وضعه الاقتصادي المتردي .

ويبدو أن الشاعر قد اتخذ رثاء الخروف وسيلة للإفصاح عن حالته النفسية والاقتصادية في مجتمع يعاني من صراعات سياسية وانتشار للفقر والظلم لذا عبر الشاعر عن فقره، وفقر آخرين يرتجون التشبث بخروف يشبع معدهم الخاوية وأطفالهم في يوم عيد، لذا نجد الشاعر قد فقد أنسه وصبره بعد موت الخروف وقال^(١):

أي أنس بل أي صبر ألوف يرتجي مثلي بعد موت الخروف

كما أن الخروف قد مات بالغم ، والغم صفة إنسانية، ولا أخال أن خروفاً يموت غماً ؟ !! فالشاعر مهوم لأحواله الاقتصادية السيئة ولما يرى من أحوال متردية في مجتمعه^(٢).

ولماذا حسرة الشاعر على موت الخروف التي تعدت الألف؟ ولماذا بكى وانتحب مع أخيه على الخروف؟ ولم تنكد عيشه وغدا عيده غير شريف ؟ ولم احتسب الأمر عند الله وكأنه قد فقد إنساناً عزيزاً ؟ ثم يلجأ إلى الله الرؤوف ليعوضه بخروف ثالث! كل هذه الأمور تجعلنا نفكر ملياً قبل الحكم على القصيدة بأنها مجرد رثاء خالص لحيوان .

أما رثاء أب محمد الأزدي^(٣) في رثائه لذيك فقدته، فهو لا يرى له بديلاً ولا عوضاً، فهو أمله الذي يعيش من أجله، وموته شكل عظة له دمعت لها عيناه، فقال^(٤):

أودى به الحتف لما جاءه الأجل ديكاً فلا عوض منه ولا بدل

فقدته فلعمري إنها عظة وبالمواعظ تُذري دمعتها المقل

(١) عبد الكريم القيسي، ديوان عبد الكريم القيسي، ص ١٦٤.

(٢) أنظر : المصدر نفسه، مقدمة ديوان عبد الكريم القيسي.

(٣) وردت ترجمته في رثاء الأباء ، ص ٢٦.

(٤) لسان الدين، الإحاطة ، م ٤٢٤/٣، والمقري ، نفح الطيب ، م ١٠٤/٦ و ١٠٥.

ثم يصف [الديك] بحسن المنظر، فريشه أجمل حُلّه، وتاجه يعلو رأسه بكبرياء، عدا عن صياحه في أوقات مرتبة معلومة لا يكل فيها ولا يمل^(١):

كَأَنَّ مُطَرَفَ وَشْيٍ فَوْقَ مَلْبَسِهِ عَلَيْهِ مِنْ كُلِّ حُسْنٍ بَاهِرٌ خَلَلٌ

كَأَنَّ إِكْلِيلَ كَسْرَى فَوْقَ مَفْرَقِهِ وَتَاجِهِ فَهُوَ عَالِي الشَّكْلِ مُحْتَفِلٌ

مَوَقَّتٌ لَمْ يَكُنْ يُعْزَى لَهُ خَطَا فِيمَا يَرْتَبُ مِنْ وَرْدٍ وَلَا خَلَلٌ

وبعد أن يطرح المرض الديك أرضاً، ويحاول بالدواء مداواته لكن الموت عاجلة، فأثر الشاعر احتسابه عند الله، وفي هذه الأبيات دلالة على اهتمامهم آنذاك بمعالجة الحيوانات ووجود أدوية خاصة بمعالجتها فهو يقول^(٢):

رَأَيْتُهُ قَدْ وَهَتْ مِنْهُ الْقُوَى فَهَوَى لِلْأَرْضِ فَعَلَا يَرِيهِ الشَّارِبُ الثَّمَلُ

قَالُوا الدَّوَاءَ فَلَمْ يَغْنِ الدَّوَاءَ وَلَمْ يَنْفَعِهِ مِنْ ذَلِكَ مَا قَالُوا وَمَا فَعَلُوا

أَمَلْتُ فِيهِ ثَوَاباً أَجْرَ مُحْتَسِبٍ إِنْ نَلَيْتُ ذَلِكَ صَحَّ الْقَوْلُ وَالْعَمَلُ

وأخال أن الشاعر قد كنى عن الديك بفرد من الأسرة الحاكمة (بني الأحمر) أو متنفذ غني في السلطة، فاختيار الشاعر للديك تحديداً يوحي بإشارات للملك منها الناج، والحلل الباهرة ومشية الزهو والكبرياء، فالشاعر لأسباب سياسية - ربما - اتخذ من رثاء [الديك] مطية للتعبير عن رثائه لزعيم سياسي كانت له به علاقة، ولم يستطع الشاعر إعلان رثائه لأسباب ما فلجأ إلى الكناية عنه، فلقد كان الديك أمل حياته الذي تعلق به الشاعر، وربما قصد الشاعر العطاء المالي من ذلك الشخص وبعد موته لم يبق له أمل في استمرار ذلك التدفق المالي وإلا فما هي العظة في موت ديك؟ إنما أشد ما تكون العظة في موت الجبابرة أو المتسلطين أو حتى الأغنياء؟ فهو يقول^(٣):

قَدْ كَانَ لِي أَمَلٌ فِي أَنْ يَعِيشَ فَنَمَ يَثْبُتُ مَعَ الْحَتَفِ فِي بَقِيَاةِ لِي أَمَلٍ

(١) المصدران السابقان، الصفحات نفسها.

(٢) لسان الدين، الإحاطة، م ٤٢٤/٣ و ٤٢٥، والمقري، نفح الطيب، م ١٠٥/٦.

(٣) المصدران نفسيهما.

فقدته فلعمري إنها عظة وبالمواعظ تذري دمعها المقل
 كما أن اهتمام ذوي الرياسة بجمال الملبس أمر معروف، عدا عن الأكاليل
 والتيجان، وذكر الشاعر لأكليل كسرى لم يكن مصادفة ؟ .

ولولا وجود كلمة [ديك] في القصيدة لظن بأنها في رثاء ملك فهو يقول^(١):
 كأن مطرفاً وشي فوق ملبسه عليه من كل حسن باهر خلل
 كأن إكليل كسرى فوق مفرقه وتاجه فهو عالي الشكل محتفل

وقبل ختم الحديث عن هذا اللون من ألوان الرثاء لابد من القول بأن رثاء
 الحيوان ليس جديداً على الأدب العربي، إنما الجديد هو تلك الرمزية والدلالات النقدية
 التي نفذ إليها الشعراء من خلال الألفاظ والصور المستمدة من بيئتهم وواقعهم المعيش
 وقد ظهرت ثقافتهم وبراعتهم الفنية لتقديم صور جديدة في رثاء الحيوان، كما أن
 الحديث عن المصير والقبر والموت والحياة والرحمة والمغفرة قد اختلفت من هذا اللون
 وهذا طبيعي لأن رثاء الحيوان يختلف عن رثاء الإنسان.

(١) نفسيهما .

الفصل الرابع

أ- رثاء النفس

ب- الرثاء على شواهد القبور

رثاء النفس ————— س :

إن شعر رثاء النفس في الأدب العربي عميق الجذور، فهناك شواهد شعرية عليه في الأدب الجاهلي وفي العصور الأدبية العربية المختلفة، فهو اتجاه شعري بث فيه بعض الشعراء ألمهم وربما خوفهم من مواجهة لحظة صعبة على أي إنسان وهي لحظة مفارقة الحياة .

ولكن لماذا يرثي الإنسان نفسه ؟

ربما لأن رثاء النفس محاولة لمواجهة الذات بحقيقة الموت والفناء وربما هو تعبير عن اللوعة والحسرة لفراق الأحبة مع الأمل والرجاء برحمة الله وغفرانه، وقد يكون نوعاً من الاستسلام والاعتراف بالعجز أمام حتمية الموت. وأخال أنها اجتمعت جميعها في نفس لسان الدين عندما رثاها في سجنه وهو يتوقع الموت لا سيما وهو يحمل نفساً عارفة وموقنة بحقيقة الموت وطبيعة الحياة، وكون الموت عظة للأحياء من البشر، وكذلك المقابر وإن علاها الصمت ففيها عظة يراها ويسمعاها من فكر وقدر، فهو يقول^(١):

بَعْدُنَا وَإِنْ جَاوَرَتْنَا الْبُيُوتُ وَجئْنَا بِوَعْظٍ وَنَحْنُ صُمُوتُ

ومن العجيب توقع لسان الدين لنهايته مخنوقاً في سجنه إذ يقول^(٢):

وَأَنفَاسُنَا سَكَتٌ دَفْعَةً كَجَهْرِ الصَّلَاةِ تَلَاهِ الْقُنُوتُ

وأمام لحظة صدق مع النفس قبيل الموت والحزن يملأ الجوارح، يرسم لنا الشاعر صورة واقعية إذ تحين منه التفاته إلى ماضيه ليقارنه مع مصيره المنتظر في القبر فقد كان علماً، عظيماً، كريماً يرفل بأجمل الأثواب، لكنه سيغدو بعد موته عظاماً يقات منها الدود وسيكفن بقطعة قماش، وستنوح عليه السماء التي أنارها بعلمه وأدبه ولا بد أن يفترقه من حوله كما تفتقد الشمس إذا غابت ومن اللافت للنظر استخدام

(١) لسان الدين، الصيب والجهام، ص ٨٦، وديوان لسان الدين ، م ١٨٥/١ والمقري، نفح الطيب م ٥/

١١١، أزهار الرياض ج ١/٢٣١، ابن القاضي ، درة الحجال ج ٢/٢٧٣، لسان الدين، الإحاطة ، ج ٤/

٦٣٧، ابن خلدون العبر . . . ج ٧/٧٠٩.

(٢) المصادر نفسها .

الشاعر لضمير الجمع في التعبير عن ذاته في محاولة لإثبات وجوده وقد أحس باقترب
الأجل والفناء^(١):

وَكُنَّا عِظَامًا فَصَرْنَا عِظَامًا وَكُنَّا نَقُوتُ فَهَا نَحْنُ قُوتُ

وَكُنَّا شَمُوسَ سَمَاءِ الْعُلَا غَرِبْنَ فَنَاحَتْ عَلَيْنَا السَّمُوتُ

ويشير لسان الدين إلى أن كثيراً من البشر وقعوا ضحية لشهرتهم ورفعتهم،
فالسيفوف هي التي تقتل الفرسان، والحظ هو الذي قد يقتل صاحبه، ولسان الدين نفسه
قتله قلمه، وذلك لإدعاء أعدائه أن له أقوالاً فيها زندقة، فبقاء الحال من المحال^(٢)
فلنستمع إليه وهو يقول^(٣):

فَكَمْ جَدَلْتُ ذَا الْحَسَامِ الظُّبَى وَذُو الْبَخْتِ كَمْ جَدَلْتَهُ الْبُخُوتُ

وَكَمْ سَيِّقَ لِلْقَبْرِ فِي خِرْقَةٍ فَتَى مُلِّتٍ مِنْ كُشَاهِ التُّخُوتُ

ولسان الدين متأكد من شماته أعدائه بمقتله ، لذا يذكرهم بحقيقة أن الموت كأس
سيشرب منه الجميع بمن فيهم أعداؤه، ولا شماته في أمر يتساوى فيه الكل وهو بهذا
يعزي نفسه أيضاً لأن الموت لا طاقة لأحد على مواجهته^(٤):

فَقُلْ لِلْعِدَا ذَهَبَ ابْنُ الْخَطِيبِ وَفَاتَ، وَمَنْ ذَا الَّذِي لَا يُقُوتُ

(١) نفسها .

(٢) انظر تفاصيل اتهامه وقتله عند : ابن خلدون ، العبر . . . م ٧٠٧/٧-٧٠٩ ، وانظر : المقرئ ،
أزهار الرياض ج ١/٢٣٠ ، وانظر : عنان ، نهاية الأندلس ص ١٤٥ وما بعدها ، وانظر : لسان الدين
بن الخطيب حياته وتراثه الفكري ص ١٥٠-١٧٦ .

(٣) لسان الدين ، الصيب والجهام ، ص ٨٦ ، وديوان لسان الدين م ١٨٥/١ ابن القاضي ، درة الحجال
ج ٢/٢٧٣ ، المقرئ ، نفح الطيب م ١١١/٥ و ١١٢ ، أزهار الرياض ج ١/٢٣١ ، ابن خلدون ، العبر . .
م ٧١٠/٧

(٤) المصادر نفسها .

وَمَنْ كَانَ يَفْرَحُ مِنْهُمْ لَهُ فَقُلْ : يَفْرَحُ الْيَوْمَ مَنْ لَا يَمُوتُ^(١)

ويطالعنا ابن عسّكر محمد بن علي^(٢) برثاء لنفسه وقد شعر بدنو أجله بهذه الأبيات^(٣):

ولما انقضى إحدى وخمسون حجة كأنني منها بعد كرب أحلم

ترقيت أعلاها لأنظر فوقها مدى الحثف مني علني منه أسلم

إذا هو قد أدنت إليه كأنما ترقيت فيه نجوة وهو سلم

هذه الأبيات القليلة فيها سخرية مؤلمة ومعبرة عن حب الإنسان للحياة وللتعمير في الأرض، وعجزه أمام الموت، فأحدى وخمسون عاماً مرت بسرعة من عمر الشاعر وكأنها حلم بخلوها ومرّها، وليعلو سلم عمره ناظراً من أعلى الإحدى والخمسين درجة (سنة) مؤملاً النجاة من الموت في السنوات القادمة، فإذا الموت ينتظره هناك، فهو في هروبه من الموت قد اقترب منه أكثر مما يتوقع وبأسرع مما أمل.

ويتضح لنا مما سبق أن شعراء عصر بني الأحمر قد عرفوا هذا اللون من الرثاء -رثاء النفس- ونظموا فيه المقطوعات. ولم يقصدوا فيه القصائد الطوال. ولعل مرد ذلك إلى طبيعة الحالة النفسية للشاعر حينما يقف قبالة الموت وجهاً لوجه، فلا يطبق إطالة، فيوجز معانيه في أبيات معدودة. تلك المعاني التي تقرر حتمية الموت وفناء الدنيا وزخرفها، والأمل برحمة وعفوان من الله تعالى.

(١) ورد تخميس لأبيات لسان الدين لبعض بني الصباغ أنظر : المقرئ نفح الطيب م ١١٣/٥.

(٢) هو محمد بن علي بن الحضر بن هارون الغساني يكنى أبا عبد الله ويعرف بابن عسّكر (ت ٦٣٦ هـ).

(٣) أنظر ترجمته عند : لسان الدين، الإحاطة ، م ١٧٢/٢.

(٤) لسان الدين، الإحاطة ، م ١٧٥/٢.

الثناء على شواهد القبور :

من الطبيعي وجود مقابر مخصصة لموتى المسلمين في مملكة غرناطة*، وكعادة المدن الإسلامية تقام المقابر خارج المدينة أو خارج أسوارها بجوار أحد أبوابها، فاحدى مقابر مدينة غرناطة - مثلاً - تقع غربها عند باب البيرة^(١).

أما القبور فكانت بسيطة البنيان ترتفع قليلاً عن الأرض وبمرور الزمن واتساع العمران والرخاء بالأندلس شمل التغيير كل مناحي الحياة بما فيها القبور وشواهدها، فأصبحت الشواهد من الرخام الفاخر المصقول التي ينقش أو يكتب عليها اسم المتوفى وتاريخ وفاته، وقد تكتب عليها المراثي الشعرية والنثرية^(٢).

ولقد شاع في الأندلس كتابة المراثي الشعرية على شواهد قبور السلاطين والوزراء والعلماء وغيرهم منذ وقت مبكر، ولعل من أشهر ما ورد في هذا الشأن ما ذكر أنه كان مكتوباً على قبر المنصور بن أبي عامر (ت ٣٩٣هـ) ^(٣):

آثاره تتبىك عن أخباره حتى كأنك بالعيان تراه

تالله لا يأتي الزمان بمثله أبداً ولا يحمي الثغور سواه

وقد تكون تلك المراثي من نظم الشخص قبل وفاته ويوصي بكتابتها على شاهد قبره، وقد تنظم المرثية بعد وفاته وتكتب على شاهد قبره تقديراً له وإجلالاً في محاولة للإعلان عن حضور الغائب الذي قد يكون - أحياناً - غائباً بحضوره^(٤).

ومن الملاحظ على المرثيات الشعرية التي نظمها أصحابها قبل وفاتهم لكتابتها على شواهد قبورهم اتسامها بالقصر مقطوعات، ودوران معانيها حول اعتراف أصحابها بذنوبهم،

* للمزيد عن مقابر مملكة غرناطة، أنظر: أحمد الطوخي، مظاهر الحضارة في الأندلس في عصر بني الأحمر، ص ٦٥ وجيمس دكي، الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، ص ١٧٠-١٧٣، وعصمت دندش من مظاهر الحياة الاجتماعية بالأندلس، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية / الرباط، ع ١٩٤/١٩٩٤م، ص ١٠٦.

(١) الحميري، صفة الأندلس عن الروض المعطار، ص ٢٤.

(٢) لسان الدين، اللوحة البدرية، ص ٤٨ و ٦٨ و ٨٨.

(٣) لسان الدين، الإحاطة، م ١٠٨/٢.

(٤) أنظر: فؤاد رفقة، الشعر والموت، ص ٤٨.

ورجائهم بعفو من الله سبحانه، فالذنوب الماضية تؤرقهم ويخشون عقابها، لذا طلبوا شفاعته الرسل الكريم - عليه الصلاة والسلام - وأملوا بدعاء ينفعهم بعد موتهم وأوصوا بدفنهم قرب من ظن صلاحهم، فمحمد بن باق الأموي^(١) أوصى أن يكتب على قبره^(٢):

تَرْحَمُ عَلَى قَبْرِ ابْنِ بَاقٍ وَحْيِهِ فَمَنْ حَقَّ مَيِّتِ الْحَيِّ تَسْلِيمُ حَيِّهِ

وَقُلْ آمَنْ الرَّحْمَنُ رَوْعَةً خَائِفٍ لَتَقْرِيطُهُ فِي الْوَاجِبَاتِ وَغْيِهِ

قَدْ اخْتَارَ هَذَا الْقَبْرَ فِي الْأَرْضِ رَاجِئاً مَنْ اللَّهُ تَخْفِيفاً بِقُرْبِ وَلِيِّهِ

فَقَدْ يَشْفَعُ الْجَارُ الْكَرِيمُ لَجَارِهِ وَيَشْمَلُ بِالْمَعْرُوفِ أَهْلَ نَدْيِهِ

وَإِنِّي بِفَضْلِ اللَّهِ أَوْثَقُ وَاثِقٍ وَحَسْبِي وَإِنْ أَذْنَبْتُ حُبُّ نَبِيِّهِ

أما أبو الطيب صالح الرندي (ت ٦٨٤هـ) صاحب النونية الشهيرة في رثاء الأندلس، فقد نظم بيتين ليكتبا على قبره هما^(٣):

خَلِيلِي بِالْوَدِّ الَّذِي بَيْنَنَا اجْعَلَا إِذَا مَيِّتُ قَبْرِي عَرْضَةً لِلتَّرْحَمِ

عَلَى مُسْلِمٍ يَدْنُو فَيَدْعُو بِرَحْمَةٍ فَإِنِّي مُحْتَاجٌ لَدَعْوَةِ مُسْلِمٍ

فالرندي يطلب من صديقيه مذكراً إياهما بالود الذي بينهم أن يجعلوا قبره عرضة للترحم - ولا ندري كيف يكون ذلك - ليدعو له أي مسلم بالرحمة فهو في أمس الحاجة لدعوة أي مسلم .

(١) هو محمد بن إبراهيم بن علي بن باق الأموي، توفي بمالقة عام (٦٥٢هـ) وأوصى أن يحفر قبره بين شيخيه الخطيبين أبي عبد الله الطنجالي وأبي عثمان بن عيسى، انظر ترجمته عند : لسان الدين، الإحاطة م ٣٣٨/٢ والمقري نفح الطيب ، م ٢٦٥/٦.

(٢) لسان الدين، الإحاطة م ٣٤٠/٢، والمقري ، نفح الطيب ، م ٢٦٥/٦.

(٣) لسان الدين، الإحاطة ، م ٣٧٥/٣ و ٣٧٦ .

وبركز ابن الأرقم النميري الوادي أشي (ت ٦٩٤هـ) ^(١) على طلب العفو من الله فهو خائف من ذنوبه، لذا يتوجه لزوار قبره بطلب وهو ان يتوجهوا لله بالدعاء المخلص له بالرحمة والغفران، لعله ينتفع منه في قبره، وما يؤمن خوفه أيضاً أمله في شفاعة الرسول الكريم - عليه الصلاة والسلام - فهو يقول ^(٢):

أتيت إلى خالقي خاضعاً ومَنْ خَدَّه في الثرى يخضع
وإن كنت وافيته مجرمًا فإني في عفوهِ أطمع
وكيف أخاف ذنوباً مضت وأحمد في زلتني يشفع
فأخلص دعاءك يا زائري لعلَّ الإله به ينفع

وتتشابه معاني المراثيات الشعرية المسجلة على شواهد القبور التي نظمها أقارب الفقيد تقديرًا له وتعبيراً عن افتقاده مع المراثيات الشعرية التي نظمها أصحابها قبل وفاتهم، فكلتا هما تتسم بالقصر، وبصدق عاطفتها ودوران معانيهما على طلب المغفرة والعفو من الله سبحانه .

فأبو القاسم بن يوسف بن رضوان الأنصاري ^(٣) ينظم قصيدة لتسجل على شاهد قبر أبيه مخاطباً الله سبحانه بلسان أبيه متذللاً له وقد وسدَّ خد أبيه التراب، متوجهاً إلى الله، طالباً الصفح والرحمة للنجاة من العذاب، فالذنوب تثقل كاهله، وقلبه لا يبرحه

٥٦٣٨١٥

(١) هو محمد بن أحمد بن محمد بن رضوان بن أرقم النميري الوادي أشي أبو خالد ، كان قارصاً للشعر، مشاركاً في الفرائض والحساب، ولي القضاء على حداثة سنة ، مات قاضياً ببسطة عام (٦٩٤هـ)، أنظر ترجمته عند : جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، بغية الوعاة، ج ١/٤٢.

(٢) السيوطي، بغية الوعاة ، ج ١/٤٢ و ٤٣.

(٣) هو أبو القاسم بن يوسف بن رضوان بن يوسف بن رضوان الأنصاري النجاري تولى قيادة ديوان مالقة، وحمدت سيرته، أنظر ترجمته عند : لسان الدين الإحاطة م ٤/٢٦٦.

الخوف من عقابها وباب عفو الله مفتوح، وهو سبحانه غني عن عذابه، ثم تأتي الصلاة على سيدنا محمد - عليه الصلاة والسلام - خاتمة لرجائه بالرحمة والعفو فيقول^(١):

إلهي خدِّي في التراب تذلاً
بسطتُ عسى رحماك يحيى بها الروح

وجاوزتُ أجداث الممالك خاضعاً
وقلبي مصدوع ودمعي مسفوح

ووجهتُ وجهي نحو جودك ضارعاً
لعلَّ الرضا من جنب حلمك ممنوح

أثيت فقيراً والذنوب تؤودني
وفي القلب من خوف الجرائم تبريح

ولم أعتمد إلا الرجاء وسيلة
وإخلاص إيمان به الصدر مشروح

وأنت غنيٌّ عن عذابي وعالم
بفقري وباب العفو عندك مفتوح

فهب لي عفواً من لدنك ورحمة
يكون بها من ربقة الذنب تسريح

وصلَّ على المختار ما همع الحيا
وما طلعت شمس وما هبت الريح

ويسجل لسان الدين حواراً شعرياً بينه وبين قلبه على شاهد قبر سكن عزيز فقده، لائماً قلبه الذي عانى من ألم الفراق بسبب موت ذلك العزيز، فيجيب قلبه بأن لا حيلة له في ذلك العشق لذا فهو يلجأ للصمت، ويواصل قلبه قائلاً بأن الرشد قد فارقه منذ عشق شيئاً يموت، ونلمس نفساً صوفياً عند لسان الدين في إجابة القلب التي تتضمن معنى العشق للحي الذي لا يموت فهو يقول^(٢):

يا قلب كم هذا الجوى والجفوت
نمائك استبق لئلا يفوت

(١) لسان الدين، الإحاطة، م ٤/٤٢٦ و ٤٢٧.

(٢) لسان الدين، ديوان لسان الدين، ص ٣٣٤.

فقال : لا حول ولا قول لي قد كان ما كان فحسبي السُّكُوتُ

فارقني الرُّشْدُ وفارقتهُ لَمَّا تَعَشَّيْتُ بِشَيْءٍ يَمُوتُ

ويبدو أن المراثيات الشعرية التي نظمت لتسجل على شواهد قبور السلاطين والأمراء من بني الأحمر قد قام الشعراء بإنشادها أولاً أمام الأسرة الحاكمة قبل نقشها على الشاهد، لذا غلب عليها التأبين وطالت أبياتها، لاستغراق الشعراء في تعداد فضائل الميت وحسن صفاته، وخصصت أبيات منها في أول المراثية أو في آخرها أحياناً لطلب الرحمة والمغفرة للفقيد، وكأن الشعراء سعوا لإرضاء الأحياء في موضع وجب فيه التواضع لله.

إن معاني الشجاعة والكرم والعدل هي المعاني التي نالت اهتمام شعراء هذا العصر في المراثيات الشعرية على شواهد قبور الملوك، فهذا ابن الجياب يصف قبر الملك أبي عبد الله محمد بن محمد (ت ٧١٠هـ) ^(١):

مقرُّ العلي والملك والبأس والندى فُقِّدَ من مغنى كريم ومشهد

ومثوى الهدى والفضل والعدل والنهى فبورك من مثوى زكي وملحد

أما شاهد قبر الملك أبي الجيوش نصر بن محمد (ت ٧٢٢هـ) فذكر له فيه اتصافه بالكرم والحلم والرضا وعلو الشأن وطهارة العرق ^٢:

بوركت لحداً فيه أي ودیعة ملك كريم من نجار كرام

ما شئت من حلم ومن خلق رضى وزكاء أعراق ومجد سام

(١) ابن الجياب، ديوان ابن الجياب، ص ٢٣١ ولسان الدين، اللحة البدرية، ص ٦٩، والإحاطة، م ٥٦٣/١.

(٢) لسان الدين، اللحة البدرية، ص ٧٧، والإحاطة م ٣٤٢/٣.

ولا يكاد يخلو شاهد قبر لملك من ملوك بني الأحمر من ذكر المناقب نفسها، من عدل وشجاعة وكرم وتقوى وشرف ومجد، فهناك ما نقش على شاهد قبر الملك أبي الوليد اسماعيل بن فرج (ت ٧٢٥هـ) وناظمه ابن الجياب حيث يقول^(١):

سلطان عدل وبأس غالب وندى
وفضل تقوى وأخلاق ميامين
لله ما قد طواه الموت من شرف
وسر مجد بهذا اللحد مكنون

وعلى شاهد قبر الملك أبي عبد الله محمد بن اسماعيل (ت ٧٣١هـ) نجد الأبيات التالية التي تدور حول المعاني نفسها مع تفصيل لكرمه السابغ^(٢):

يا قبر سلطان الشجاعة والندى
فرع الملوك الصيد أعلام الهدى
وندى يسح على العفاة مواهباً
مثنى الأيادي السابغات وموحداً

ومثله قول لسان الدين من قصيدة نقش على قبر الملك أبي الحجاج يوسف الأول (ت ٧٥٥هـ) حيث قال^(٣):

إذا ذكر الإغضاء والحلم والتقى
وحدثت عن علياه حدث عن البحر
إمام الهدى غيث الندى دافع العدى
بعيد المدى في حومة المجد والفخر
ويا ملحد التقوى ويا مدفن الهدى
ويا مسقط العليا ويا مغرب البدر

ويخص ملك غرناطة يوسف الثالث أخاه أبا الحسن علي الملقب بمعز الدولة بمراث منها قصيدة رسمت على شاهد قبره، آملاً أن يخفف ذلك من حرقة قلبه على أخيه الذي غيبه الموت وهو في ريعان شبابه، ويُنقش على شاهد قبر أخيه^(٤):

(١) ابن الجياب، ديوان ابن الجياب، ص ٤٦٦، ولسان الدين، اللوحة البدرية، ص ٨٨ و ٨٩.

(٢) لسان الدين، اللوحة البدرية، ص ٩٨.

(٣) لسان الدين، اللوحة البدرية، ص ١١٢، والإحاطة م ٤/٣٣٥.

(٤) يوسف الثالث، ديوان ملك غرناطة، ص ١٧٠.

آيات فضلك في حياتك حققت هيهات تمحي بعدك الآيات

والله ما تنسى محامده التي من شأنها التخليد والإثبات

ومن المناقب التي سجلها الشعراء على شواهد قبور ملوك وأمراء بني الأحمر تأبيناً لهم الإشارة إلى امتداد نسبهم إلى الصحابي الجليل سعد بن عبادَةَ الخزرجي - رضي الله عنه -^(١) فعراقة نسبهم واتصاله بالأنصار جعل الشعراء يربطون بين ذلك واسم جدهم نصر فأبو سعيد بن اسماعيل بن فرج كما يقول ابن الجياب كريم في ذاته وفي أبيه وجده أيضاً لأنه ابن عم الملك أبي الجيوش نصر، وهو أي الرئيس أبو سعيد نخبه بيت الخلافة وواسطة عقدها^(٢):

ففيك من الأنصار من آل نصرهم همام كرم الذات والأب والجد

قسيم أمير المسلمين ابن عمه ونخبه بيت الملك واسطة العقد

ويذكر أحد الشعراء نصرة الخزرج للرسول - عليه الصلاة والسلام - ليدل على أن أبا الجيوش نصر بن محمد من أرومه طيبة عريقة في الاسلام فيقول^(٣):

من خزرج الفخر الذين مقامهم في نصر خير الخلق خير مقام

ويشار إلى المعنى نفسه في شاهد قبر الملك أبي عبد الله محمد بن إسماعيل^(٤):
وسلالة السلف الذي آثاره وضاحة لمن اقتدى ومن اهتدى

سلف لأنصار النبي نجاره قد حل منه في المكارم محتداً

(١) وردت الإشارة إلى ذلك النسب عند لسان الدين اللمة البدرية ، ص ٣٣ والإحاطة م ٩٢/٢.

(٢) ابن الجياب، ديوان ابن الجياب ، ص ٢٣٠.

(٣) لسان الدين، الإحاطة ، م ٣٤٢/٣.

(٤) لسان الدين ، اللمة البدرية ، ص ٩٨.

وأشار لسان الدين إلى نسب بني الأحمر وأشاد به وأثنى على أصولهم فيما نقش
على شاهد قبر الملك أبي الحجاج يوسف الأول^(١):
سلالة سعد الخزرج بن عبادة وحسبك من بيت رفيع ومن قدر

ويغدو في مجال التأبين ذكر الجانب الحربي للفقيه أمراً طبيعياً لا سيما وأن
مملكة غرناطة احتاجت للدفاع عن نفسها لاثبات وجودها وحماية ذلك الوجود، فكان
الجهاد من أجل مناقب حكامها، ورغم كثرة المعارك التي خاضوها طواهم الموت
وكانهم ما كانوا، ويتجلى ذلك في قول أحد الشعراء في رثاء الملك المؤسس محمد
الأول^(٢):

كانه لم يسر في محفل لجب تضيق عنه بلاد العرب والعجم
ولم يباد العدا منه ببادرة يفتر منها الهدى عن ثغر مبتسم
ولم يجهز لهم خيلاً مضمرة لا تشرب الماء إلا من قليب دم

وصور الشعراء وسائل نشر أخبار المعارك ونتائجها (كالمنابر، والرسائل
الرسمية) فرحة بالنصر الذي حققه الملك والذي سيقطف ثماره ثواباً وجنة وهوراً في
انتظاره، ويتجلى ذلك في نقش ابن الجياب على شاهد الملك أبي الوليد إسماعيل، حيث
قال^(٣):

أما الجهاد فقد أحى معالمة وقام منه بمفروض ومسنون
فكم فتوح له تزهى المنابر من عجب بهن وأوراق الدواوين
مجاهد نال من فضل الشهادة ما يُجبي عليه بأجر غير ممنون

(١) لسان الدين، اللوحة البدرية، ص ١١٢ أو الإحاطة م ٣٣٥/٤.

(٢) لسان الدين، اللوحة البدرية، ص ٤٩ والإحاطة م ١٠١/٢ وصلاح جرار، ديوان الحمراء، ص ٢٢٢ و ٢٢٣.

(٣) ابن الجياب، ديوان ابن الجياب، ص ٤٦٦، ولسان الدين، اللوحة البدرية، ص ٨٩.

في عارضيه غبار الغزو تمسحه في جنة الخلد أيدي حورها العين

ويسجل لسان الدين للملك أبي الحجاج يوسف الأول حمايته للدين الإسلامي ومقاومته للكافرين^(١):

ومن كأبي الحجاج حامي حمى الهدى ومن كأبي الحجاج ماحي دجا الكفر

ولقد نظم ابن فركون قصيدة لم يكتب لها أن تنقش على شاهد قبر الأمير أبي الحسن علي بن يوسف لإيثار الملك يوسف الثالث أن تنقش قصيدة من تأليفه هو على شاهد قبر أخيه، ومع ذلك احتفظ ابن فركون بها في ديوانه وفيها يوضح تفضيل الأمير علي للجهاد على الدنيا وما فيها حتى يصل الدين إلى مكانه الأعلى، ويغيب العدا ويدلل على فتح الأمير الفقيد لجبل الفتح وغيره ومنعه للأعداء من الاستيلاء عليه^(٢):

فكم مورد لم تزل في الجهاد تعاف على ظمأ شربه

إلى أن تبلغ دين الهدى ندى الملتقى في العدى إربه

سلوا جبل الفتح عن فتحه وقد أمل المعتدي غصبه

وربما ذكر بعض الشعراء الحادث الذي أدى إلى وفاة الملك الفقيد لا سيما من مات منهم بشكل غير طبيعي ، فالملك أبو الوليد إسماعيل كان أول من مات قتلاً من ملوك بني الأحمر، حيث اغتاله ابن عم له، وابن الجياب في قصيدته التي نقشت على قبر الملك أبي الوليد إسماعيل حاول الربط بين طريقة استشهاد عثمان بن عفان - رضي الله عنه - في الشهر الحرام ضحى في بيته، وبين استشهاد أبي الوليد إسماعيل في الشهر الحرام ضحى وفي بيته أيضاً موضحاً تأثير العباد والبلاد لموته^(٣):

قضى كعثمان في الشهر الحرام ضحى وفاة مستشهد في الدار مطعون

(١) لسان الدين، الإحاطة م ٤/٣٣٥.

(٢) ابن فركون، ديوان ابن فركون، ص ٣٦٢.

(٣) ابن الجياب، ديوان ابن الجياب، ص ٤٦٦، ولسان الدين، اللوحة البدرية، ص ٨٩.

تبكي البلاد عليه والعباد معاً فالخلق ما بين أحزان أفانين

أما الملك أبو الحجاج يوسف الأول فقد قتل أثناء سجوده في صلاة عيد الفطر
ولسانه رطب بذكر الله فيسجل ذلك لسان الدين ناقشاً^(١):

تولّى شهيداً ساجداً في صلاته أصيل التقى رطب اللسان من الذكر

وقد عرف الشهر المبارك حق ما أفاض من النعمى ووفى من البر

وانحصر دعاء الشعراء المنقوش على شواهد قبور الملوك بالرحمة، وبارسال
التحيات لمن في القبر، ويتضح ذلك مما كتب على شاهد الملك المؤسس محمد الأول^(٢):

لا زال تهمني على قبر تضمنه سحاب الرحمة الوكافة الديم

ويكتفي ابن الجياب بإرسال تحية زكية تسجل على شاهد قبر الرئيس أبي سعيد
بن إسماعيل حيث يقول^(٣):

عليك من الرحمن أزكى تحية توفيك من إحسانه غاية القصد

ومثله على شاهد قبر أبي الجيوش نصر بن محمد^(٤):

فعلى ضريح أبي الجيوش تحية كالمسك عرفاً عند فض ختام

وتغمّدت به رحمة الله التي تُرضيه من عذّب بدار مقام

ويؤثر ابن الجياب الدعاء للملك أبي الوليد إسماعيل برحمة من الله رب
العالمين^(٥):

(١) لسان الدين ، اللحة البدرية ، ص ١١٢ ، والإحاطة ، م ٣٣٥/٤.

(٢) لسان الدين ، اللحة البدرية ، ص ٤٩ ، الإحاطة م ١٠١/٢.

(٣) ابن الجياب، ديوان ابن الجياب، ص ٢٣٠.

(٤) لسان الدين ، اللحة البدرية ، ص ٧٧ ، الإحاطة م ٣٤٢/٣.

(٥) ابن الجباب، ديوانه، ص ٤٦٦.

ورحمة الله رب العالمين على سلطان عدل بهذا القبر مدفون

وتجدر الإشارة إلى أن المعاني والصور التي قدمها الشعراء على شواهد قبور الملوك والأمراء تتفق والمعاني والصور المقدمة في رثاء الملوك والأمراء فقد عمد الشعراء فيها إلى ذكر مناقب الملوك والأمراء وفضائلهم وجهادهم ودعوا لهم بالرحمة، وهي صور ومعان في جملتها تقليدية لا جديد فيها بالغ الشعراء في عرضها فطالت قصائدهم وخلت من النظرات العميقة للحياة والموت.

أما ما سُجل على شواهد قبور عامة الناس لاسيما العلماء والأدباء منهم فقد امتازت بصدقها وبقصر أبياتها عموماً وبالذعاء لله أن يغفر لهم ويرحمهم وأملوا الانتفاع بدعاء المسلمين لهم بالرحمة. دون ذكر لمناقب أو فضائل امتازوا بها بل غُلفت قصائدهم بتواضع وتذلل لله سبحانه، ولم يتطرق الشعراء فيها لفلسفة الحياة والموت أيضاً.

الفصل الخامس

رثاء البلاد والمدن والقلاع

رثاء البلاد والمدن والقلاع :

بدأ خيط شعر رثاء الدول والمدن في الأدب العربي منذ العصر الأموي ثم امتد إلى العصور التالية بامتداد النكبات التي أزلت دولاً أو سحقت مدناً، ومع أن شعر رثاء المدن قد بدأ في المشرق إلا أنه ازدهر في الأندلس وذلك لتقلب حالها بين فتن داخلية وحروب خارجية، ومعاناة شعبها وتفاعل الشعراء مع أحداثها.

وغنى عن البيان القول بانتماء الأندلسيين لوطنهم بل واعتبارهم حب الوطن في قربه والحنين إليه في بعده واجبا على كل حر طاهر منهم فابن الأحمر يقول : " فواجب على الحر الطاهر ان يحزن الى وطنه في السر والظاهر"^(١).

لذا خرج بعض الشعراء مستنفرين ومستجدين بالحكام المغاربة من مرينيين وحفصيين وغيرهم لنجدة بلادهم كلما تعاظم الخطر عليهم وهدد الأعداء وجودهم، فقصائد الاستجداء تؤكد حب الأندلسيين لبلادهم واخلاصهم في الدفاع عنها كما وتوضح الروابط الإسلامية بين الأندلسيين وإخوانهم المغاربة، ومع أن تلك القصائد ليس هنا مجال بحثها. إلا أنني سأشير الى ما ورد في بعضها من تحسر وحزن على ما حلّ بالمدن الأندلسية كصورة من صور الرثاء ، ولا تكاد تخلو مرثية من استنفار، كما أن قصائد الاستنفار - أحيانا - تحتوي على رثاء مدن .

إن قصائد الاستنفار قد احتوت على أكثر من معنى وعلى أكثر من غرض شعري، ففيها مدح للمستجد به، ووصف للمستجد ، وحنين للوطن، ورثاء لحاله ولما استغلب عليه من أقطاره، ودعوة للجهاد ودعاء لله بأن ييسر لهم سبيل استعادة ما فقد، وربما وجد في بعض القصائد نقد سياسي لضعف الأندلسيين وتخاذل المسلمين عن نصرتهم.

وتتضح الدعوة إلى الجهاد بصورة جلية في قصيدة الشاعر إبراهيم بن سهل الإسرائيلي^(٢) في حظه على الجهاد ونصرة الدين لحفظ البلاد من الاعتداءات إذ يقول^(٣):

ورداً فمضمونٌ نجاح المصدر هي عزة الدنيا وفوز المحشر

(١) ابن الأحمر، نشر الجمان، ص ٢٥.

(٢) انظر ترجمته عند: ابن القاضي، درة الحجال، ٣٣/١.

(٣) الفاسي، الذخيرة السنية ، ص ٦٩.

الدين ناداكم وفوق سروجكم غوث الصريخ وبغية المستصر
ومن الشعراء الذين استنفروا ورثوا مدناً أندلسية الفقيه الشاعر مالك بن
المرحل^(١) إذ نظم قصيدة حوت (٤٩) بيتاً عندما اشتد حصار قشتالة لغرناطة عام
(٦٦٢هـ) وقد صور ممارسات جنود قشتالة الوحشية من قتل وتمثيل وأسر وتفجع
على مصاب المدن العريقة التي سقطت حيث يقول^(٢):

لهفاً على أندلس من جنة دارت بها من العدا جهنم
استخلص الكفار منها مدناً لكل ذي دين عليها ندم
قرطبة هي التي تبكي لها مكة حزنًا والصفاء وزمزم
وحمص وهي أخت بغداد وما أيامها إلا الصبا والحلم
استخلصوها موضعاً فموضعاً واقعدوا واحتموا وانتقموا
وقتلوا ومثلوا وأسروا وانكسروا ويئسوا وأيموا

أما ابن الأبار فقد فصل في مصاب المدن الأندلسية في سنيته وبث آهاته
ولو عته لسقوطها وتغير حالها، لاسيما المساجد رمز وحدة المسلمين وفقدانها يعني فقدان
رمز وحدتهم ووجودهم وبيان اضمحلال الإسلام في المدن الأندلسية التي سقطت حيث
قال^(٣):

يا للجزيرة أضحى أهلها جزراً للحادثات وأمسى جدّها تعساً

(١) هو مالك بن عبد الرحمن بن علي بن المرحل، يعرف بابن المرحل، ولد بمالقة عام (٦٠٤هـ) ونشأ في سبته واستقر في فاس إلى أن توفي عام (٦٩٩هـ) انظر ترجمته عند: لسان الدين، الإحاطة ٣٢٤/٣ و ٣٠٥.

(٢) الفاسي، الذخيرة السنية، ص ٩٩.

(٣) المقرئ، نفح الطيب، م ٤٥٧/٥.

وفي بالنسبية منها وقُرْطُبة
مدائن حُلها الإشراك مُبتسماً
وصيَّرتها العوادي العاثثات بها
يا للمساجد عادت للعدا بيعاً
لهفي عليها الى استرجاع فائتها
هم شيعة الأمر وهي الدار قد نهكت
واضرب لها موعداً بالفتح ترقبه
لعل يوم الأعادي قد أتى وعسى

إن ابن الأبار وغيره من الشعراء الأندلسيين لم يقفوا أمام مأساة بلادهم صامتين بل راح كل منهم يسجل تلك النهايات بكلمات حزينة وعبارات دامية، مستنفرين داعين للجهاد وللمقاومة، مادحين الأقوياء، واصفين مزايا المدن الأندلسية وعراققتها، مفعمين بالأمل بعودة الفتح، لقد كان هذا منهج ابن الأبار في قصائده، فقضية بلاده كانت تشغل باله، فكان ينتهز كل فرصة لمدح الحفصيين لحثهم على مساعدة الأندلس وتحريرها ويتنبأ ابن الأبار أن الأندلس لن تبقى موجودة إن لم يضمن حمايتها المغاربة ويشير متحسراً إلى التغيرات الدينية في البلاد التي استغلب عليها الأسباب تلك التغيرات التي تتم عن تمييز ديني هدفه طمس معالم الإسلام من الأندلس نهائياً^(١):

تلك الجزيرة لا بقاء لها إذا لم يضمن الفتح القريب بقاءها

(١) نفسه م ٤٦٠/٥ .

(٢) المقرئ، نفح الطيب، ج ٤/٤٨٠ .

بأبي مدارس كالطلول دوارس نسخت نواقيس الصليب نداءها

راحت بها الورقاء تسمع شذوها وغدت ترجع نوحها وبكاءها

وسار على درب ابن الآبار حازم القرطاجني^(١) فشوقه وحنينه إلى ربوع صباه
بعد رحيله عنها إلى بلاط الحفصيين، جعله يصف بلاده التي نشأ فيها بألم وحزن
مستخدماً الطبيعة الأندلسية كأداة للتعبير عن حزنه الدفين على فراق بلاده، مستخدماً
فهذه الأنهار التي تعزف لحن الأسى والألم فهي بين باك فاضت دموعه شجواً ومغناظ
ومتألم لا عزاء له إلا الأنين إذ قال^(٢):

ومحقت قرطبة كمثّل ما قد محق البدر السرار ومحا

وصار للوحشة كل منزل قد كان للأنس بحمص يعتري

فقد بكت أنهارها بدمع هام من الوجد لهام ما ارتوى

فالنهر الأبيض يبكي شجوه بكل دمع مستفيض ما رقا

وقد بكى النهر الكبير صنوه إذ لم يطق يروى صدى هام زقا

(١) هو أبو الحسن حازم بن محمد بن حسين بن حازم القرطاجني ولد سنة (٦٠٨هـ) بقرطاجنة في شرق الأندلس، ونشأ في مرسية، هاجر إلى مراكش بعد سقوط بعض مدن الأندلس ثم استقر في بلاط الحفصيين في تونس إلى أن توفي عام (٦٨٤هـ) انظر ترجمته عند: السيوطي، بغية الوعاة ج ١/ ٤٩١، وابن القاضي، درة الحجال ج ١/ ٢٥٤، المقرئ، أزهار الرياض ج ٣/ ١٧٢.

(٢) محمد الحبيب بن الخوجة، قصائد ومقطعات: صنعه ابن الحسن حازم القرطاجني الأبيات ص

لم يستطع ابن الأحمر الشيخ المؤسس تلبية نداء الشاعر أبي اسحاق إبراهيم بن عبيد يس^(١) لإنقاذ مدينة جيان فقد كانت مملكة غرناطة في طور التكوين واضطرت - حينها - الى التنازل عن بعض المدن والقلاع فلسان الدين بن الخطيب يقول ان العدو استولى في عهد ابن نصر الأول على : " مُرْسِيَهُ وَجَيَّانَ وَلَوْرَقَةَ وَشَرِيْشَ، وَكَمْ تَبَعَ هَذِهِ الْأَمْهَاتُ مِنْ بَنَاتٍ وَهَتَكَتْ مِنْ حَرَمَاتٍ . . " ^(٢) فلنستمع الى الشاعر أبي اسحاق إبراهيم بن عبيد يس مستنقراً الملك المؤسس لمملكة غرناطة^(٣):

(١) هو إبراهيم بن محمد بن إبراهيم بن عبيد يس بن محمود النفري، يكنى بأبي اسحاق ولد بجيان عام (٥٦٢هـ) واستقر بغرناطة، هو عالم زاهد ومتصوف توفي عام (٦٥٩هـ) انظر ترجمته عند: السيوطي بغية الوعاة، ج ١/٤٢٤، ولسان الدين، الإحاطة ج ١/٣٧٩.

(٢) لسان الدين، أعمال الإعلام، ص ٢٩٣.

(٣) عبد القادر زمامة، نص اندلسي لم ينشر، مجلة المناهل المغربية، العدد ٢٦ السنة العاشرة ١٩٨٣م، ص ٢٩١.

أمير المسلمين ألا تعود
وأنت طبيبها والله يشفي
فجيان تناديك ابن نصر
وفرطبة أقام الشرك فيها
وإن ثغورها وثغور حمص^(١)
تراهم يخدعون الناس صلحاً
فنصرأ يا إله الخلق نصراً
ولطفأ بالجزيرة يا إلهي
فهل من يقظة تحيي نياماً؟
لأندلس بها مرض شديد
فمالك لا تطب ولا تعود؟
ألا مال يعود؟ ألا جنود؟
وما يغزو القريب ولا البعيد
تملكها العدو لنا مبيد
وأمر الناس ليس به جحود
فأنت الله تفعل ما تريد
فما إن في مضرتها مزيد
فأيقاظ الجهالة هم رقود

ويأتي عام (٧٠١هـ) لبيعث ابن الأحمر محمد بن محمد بن يوسف بقصيدة
استجد ليعقوب المريني نظمها كاتبه أبو عمر بن المرابط^(٢) مدح فيها يعقوب المريني
وبكى فيها حال الأندلس واستنفره لمساعدتها فما فتى الأسبان يقضمون من المملكة
القطعة تلو الأخرى كلما سنحت فرصة لهم بذلك فهذا ابن المرابط يقف قائلاً^(٣):

كم جامع فيها أعيد كنيسة
فاهلك عليه أسى ولا تتجد

(١) حمص : تسمية أطلقت على مدينة إشبيلية لنزول جند حمص بها .

(٢) لم يتوسع المترجمون في ترجمته، ورد ذكره عند ابن خلدون : العبر ، ج ٧/٤٠٩ والفاسي،
الذخيرة السنية، ص ١٦٤ .

(٣) ابن خلدون، العبر . . . ج ٧/٤٠٩-٤١٤، دار الكتاب اللبناني، ١٩٦٨م.

كم من أسير عندهم وأسيرة
فكلاهما يبغى الفداء فما فدي
كم من عقيلة معشر معقولة
فيهم تود لو أنهم في ملحد
كم من وليد بينهم قد ود من
ولده ودا أنه لم يولد
كم من تقي في السلاسل موثق
بيكي لآخر في الكبول مقيد
وشهيد معترك توزعه الردى
ما بين حدي ذابل ومهند
أكذا يعيث الروم في إخوانكم
وسيوكم للثأر لم تتقلا؟!
ما بال شمل المسلمين مبدد
فيها وشمل الكفر غير مبدد

لا يمكننا إغفال البعد الديني للصراع بين النصارى والمسلمين في الأندلس الذي قادته الكنيسة الصليبية آنذاك، فأول عمل كان الأسباب النصارى يقومون به عند سقوط أي مدينة مسلمة هو تحويل جامعها إلى كنيسة، ويسلط ابن المرابط الضوء على الأفعال التي اقترفها الأسبان في حق المسلمين فقد تعرضوا للنساء بالأذى وقتلوا وأسروا الأطفال فلم ترحم طفولتهم فتمنوا لو أنهم لم يولدوا.

أما أبو المطرف بن عميرة^(١)، فقد وقف على إطلال بلنسية متحسراً ومتفجعاً ومتسائلاً عن أهلها الذي تشتتوا في أنحاء الأرض فغدت عباراته تقطر ألماً وحسرة وكأنه خسر وجوده بخسارته للمكان الذي سكنه وسكن فيه، فهو يطلب من لائميهِ أن يقللوا من لومه فالعشق قد صعد أنفاسه وزاد من دموعه بعد أن تذكر أيام صباه لقد تغير كل شيء وهذه سنة الحياة وقانونها الطبيعي وأصبحت الديار خالية من أصحابها والذي

(١) هو القاضي أبو المطرف أحمد بن عبد الله بن محمد بن الحسين بن عميرة المخزومي ولد بجزيرة شقر في بلنسية عام (٥٨٠هـ) كان أديباً شاعراً، غادر بلنسية عند سقوطها النهائي عام (٦٣٦هـ) انتقل إلى تونس عند بلاط الحفصيين، توفي عام (٦٥٨هـ)، أنظر ترجمته عند : لسان الدين، الإحاطة ج ١/١٨٥، والسيوطي، بغية الوعاة ج ١/٣١٩.

بقي هو زفراته المتتابعة التي تلتهب بين ضلوعه، ويستعين الشاعر ببعض المواقف الدينية للتعبير عن تشتت أهل مدينته وتفرقهم في شتى البلدان، لذا ذكر المحصب وهو مكان ينام فيه الحجاج أو يستقرون فيه ساعة يلتقون فيها الحصيات لرمي الجمار ثم يتفرقون^(١):

أقلوا ملامي أو فقولوا وأكثروا ملوكم عما به ليس يقصر
وهل غير صب ما تتي عبراته إذا صعدت أنفاسه تتحدر
ويندب عهداً بالمشقر فاللوى^(٢) وأين اللوى منه وأين المشقر؟
تغير ذاك العهد بعدي وأهله ومن ذا على الأيام لا يتغير؟
وأقفر رسم الدار إلا بقية لسائلها عن مثل حالي تخبر
فلم تبق إلا زفرة إثر زفرة ضلوعي لها تنقد أو تنفطر
كفى حزناً أنا كأهل محصب بكل طريق قد نفرنا وننفر

إن سقوط بلنسية عام (٦٤٥هـ) قد هيج مشاعر ابن عميرة فاعتصر الألم قلبه المشتاق إلى الأيام الخوالي حيث كانت جنة تشرق عليها الهداية أما بعد سقوطها فحالها قد تغير وانقلبت أوضاعها^(٣):

ما بال دمعك لا يني مدّارُهُ أم ما لقلبك لا يقرُّ قرارُهُ
ألوعة بين الضلوع لظاعين سارت ركائبُهُ وشطّطت دارُهُ

(١) المقرئ، نفح الطيب، ج ٤/٤٩٣.

(٢) اللوى: اسم لأمكنة عدة وهو أيضاً واد من أودية بني سليم، انظر ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٤/٣٦٦.

(٣) الحميري، صفة الأندلس عن الروض المعطار، ص ٥١ و ٥٢.

أُمُّ لِلزَّمَانِ أَتَى بِخُطْبٍ فَادِحٍ مِنْ مِثْلِ حَدِيثِهِ خَلَّتْ أَعْصَارُهُ
 بَحْرٌ مِنَ الْأَحْزَانِ غَبَّ غِبَابُهُ وَارْتَجَّ مَا بَيْنَ الْحَشَا زَخَارُهُ
 أَمَّا بِنَاسِيَةٍ فَمَثْوَى كَافِرٍ حَقَّتْ بِهِ فِي عَقْرِهَا كُفَارُهُ
 مَا كَانَ ذَاكَ الْمَصْرُ إِلَّا جَنَّةً لِلْحُسْنِ تَجْرِي تَحْتَهُ أَنْهَارُهُ
 قَدْ كَانَ يُشْرِقُ بِالْهَدَايَةِ لَيْلُهُ وَالْآنَ أَظْلَمَ بِالضَّلَالِ نَهَارُهُ

ويقف الشاعر أبو موسى هارون بن هارون^(١) عام (٦٤٦هـ) راثياً اشبيلية (حمص الأندلس) في قصيدة أربت على ستين بيتاً وصف فأجاد ورثى فأحزن القلوب واستنفر واستنجد وأشار إلى أسباب سقوط اشبيلية بأبعادها الاجتماعية والنفسية والدينية والسياسية وبين العلة من ذنوب وتخاذل وانكسار وخوف من العدو وترك للجهاد وتنازع الأهواء حول مطامع الدنيا من سلطة ومال، عدا عن دور النصاري الأسبان في إثارة الأحقاد بين الأندلسيين من ناحية، والاستعداد للحرب لتطويق اشبيلية براً وبحراً من ناحية أخرى .

لقد كان الشعراء مشاركين في غمرة الأحداث مطلعين على خفايا الأمور فتكلموا بصراحة وجرأة عن أسباب هزيمة المسلمين وأولهما تفرق المسلمين وتنازعهم وتولي الأمر من هم ليسوا بأهل له، وثانيهما استعداد قشتالة وأحلافها لحصار اشبيلية من كافة نواحيها ودونك أبياته^(٢):

يا حمص أقدرك المقدور حين رمى لم يرع فيك الردى إلا ولا ذمما

(١) لم أجد ترجمة له في المصادر التي رجعت إليها، وربما كان أبو موسى هارون الفقيه الذي ترجم له ابن القاضي في : درة الحجال ج ٣/٣٢٤.

(٢) ابن عذاري، البيان المغرب، ج ٣/٣٨٢.

يا جنة زحزحتنا عن زخارفها
يا سائلي عن مصاب المسلمين بها
نما تفرقت الأهواء وأضطرمت
ونوزع الأمر أهله وقام به
ثارت حفائظ للتثليث فابتدروا
وانشروا ميت الأحقاد بينهم
ويمموا حمص في جمع يضيق به
فالبحر بالمنشآت إرتج من دعر
ذنوبنا فلزمتنا البث والندما
اصخ لتسمع أمراً يورث الصمما
نار البغاة فقامت للردى علما
من لم يجد قدماً فيه ولا قدما
وأيقظوا من سنات الغفلة الهمما
ولو أطاقوا لعمرى أنشروا الرمما
ذرع الفضاء فسوى الوهد والأكما
والبر بالمرهفات الماع فاكتتما

يتحدث الشاعر ابن هارون عن الأفعال التي ارتكبتها الصليبيون الأسبان في
إشبيلية وكشف عن همجيتهم وخلو قلوبهم من الرأفة والرحمة فالأسرى مقيدون
ويعاملون بإهانة والأطفال الرضع ماتوا غرقاً ولهول الأحداث ذهل سكان إشبيلية لما
أصابهم فيأن قائلًا^(١):

فكم أسارى غدت في القيد موثقة
وكم صريع رضيع ظل مختطفاً
فكم ترى والهأ فيهم ووالهة
لا يرجع الطرف أن حاورته الكلما
تشكو من الذل أقداماً لها حطما
عن أمه فهو بالأمواج قد فطما

(١) نفسه، ج ٣/٢٨٢

لهفي عليهم وما لهفي بمغنية عن تبدل بعد النعمة النقما
 إنا إلى الله قد حل المصاب وما من حيلة في الذي أمضى وما حتما
 عيش تقضى وأبقى بعده أسفا كأن ما كان منه في الكرى حلما
 يا عين فابكي على حمص وقل لها منك البكاء إذا ما ترسلية دما

ويلاحظ أن روح الشاعر المعنوية محطمة، ومرد ذلك إلى الواقع المرير الذي
 يحيط به، فلا مجير يسمع صوت استغاثتهم، وهم في المقابل يواجهون عدواً شرساً لا
 رحمة لديه ولا شفقة^(١):

سطا بها الكفر إذ قل النصير بها فمن معز بها الاسلام ما سلما
 كم نستغيث ولا أنصار تصرخنا ونستطب لداء طالما حسما

وإن الصدق وحرارة العاطفة، ومنهجية الشاعر صالح بن شريف الرندي (ت ٦٨٦هـ)
^(٢) في رثاء الأندلس، جعلت نونيته الأكثر شهرة وتداولاً، فقد لمس جانباً إنسانياً في
 بساطة، وصدق، وواقعية مؤثرة وغلف قصيدته بنبرة حزن كئيبة، ونعمة اتعاط
 واعتبار، وهو يبكي غياب نجم الأندلس، وسحق وجودها وخلوها من الاسلام، وقد نظمها
 الرندي في ظروف وأحداث مؤسفة، لابتست قيام مملكة غرناطة، تلك الظروف التي نتج

(١) نفســـــــــــــــــه. ج ٣/٣٨٢.

(٢) هو صالح بن أبي الحسن يزيد بن صالح بن موسى بن أبي القاسم ابن علي بن شريف يكنى بأبي
 الطيب وبأبي البقاء، كان فقيهاً، حافظاً متفنناً في النثر والشعر، له مختصر في الفرائض وكتاب
 اسمه " الوافي في نظم القوافي "، انظر ترجمته عند: لسان الدين، الإحاطة ج ٣/٣٧٥ الداية: أبو
 البقاء الرندي شاعر رثاء الأندلس، ص ٣٩.

عنها سقوط قواعد أندلسية كبرى، مثل: بلنسية، وقرطبة، وأشبيلية وغيرها، وربما كان منبع صدق الشاعر، وتميز قصيدته في رثاء الأندلس، انه كان شاهد عيان على سقوط بعض المدن، وما جرى فيها بعد سقوطها من: تنكيل، وتعذيب، وقهر، لكرامة المسلمين، وحرمانهم فوصف سارداً ما رأى أو ما سمع، وانفعل به

بدأ أبو البقاء صالح الرندي قصيدته بإيراد حكمة تبين تقلب حال الانسان، وأن دوام الحال من المحال، ويأتي بالأدلة، والشواهد التاريخية التي تؤكد هذه الحقيقة، وإلا فأين الحضارات القديمة، وأين ملوكها، وحكامها الأقوياء؟ بل أين نضار قارون الذي لا يحصى؟ لقد جاءهم الموت فقضوا، واصبحوا خيراً وعبرة، ومروا على الدنيا وكأنهم حلم لنعسان فما هو الرندي يقول^(١):

لكل شيء إذا ما تم نقصان	فلا يغر بطيب العيش إنسان
هي الأمور كما شاهدتها دول	من سره زمن ساءته أزمان
وهذه الدار لا تبقى على أحد	ولا يدوم على حال لها شأن
أين الملوك ذوو التيجان من يمن	وأين منهم أكاليل وتيجان
وأين ما شاده شداد في إرم	وأين ما ساسه في الفرس ساسان
وأين ما حازه قارون من ذهب	وأين عاد وشداد وقحطان
أتى على الكل أمر لا مرد له	حتى قضوا فكان القوم ما كانوا
تخلفوا عبراً وأصبحوا خيراً	كما حكا عن خيال النوم وسان ^(٢)

(١) الفاسي، الذخيرة السنية، ص ١١٢، المقرئ، نفح الطيب م ٤٨٧/٥ وأزهار الرياض، ج ١/٤٧.

(٢) ورد هذا البيت عند المقرئ في النفح وأزهار الرياض

ويمكننا أن نتساءل هنا لماذا أتى الرندي بهذه المقدمة لثناء بلده؟ وأخال أن الرندي اختارها لمناسبتها للثناء فبيان زوال الحضارات السابقة وحكامها متوافق ووصف حال قرطبة واشبيلية وغيرها التي أزيل عنها ما يدل على حضارتها وهويتها الإسلامية، فكان لم يكن فيها مسلمون ولا اسلام، ولعل الرندي أراد أن يستوعب الأندلسيون أنفسهم هذه المصيبة، لأن تغير الأحوال سنة من سنن الله في الأرض، كما أن الرندي يريد أن يقول للمغتربين من غير الأندلسيين لبعدهم عن الأندلس أن لا تفرحوا بأوطانكم كثيراً، لأن الدهر يخبي الكثير من المصائب للبشر، لذا وجه نداءه للغافلين عن هذه الحقيقة وخاطبهم قائلاً^(١):

يا غافلاً ولهُ في العيش موعظة إن كنت في سنة فالدهر يقطان

وماشياً مرحاً يلهيه موطنه أبعد حمص تغر القوم أوطان

ولجأ الرندي إلى تحميل الدهر مسؤولية سقوط المدن الأندلسية وهذه سنة قديمة سار عليها الشعراء منذ العصر الجاهلي فهم ما ان تنزل بهم أو بقومهم مصيبة حتى ينسبوها إلى تقلب الدهر، وتتجلى هذه المعاني في قوله^(٢):

فجانح الدهر أنواعٌ مُنوعةٌ وبعضها فوق بعض وهي ألوان

وللحوادث سلوانٌ يُسهلها وما لما حل بالاسلام سلوان

دها الجزيرة خطب لا عزاء له هوى له أخذ وانهدّ ثهالان

أصابها العين في الاسلام فامتحننت حتى خلت منه أوطان وبلدان

وصار ما كان من ملك ومن ملك كما حكى عن خيال الطيف وسمان

(١) الفاسي، الذخيرة السنية، ص ١١٣.

(٢) نفسه، ص ١١٣.

وقد اتخذ الصراع بين المسلمين والصليبيين الاسبان منذ بدايته شكلاً دينياً وقد صورهم الشعراء وقد تجمعوا تحت شعار الصليب للقضاء على المسلمين، أما المسلمون فاتخذوا البكاء وذرف الدموع سلاحاً أمام هذا الحدث الجلل^(١)؛

تبكي الحنيفة البيضاء من أسف كما بكت لرسول الله أجفان
على بيوت من الإسلام عاطلة كأنها لم تكن بالذكر تزدان
صارت كنائس قد طال الضلال بها فليس إلا نواقيس وصلبان
حتى المحاريب تبكي وهي جامدة حتى المنابر ترثي وهي عيدان
تلك المصيبة أنست ما تقدمها وما لها مع طول الدهر نسيان

ويتساءل الرندي عن قواعد وأركان الأندلس، مستكراً فقد تلك المدن الجليلة إذ يقول^(٢):

فسل بالنسية ما شأن مرسية وأين شاطبة أم أين جيان
وأين حمص وما تحويه من نزه ونهرها العذب فياض وملان
قواعد كن أركان البلاد وما عسا البقاء إذا لم تبق أركان

ويستتفر المغاربة مؤنباً ومادحاً لهم بصفات الشجاعة والخبرة في المعارك والكثرة، وكلها صفات تؤهلهم لمساعدة الأندلسيين ومع ذلك فهم يعيشون في رغد وعزة في أوطانهم، فلم لا يهبون لمساعدة أهل الأندلس وقد سارت الركبان بخبر قتلهم وأسرههم وأخذ بلادهم ؟ وكأن الشاعر يؤنبهم على فتور همتهم ناحية الأندلس وأهلها،

(١) نفسه ، ص ١١٣ .

(٢) الفاسي، الذخيرة السنية ، ص ١١٣ .

فيعود ليذكرهم أنهم اخوانهم في العقيدة، ولا داعي للاغترار بالدعة التي يعيشونها
فالأندلسيون بالأمس كانوا ملوكاً وسادة في أوطانهم لكنهم اليوم عبيد في بلاد الكفر
والضلال^(١):

يا راكبين عتاق الخيل ضامرة	كأنها في مجال السبق عقبان
وحاملين سيوف الهند مرهفة	كأنها في ظلام النقع نيران
وراتعين وراء البحر في دعة	لهم بأوطانهم عز وسلطان
أعندكم خبر من أهل أندلس	فقد سرا بحديث القوم ركبان
ماذا التقاطع في الاسلام بينكم	وأنتم يا عباد الله إخوان
يا من لذلة قوم بعد عزتهم	كأنهم وهم الأحرار عبدان
ألا نفوس أبيات لهم همم	أما على الخير أنصار وأعوان
بالأمس كانوا ملوكاً في منازلهم	واليوم هم في بلاد الكفر عبدان

ويختم قصيدته بصور موحية مؤثرة للعائلة الأندلسية التي تشتت أفرادها
وانتهكت حرمتها وأصبح أفرادها رقيقاً بعد أن كانوا سادة في وطنهم، أنها صور
إنسانية مؤلمة لأناس مدنيين لم يشاركوا في الحرب كالأطفال والنساء، وختم الرندي
قصيدته بصور تجسد ملامح النكبة بأدق صورها ومعانيها وتكشف بحسرة عن تفاصيل
جرائمهم وفي هذا يقول^(٢):

ولو رأيت بكاهم عند بيعهم
لَهَالِك الأمر واستهوتك أحزان

(١) نفسه ، ص ١١٣ .

(٢) نفسه ، ص ١١٤ .

كم من أسير بحبل الدلّ معتقلٌ كأنه ميتٌ والدلّ اكفانٌ
يا ربَّ أمّ وطفلٍ حيلَ بينهما كما تفرقُ أرواحٌ وابدانٌ
وظفلةٌ ما رأتها الشمسُ قد برزتُ كأنما هي ياقوتٌ ومرجانٌ
يقودها العليج للمكروه مكرهةً والعينُ باكيةٌ والقلبُ حيرانٌ
لمثل هذا يذوب القلب من كمد إن كان في القلبِ إسلامٌ وإيمانٌ

ومن الجدير ذكره أن المقرئ في النفح م ٤٨٨/٥ قد ذكر أن هناك زيادات على هذه القصيدة ليست من نظم الرندي، وذلك لذكرها غرناطة وبسطة وغيرها مما أخذ من البلاد بعد موته، وقد نشر الأستاذ عبد الله كنون الزيادة التي لم تؤكد نسبتها وأن رُجح عند البعض^(١) أنها ليحيى القرطبي وهو من الموريسكين^(٢) والشاعر يتساءل متحسراً معدداً مزايا كل من غرناطة وبسطة والمريّة ومالقة مابناً لها ليعظم الأسف على فقدانها وليعبر عن ألمه وحسرتة لسقوطها، وليبين أن سكان تلك المدن قد قاتلوا الإسبان بضراوة قبل أن تسقط مدينتهم^(٣):

وأين غرناطة دار الجهاد فكم أسد الشرى وهم في الحرب فرسان
وأين حمراؤها العليا وزحزفها كأنها من جنان الخلد عدنان
وعابد خاشع لله مبتهلٌ والدمعُ منه على الخدين طوفانٌ

(١) مثلاً الداية، الأدب الأندلسي والمغربي، ص ٢٤٨-٢٥٢.

(٢) أنظر ترجمة يحيى القرطبي الموجزة عند : شهاب الدين الخفاجي، ربحانة الألبا وزهرة الحياة الدنيا، ج ١/٣٧٠-٣٧٤ تحقيق عبد الفتاح الحلو .

(٣) عبد الله كنون، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية ، مدريد، م ٦، العدد ١-٢ عام ١٩٥٨ م ، ص

وأين بسطة دار الزعفران فهل
 رأى شبيبها لها في الحسن انسان
 كذا المرية دار الصالحين فكم
 قطب بها علم غوث له شان
 وأين مألقة مرسى المراكب كم
 أرست بساحلها فلك وغربان
 وكم بداخلها من شاعر فطن
 وذو فنون له حذق وتبيان
 وكم شجاع زعيم في الوعى بطل
 بدا له في العدا فتك وإمعان
 ووادي آش غدت بالعز عامرة
 ورد توحيدها شرك وطغيان

أما قصائد رثاء المدن التي نظمها عبد الكريم القيسي فتكتسب أهمية خاصة وذلك لكونه شاهد على عصر سقوط وانهار أجزاء عديدة من مملكة غرناطة وهي في النزاع الأخير لها أي في القرن التاسع الهجري، وصدرت أشعاره من رحم المعاناة التي عاشها، ولذلك جاءت مشاعره صادقة تنطق بما يجيش في نفسه وتتجسد في ثناياها معاني الألم، إضافة لقيمة أشعاره الوثائقية التاريخية والاجتماعية لا سيما وأن ما يسقط من بلاد المسلمين يتحول قسراً الى أرض نصرانية معادية، فضياع حصن اللقون - وهو من حصون وادي آش - عام (٨٣٦هـ) أدى إلى اتخاذ الأعداء له عماداً ووسيلة للاستيلاء على وادي آش بعد ذلك لذا يشتم الشاعر ويدعو على سكان وادي آش ويلومهم بحسرة على جهلهم وعدم يقظتهم لغدر قشتالة وحليقاتها، ويتنبأ القيسي في البيت الأخير أن ضياع الجد والحزم سيؤدي الى سقوط المملكة كلها تحت قبضة عدو لا يرحم، فيقول^(١):

يا أهل وادي الأش لا تدرّ تركم
 ولا برحتم لقي للكرب والكم

(١) القيسي، ديوان عبد الكريم القيسي، ص ٣٤٧.

ضَيِّعْتُمْ سَفَهَا حَصَنَ اللَّقُونِ وَلَمْ تَرَاقِبُوا فِيهِ حَقَّ الْوَاحِدِ الصَّمَدِ
 حَتَّى حَوَاهُ الْعَدَا غَدْرًا وَصَارَ لَهُمْ لَغْزُوكُمْ عَمْدَةً مِنْ أَفْضَلِ الْعُمَدِ
 فَاسْتَشْعَرُوا إِذْ اضْطَعْتُمْ فِيهِ حَزْمَكُمْ وَالْجِدَّ قَرَبًا انْقِضَاءِ الْوَقْتِ وَالْأَمَدِ

ولم يتمالك القيسي نفسه عندما وصل إليه خبر سقوط جبل الفتح - جبل طارق - عام (٨٦٦هـ) فاشتدت نار الأسى لهيباً في ضلوعه وبدأت عيونه لا تكف عن ذرف الدموع فلم يعد قادراً على إخفاء عبوسه وحزنه وأساه صباح مساء وذلك لما يمثله جبل الفتح من أهمية مادية ومعنوية عند الأندلسيين فهو المنقذ والمنفذ لهم وهو رمز لزهو الفتح وقوته فاسمعه يئن قائلاً^(١):

أُوَارِي أَوَارِ الْقَلْبِ مَعَ شِدَّةِ الْفَجْهِ فَتُبْدِيهِ عَيْنٌ دَمْعُهَا دَائِمُ السَّفْحِ
 وَأَبْدِي مِنَ التَّقْطِيبِ لِلْفَتْحِ حَالَةً تَسُوءُ صَدِيقِي فِي مَسَاءٍ وَفِي صَبْحِ
 وَأَضْفِي الَّذِي أَلْقَى مِنَ الْحَزَنِ وَالْأَسَى وَظَاهِرَ حَالِي - الدَّهْرِ - يُوْذَنُ بِالصَّفْحِ

ويُنشأ حواراً بعد ذلك ليؤكد ان الأندلسيين قد أصبحوا مهددين بالذبح كالأنعام بعد سقوط جبل طارق، لذا فالحزن على سقوطه فرض واجب على جميع الأندلسيين وحرام عليهم السرور لأن الجرح عظيم بفقدته، فقد أحس الشاعر أنها بداية النهاية للوجود العربي الإسلامي في الأندلس^(٢):

وَقَائِلَةٌ: مَالِي أَرَاكَ مَقْطُوبًا كَأَنَّكَ لِلتَّقْطِيبِ هُتِدْتَ بِالذَّبْحِ

فقلت: دعيني الحزنُ فرضٌ على الوري أما قد حوى أعداؤنا جبل الفتح؟

حرامٌ علينا البشرُ والسَّمْحُ بعده وفي القلب من آلامه أعظمُ الجرح

(١) القيسي، ديوان عبد الكريم القيسي، ص ٣٤٨.

(٢) نفسه، ٣٤٨ و ٣٤٩.

ويعزرو القيسي تلك النازلة سقوط جبل طارق - إلى تدبير الله وقضائه الذي لا مرد له وهو موقن أن تلك الغمة لا نجاة منها إلا باللجوء إلى الله والتوجه إليه بالدعاء لاستعادة ما فقد، ويلاحظ أن روح الرضوخ والاستسلام للواقع المرير سيطرت على القصيدة، دون دعوة للجهاد^(١):

عَسَى مَنْ قَضَى فِيهِ بِأَخْذٍ يُعِيدُهُ وَيُذْهِبُ مَا أَشْكَوهُ مِنْ شِدَّةِ الْقَرْحِ
فمنه تعالى نرتجي الخير كله وما زال أهل الفضل والمن والمنح

إنها أحداث جسيمة في عصر غروب شمس العرب والاسلام عن الأندلس يسجلها الشاعر باختزال ربما لعمق جرحه وشدة ألمه وربما ليأسه من الواقع، فبعد سقوط حصن اللقون وجبل الفتح يسقط ثغر بلّس (بلش الحمراء)^(٢) عام (٨٩٣هـ) ان سقوط المدن والحصون يتم بشكل سهل وكأنه بيع، ان انخراط الدولة الأحرورية من رأسها الى أخمصها جعلها تفقد المدينة تلو الأخرى، وزمام الأمور أفلت من الحاكم، وبسقوط الثغور والحصون التي تحمي المدن أصبحت الإقامة في المدن مهددة، والجلوس يعني الراحة والاستقرار، وهذا ما لا يجده القيسي في بلاده إذ يقول^(٣):

جبلُ الفتحِ بيعَ بالغربِ بخساً وتلاه بالبيع في الشرق بلّس

واللقون استبيح بالجوف غدراً حين فيه بواجب الحفظ ذلّس
فأميرُ الجزيرة اليوم منها في الجهات الثلاث والله مُملِس
يا مُريدَ الجلوس فيها اختياراً ارتحل عنها والتمس أين تجلس

(١) نفسه ، ص ٣٤٩.

(٢) أنظر فهرسة أماكن الديوان: ديوان عبد الكريم القيسي، ص ٤٩٩.

(٣) القيسي، ديوان عبد الكريم القيسي، ص ٤١٥.

ويتواصل سقوط المدن والثغور والحصون فهذا حصن (أرشدونة) ^(١) في الشمال الشرقي من مالقة يسقط نهائياً عام (٨٦٧هـ) ليغدو انهيار مملكة غرناطة أمراً واضحاً ومتوقفاً للشاعر ولغيره ولم يعد سقوط المدن والحصون يثير الدهشة أو الحيرة أو القلق، فلقد استعاض الشاعر عن كل ذلك باستسلام ويأس ^(٢):

مخايلُ هذا الحالُ تؤذُنُ بالهَلِكِ وتقضي لنا بالذلِّ والعزِّ للشركِ

وإنَّ بلادَ المسلمين بأسرها بذا القطرِ يحويها العدوُّ بلا شكِّ

ويقسِّمُ بين القتلِ والأسرِ أهلها فما عن كلا الأمرين شخصٌ بمنفكِّ

فمن قسَّمه القتلُ استراحَ من العنا ومن سَهَّمه الأسرُ استمرَّ بلا فكِّ

وبحس القيسي المرفف العارف لمواطن خلل مجتمعه، يبرز القيسي مواطن الخلل بعد توالي سقوط المدن والحصون، فالتكالب على المال والسلطة واتباع طرق الكذب والغش والتدليس، وترك حقوق الإسلام هي أسباب سهلت على الأعداء الاستيلاء على المدن وهزيمة المسلمين ^(٣):

ومن قَبَلها حصنُ اللقون استباحه ومن جبل الفتح انتقى ذرَّةَ السَّكِّ

ونحن على نهج الشتاتِ مسيرنا لإدراك مال المسلمين أو المُلْكِ

وهيهات من إدراكِ حقِّ بباطلِ وغِشٍّ وتدلّيسٍ وبهتانٍ أو أفكِ

فوا أسفاً للدينِ أهمل حَقُّه وقوبل منه السُّترُ بالكشفِ والهتكِ

وهُدَّتْ مبانيه وذُكَّتْ سفاهة فساءتْ بما تُبدي من الهدِّ والدكِّ

(١) انظر: ديوان القيسي، ص ٤٩٧؛ فهرسة الأماكن.

(٢) القيسي، ديوان عبد الكريم القيسي، ص ٣٦٣.

(٣) نفسه، ص ٣٦٣ و ٣٦٤.

وتأتى دعوة الشاعر القيسي في ختام القصيدة لقومه بالاستيقاظ من النوم الذي يغطون فيه لا للمقاومة بل للبكاء دموعا ودما على ما سقط من مدن وحصون إذ يقول^(١):

أفيقوا أفيقوا واهجروا النوم إنه
حديث صحيح ما أقول وما أحكي
ومن كان فيما قد مضى الدمع باكيا
ففرض عليه قاني الدم أن يبكي

وفي قصيدة رثائية أخرى يتجه القيسي إلى الله ليفك الأزمات والكربات التي حلت بهم، فقلوبهم مليئة بالخوف وعيونهم تفيض بدموعها^(٢):

يا من إذا يدعى يجيب تفضلاً
وإذا له يشكى يحن ويعطف
يا من إذا الأزمات عمت لم يزل
بخلق يرفق بالجميع ويلطف
أنت الرجا فبلادنا حالت لما
نلقاه من خطب العداوة ونألف
فقلوبنا للخوف جم خفقها
وجفوننا للدمع ما أن تطرف

إن أعداءهم قد عزموا على إجلائهم عن أرضهم وعلى محو دينهم وهي ليست قضية فردية بل هي مأساة أمة وحضارة، وإحساس الشاعر بالخيبة الحضارية أمام قوة واستعداد التحالف النصراني، جلال القصيدة بانكسار واستسلام، إذ يقول^(٣):

عزموا على إجلائنا عن أرضنا
من بعدما اجتمعوا لنا وتألفوا
وأتوا بكل مكيدة قد أرهفت
أراؤها في أهبة لا توصف

(١) نفسه ، ص ٣٦٤.

(٢) نفسه ، ص ٢٩٥.

(٣) نفسه ، ص ٢٩٥.

وتطلّعوا فرقا لهدم معالم
للدين شيدا بناؤها واستشرفوا
لم يبق رمح عندهم إلا أتوا
قصداً به لجهادنا أو مرهف

ويقف القيسي أمام الغارات العسكرية الليلية المعادية موقف المنزعج والمتفجع،
فالخطب عظيم ولا يطاق، فلقد هجروا المضاجع وعانوا الأرق، تلك الغارات عانت
منها معظم مدن المملكة ويوضح القيسي أن هدف الأعداء من تلك الغارات هو إجلاؤهم
عن وطنهم وقتل المسلمين وسبي نسائهم، هذا ما حصل في بسطة ويحصل في غرناطة
أيضاً، ويؤكد القيسي على أن حرب الاسبان ضدهم هي حرب دين ووطن بدليل قوله
(في أرضنا، كل مسلم) فاسمعه يقول^(١):

مصاب عظيم دهمنا به
بهذي الديار وخطب طرق
هجرتنا المضاجع من أجله
وأجفاننا اكتحلت بالأرق
ولم يبق فيها أمرو قد تراه
بذا القطر إلا اعتراه الفرق
لهذا العدو الذي أمنا
وهاز من السبي فوق المني
حرق الزرع في أرضنا فاحترق
وكم مسلم دمه قد هرق
وما خرق اليوم في بسطة
بغرناطة مثله ما خرق

ولنقف الآن أمام تجربة إبداعية عميقة قصيدة طويلة في رثاء مدن أندلسية عديدة
سقطت في القرن التاسع الهجري وقائلها مجهول، وربما نظمت القصيدة بعد سقوط
غرناطة بقليل^(٢) وتطالعنا المراثية المجهولة التي تقع في مئة وأربعة وأربعين بيتاً يبكي

(١) القيسي، ديوان عبد الكريم القيسي، ص ٢٨٣.

(٢) خفاجي، قصة الأدب في الأندلس ج ٢/٤٩.

فيها صاحبها سقوط عدد من مدن مملكة غرناطة على طريقة أبي البقاء الرندي، وهو يحث المسلمين على الجهاد مع التذكير بضرورة التمسك بتعاليم الاسلام والتوبة الى الله، يفتتح الشاعر قصيدته بالتحسر والأسف للتغيرات التي طرأت على مدينة رندة فيتساءل بذهول قائلاً^(١):

أحقاً خبا من جو رندة نورها	وقد كسفت بعد الشمس بدورها ؟
أحقاً خليلي أن رندة أقفرت؟	وأزعج عنها أهلها وعشيرها؟
وهدت مبانيها وثلت عروشها	ودارت على قطب التفرق دورها
سأبكي وما يجدي على الفائت البكا	بعبرة حزن ليس يرقى عبورها
شأبيب دمع بالدماء مشوبة	يساجل قطر الغاديات درورها
فوا حسرتنا كم من مساجد حولت	وكانت إلى البيت الحرام شطورها

ويكي مالقة الحساء التي سقطت عام (٨٩٢هـ) وما يحيط بها من مدن مثل بلش والمنكب وبسطة ووادي آش ثم يعرج على غرناطة فيصفها وقد تغيرت أحوالها وأظلمت أرجاؤها واقفرت منازلها إلا من الكفار، ومن اللافت للنظر وصفه لبلش أنها قطعت رجلها بيمينها وكان هناك من قصر أو خان بلاده من سكانها مما سهل من سقوطها^(٢):

فمالقة الحساء تكنى أسيفة	قد استفرغت ذبحاً وقتلاً حجورها
وبلش قطت رجلها بيمينها	ومن سريان الداء بأن قطورها

(١) نفسه ، ص ١٣٢ .

(٢) نفسه ، ص ١٣٤ .

وبالله إن جئت المنكب فاعتبر
فقد خف نأديها وجف نضيرها
ألا ولتقف ركب الأسى بمعالم
قد أرتج باديها وضح حضورها
محل قرار الملك غرناطة التي
هي الحضرة العليا زهتها زهورها
نرى الأسى أعلامها وهي خشع
ومنبرها مستعبر وسريرها

ويركز الشاعر على صور مؤلمة لجرائم بشعة اقترفها (قشتالة واراغون)
التحالف الصليبي ضد المسلمين بعد سقوط المدن بأيديهم من اغتصاب للفتيات، وحرمان
لكبار السن حتى من شرب الماء، ومن فصل بين الأم وطفلها، ومن تغيير لملاح
المساجد لتصبح كنائس، ومن تبديل ديانة الصغير وتتصيره، كل هذا يجعل الشاعر
يتمنى لو أنه لم يولد إذ يقول^(١):

وكم طفلة حسناء فيها مصونة
إذا أسفرت يسبى العقول سفورها
فأضحت بأيدي الكافرين رهينة
وقد هتكت بالرغم منها ستورها
وكم من عجوز يحرم الماء ظمؤها
على الذل يطوى لبثها ومسيرها
وكم من صغير حيز من حجر أمه
على الذل يطوى لبثها ومسيرها
وكم من صغير بدل الدهر دينه
وآياتها تشكو الفراق وسورها
فمحرابها يشكو لمنبرها الجوى
بليت ولم يلفح فؤادي حرورها
ويا ليت أمي لم تلدني وليتني

(١) نفسه ، ص ١٣٣.

وذهب الشاعر المجهول إلى أن ما نزل بالمسلمين كان عقاباً من الله لهم على حياة اللهو والفساد التي كانوا يعيشونها وعلى إغفالهم حقوقه سبحانه وتعالى فسلط عليهم أولئك الكفرة الأشداء ويدعو إلى الجهاد مستنفرًا المسلمين للاستعداد بالعدة والرجال ثم التوكل على الله والثقة بنصره، إذ يقول^(١):

أضعنا حقوق الرب حتى أضاعنا	وقضت عرى الاسلام إلا يسيرها
بما قد كسبنا لنا ما أنا لنا	كذي السيرة السوأى لدى من يسيرها
بعصياننا استولى علينا عدونا	وعاثت بنا أسد العدا ونمورها
نعم سلبوا أوطاننا ونفوسنا	وأموالنا فينا أبيحت وفورها
وقد عوت الافرنج من كل شاهق	علينا فوفت للصليب نذورها
وجاءت الى استئصال شافة ديننا	جيوش كموج البحر هبت دبورها
معاشر أهل الدين هبوا لصعقة	وصاعقة وأرى الجسوم ظهورها
أنادي لها عجم الرجال وعربها	نداء سراة الفقر إذ ضل عيرها
واستنفر الأدنى فالأدنى فريضة	على زمر الاسلام جلت أجورها
فلا يخذل الرب المهيمن أمة	تدين بدين الحق وهو نصيرها

(١) نفسه ، ص ١٣٥ .

ومن الجدير ذكره أن جل قصائد رثاء البلاد الأندلسية بمدنها وقلاعها اتسمت بالطول الذي أتاح للشعراء التفصيل في عرض الأحداث وامتازت كذلك بالأسلوب القصصي والواقعية فقد عمد قائلوها إلى وصف مجريات الأحداث كما وقعت (كما شاهدوها أو سمعوا عنها) وذكروا مصير العائلة الأندلسية وتشتت أفرادها، وقارنوا أحوال البلاد والعباد قبل السقوط وبعده من خلال ذاكرة الشاعر في الماضي ومقارنتها بعد السقوط بالحاضر الذي عاشه الشاعر كل ذلك ساعد على اغناء القصائد بالأسلوب القصصي نعم، إن الحزن والأسى قد استبد بالشعراء وغلبتهم النزعة التشاؤمية وكان إحساسهم بالنهاية صادقا ومؤلما. ولم تجد صرخاتهم أمام الفساد وعدم الاستعداد للحرب. لكنهم أرسلوها صرخة لعلها تساعد على جمع الصفوف وتحرير البلاد .

وهكذا سقطت المدن الأندلسية إلى غير رجعة، وبقي شعر رثائها حبلأ سريا يغذي ذاكرتنا بماض وعبرة وأسى دفين.

الفصل السادس

الدراسة الفنية

بنية القصيدة

خضعت بنية القصيدة في عصر بني الأحمر إلى البناء التقليدي للقصيدة العربية الذي عرفه الشعر العربي القديم، وعناصر هذا البناء هي: المطلع والمقدمة وحسن التخلص والمضمون والخاتمة.

أما المطلع فقد أطلق عليه النقاد العرب القدامى حسن الابتداء والاستهلال ونال عنايتهم فهو بمنزلة الوجه للإنسان والمفتاح للقل، وهو الباب الذي نلج فيه إلى عالم القصيدة^(١) وهو مرتكز القصيدة وعمودها الأول.

وفي ذلك يقول ابن رشيق:

"الشعر قفل أوله مفتاحه وينبغي للشاعر أن يجود ابتداء شعره فإنه أول ما يقرع السمع وبه يستدل على ما عنده من أول وهلة"^(٢).

أما حازم القرطاجني فالمطلع عنده هو "الطليعة التي تزيد النفس بحسنها ابتهاجاً ونشاطاً لتلقي ما بعدها"^(٣).

وإذا نظرنا إلى قصائد الرثاء في عصر بني الأحمر وجدنا عناية فائقة من الشعراء بمطالعها إذ جاءت في معظمها متفقة مع ما اشترطه النقاد العرب، من أن إحياء المطلع بمضمون القصيدة وموضوعها العام، وأن يمتاز بالسهولة والبعد عن التعقيد والتكلف والحشو والغريب من الألفاظ، كما بدأ التلاؤم واضحاً بين شطري المطلع الواحد .

ولجأ معظم الشعراء - في هذا العصر - إلى التنويع في الجمل بين إنشائية وخبرية، ومالوا إلى التصريح رغبة منهم في تحقيق الموسيقى وجذب انتباه المتلقين، فأول ما يعلق بالذاكرة من القصيدة مطلعها.

وابتعد جلهم عن المطالع الغزلية لأنها مناقضة لغرض الرثاء^(٤) وتحدث عدد من الشعراء في المطلع عن الموت وتقلبات الحياة والدنيا، من ذلك ما استهل به ابن الجياب قصيدته التي نظمها في رثاء ولده أبي القاسم إذ قال^(٥):

(١) انظر: أبو هلال العسكري، الصناعتين ص ٤٩٤-٤٩٦، حازم القرطاجني: منهاج البلغاء وسراج الأنبياء ص ٣٠٩، عبد الحميد الهرامنة، القصيدة الأندلسية خلال القرن الثامن الهجري ١٢٣/٢، يوسف بكار بناء القصيدة، ص ٢٠٣-٢٠٩، محمد مفتاح، في سيمياء الشعر القديم ص ٢٣، حسين خريوش، مقالة بعنوان دراسة الجانب الفني في المراثية الأندلسية، مجلة المعرفة السورية، المنة ١٨ ص ١٠٣، مقبول على النعمة، المراثي الشعرية في عصر صدر الإسلام، ص ١٧٥.

(٢) ابن رشيق، العمدة ١٩١/١

(٣) حازم القرطاجني، منهاج البلغاء، ص ٣٠٩.

(٤) انظر، حازم القرطاجني، منهاج البلغاء، ص ٣٥١

(٥) ابن الجياب، ديوان ابن الجياب، ص ١٥٦

أما شعوبٌ فخيمت بشعاب فسطت عليّ وقطعت أسبابي

وما استهل به أبو عبد الله الأزدي المربع قصيدته في رثاء والد لسان الدين وأخيه إذ قال^(١):

خطب ألم فأذهب الأخ والأبنا رغباً لأنف شاء ذلك أو أبى

ولقد اهتم شعراء هذا العصر بالإشارة في المطلع إلى فحوى القصيدة وغرضها العام، ويرى حازم القرطاجني أن الشاعر الجيد "يجعل مبدأ كلامه دالاً على مقصده ويفتح القول بما هو عمدة في غرضه"^(٢) وما يناسب غرض الرثاء افتتاح مطالع قصائده بالمطالع البكائية من مخاطبة للعين، ووصف للدموع، وغير ذلك، ومن ذلك ما استهل به علي بن عمر القيحاوي قصيدته في غرض الرثاء فقال^(٣):

حمام حمام فوق أيك الأسى تشدو تهيج من الأشجان ما أوجد الوجد

وما استهل به أبو حيان الأندلسي قصيدته في رثاء ابنته نضار حيث قال^(٤):

على مثل هذا الرزء تفنى المدام وتفنى الهموم الفادحات الفواجع

وما استهل به الملك يوسف الثالث قصيدته في رثاء ولده فقال^(٥):

أضرم عبد الله جمر الأسى في القلب لما لم يلح بالحمى

وما بدأ به عبد الكريم القيسي قصيدته في رثاء شهداء لورقه إذ قال^(٦):

لمصاب أندلس تصوب الأدمع ولما جرى فيها تذوب الأضلع

(١) لسان الدين، الإحاطة بنصوص جديدة لم تنشر، ص ١١٦.

(٢) حازم القرطاجني، منهاج البلغاء، ص ٢٠٦.

(٣) لسان الدين، الكتيبة الكامنة، ص ١٠٧.

(٤) أبو حيان، ديوان أبي حيان الأندلسي، ص ١٢٢.

(٥) يوسف الثالث، ديوان ملك غرناطة، ص ١٢٤.

(٦) عبد الكريم القيسي، ديوان عبد الكريم القيسي، ص ١٧٨.

وما استهل به ابن الحاج الغرناطي قصيدته في رثاء خاله عبد الله اب عاصم القيسي حيث قال^(١):

هو الخطب هل عجت به قيس عيلان نشيج الحجيح استقبلوا شعب نعمان

إن افتتاح قصيدة الرثاء بالبكاء ووصف فقر الديار وتشتت الأحبة ونعي الشباب ودم الزمان أمور مستحبة في المراثي^(٢) لذا صور الشعراء في مطالع قصائدهم حزنهم وأرقهم^(٣) وما فعله الفراق بهم كما وصفوا المصيبة التي حصلت بموت المرثي، ويتجلى ذلك في مطلع القصيدة التي رثى بها ابن الحاج الغرناطي الطبيب ابن عمار حيث قال^(٤):

ألا أسعدا عيني على السهد والبكا فقد واصل السهد المبرح تذكاري

ومطلع قصيدة الملك يوسف الثالث في رثاء ابن زمرك إذ قال^(٥):

يا نائم الجفن أسعد دائم السهر ييكى دماً لقتيل الصارم الذكر

ونظم لسان الدين قصيدة في رثاء أبي جعفر بن صفوان استهلها بقوله^(٦):

تولى ابن صفوان فلا ربع بعده من الأنس إلا عاد وهو خراب

وحين رثى العلماء والأدباء تحدث الشعراء في مطالع قصائدهم عن أثر موتهم على الأقلام والعلوم والآداب والأوراق وصوروا حزنهم ومثال ذلك مطلع قصيدة نظمها لسان الدين في رثاء ابن الجياب^(٧):

ما لليراع خواضع الأعناق طرق النعي فهن في إطراق

ومطلع قصيدة لعبد الكريم القيسي في رثاء ابن الأزرق إذ قال^(٨):

قلم البلاغة بعد موت الأزرق في مآتم من حزنه كالمهراق^(٩)

(١) ابن الأحمر، نثير فراند انجمان، ص ٣١٤.

(٢) أنظر: أبو هلال العسكري، الصناعتين، ص ٤٨٩.

(٣) للمزيد انظر القيسي، ديوانه، ص ٣٤٨ و ٤٢٠.

(٤) المقرئ، نوح الطيب، ١١٨/٧.

(٥) يوسف الثالث، ديوان ملك غرناطة، ص ٥٧.

(٦) لسان الدين، الصيب والجهام، ص ٣٠١.

(٧) المقرئ، نوح الطيب، ٤٤٥/٥، لسان الدين، ديوان لسان الدين، ٧٠٨/٢.

(٨) القيسي، ديوان عبد الكريم القيسي، ص ٤٠٢.

(٩) المهراق: هو الصحيفة البيضاء يكتب فيها انظر المعجم الوسيط مادة هرق ج ٩٨٢/٢.

وما استهل به أبو عبد الله محمد بن الجبير قصيدته في رثاء محمد السرقسطي^(١):
 بكتك رسوم الدين يا أوحـد العـليا ونورك لما غاب أظلمت الدنيا
 واستهل قسم من المراثي بمطلع حكـمي أودعت فيه خلاصة التجربة والتأمل بما يتناسب
 وغرض القصيدة، ومن ذلك ما استهل به لسان الدين بن الخطيب قصيدته في رثاء أبيه^(٢):
 سهام المنايا لا تطيش ولا تخطي وللهـر كف تسترد الذي تعطي
 ومطلع قصيدة سهل الأزدي في رثاء صديق له من بني أبي الوليد بن رشد إذ قال^(٣):
 ألا ليت شعري هل لطالب غاية وصول وأحداث الزمان تعوقه
 وما استهل به لسان الدين قصيدته في رثاء الملك أبي الحجاج يوسف الأول^(٤):
 العمر نوم والمـنى أحلام ماذا عسى أن يستمر مقام
 وقوله في مستهل قصيدة له في رثاء جدة الملك أبي الحجاج يوسف الأول^(٥):
 نبئت على علم يقين من الدهر ونعلم أن الخلق في قبضة القهر
 ومطلع الرندي في رثاء الأندلس يقول^(٦):
 لكل شيء إذا ما تم نقصان فلا يغر بطيب العيش إنسان
 ودعا كثير من الشعراء في مطالع قصائدهم لقبر المرثي بالسقيا^(٧) ومن ذلك مطلع
 قصيدة ابن شبرين التي رثى بها الوزير ابن الحكيم يقول^(٨):
 سقى الله أشلاء كرمـن على البلى وما غص من مقدارها حادث البلا

(١) القلصادي، رحلة القلصادي، ص ١٦٥

(٢) لسان الدين، الإحاطة ٣/٣٩١، وديوان لسان الدين، ٢/٤٦٣

(٣) نفسه ٤/٢٨٢

(٤) لسان الدين، ديوان لسان الدين، ٢/٥٥٦

(٥) نفسه ١/٣٩٦، المقرئ، نفح الطيب ٥/٨١

(٦) الفاسي، الدخيرة السنية، ص ١١٢.

(٧) لمزيد من الأمثلة أنظر: ابن فركون، ديوانه، ص ٣٦١، ولسان الدين، الإحاطة، ٣/٣٤٢

(٨) لسان الدين، الإحاطة، ٢/٤٧٤

ومطلع قصيدة محمد بن عبد الحكيم في رثاء أخيه^(١):

أخي حسينا وحيد الزمان سقى الله قبرك صوب الولي

ومطلع قصيدة أبي القاسم الحسني في رثاء محمد بن علي السبتي حيث قال^(٢):

سقى الله بالخضراء أشلاء سُودد تضمنهن الترب صوب الغمام

وجمع بعض الشعراء في المطلع بين التهنئة والعزاء واقتصر ذلك على القصائد التي رثي بها الملوك والأمراء وهو ابتداء متلائم مع الموقف الذي وقفه أولئك الشعراء أمام الملوك الجدد ويتجلى ذلك في مطلع القصيدة التي نظمها ابن زمرك في رثاء الملك الغني بالله وتهنئة ولده يوسف الثاني إذ قال^(٣):

عزاء ففي أمثاله يعزب الصبر هناء على أمداحه يخطب الدهر

وقوله في قصيدة ثانية في الغرض نفسه^(٤):

عزاء فإن الشجو قد كاد يسرف وبشرى بها الداعي على الفوز يشرف

واستهل ابن الجياب قصيدة نظمها في رثاء الملك محمد بن محمد وتهنئة ولده أبي عبد الله محمد ثالث ملوك بني الأحمر بقوله^(٥):

مصائب جليل وصنع جميل وملك سعيد وأجر جزيل

ومطلع قصيدة لابن فركون في رثاء الملك يوسف الثالث وتهنئة ولده أبي عبد الله محمد يقول^(٦):

أخطب هوى بالنيرات من العلا وبشرى بها وجه الزمان تهلا

لقد حرص الشعراء في هذا العصر على تنويع الجمل في مطالعهم بين جمل إنشائية وأخرى خبرية، ففي هذه الأساليب تنبيه وإيقاظ لنفس المتلقي^(٧)، وقد جاءت مطالع قصائدهم

(١) لسان الدين، الكتيبة الكامنة، ص ٢١٣

(٢) لسان الدين، الإحاطة، ١٥٢/٣

(٣) ابن زمرك، ديوان ابن زمرك، ص ٢٨٣

(٤) نفسه، ص ٤٤٠

(٥) ابن الجياب، ديوان ابن الجياب، ص ٥٨٣

(٦) ابن فركون، ديوان ابن فركون، ص ٣٨٢

(٧) انظر: حازم القرطاجني، منهاج البلغاء، ص ٣١٠

متنوعة في أساليبها، وأكثر صيغ الإنشاء تردداً كانت الاستفهام والنداء والأمر ومن ذلك ما استهل به أبو حيان الأندلسي إحدى قصائده في رثاء ابنته نضار^(١):

أمن بعد أن حلت نضيره في الرمس تطيب حياتي أو تلذ بها نفسي

ومطلع قصيدة لابن الجياب في رثاء الملك أبي الوليد إسماعيل يقول^(٢):

أيا عبرة العين أمزجي الدمع بالدم ويا زفرة الحزن احكمي وتحكمي

وما استهل به ابن الأبار قصيدته في رثاء أبي زكريا الحفصي يقول^(٣):

بينني ثلاثاً سلوة الأيام أودى الحمام بناصر الإسلام

وجاء مطلع قصيدة محمد الفهري ابن رشيد جملة خبرية يقول^(٤):

شباب ثوى شابت عليه المفارق وغصن ذوى نأقت إليه الحدايق

وينوع ابن الجياب بين الخبر والإنشاء في مطلع قصيدته في رثاء ولده أبي القاسم^(٥):

هو البين حتماً لا لعل ولا عسى فما بال نفسي لم تفض عنده أسي

وزاد من جمال بعض المطالع في مراثي هذا العصر أن الكثير من قائلها استخدموا ومن ما جاء في مطلع القصيدة التي نظمها أبو المطرف بن عميرة في رثاء مدينته بلنسية إذ قال^(٦):

ما بال دمك لا ينني مدراره أم ما لقلبك لا يقرر قراره

(١) أبو حيان الأندلسي، ديوان أبي حيان الأندلسي، ص ٢٢٨

(٢) ابن الجياب، ديوان ابن الجياب، ص ٥٨٧

(٣) ابن الأبار، ديوان ابن الأبار، ص ٢٦٢

(٤) لسان الدين، الإحاطة ١٤١/٣

(٥) نفسه ١٣٥/٤

(٦) الحميري، صفة الأندلس من الروض المعطار ص ٥١

ومطلع إحدى قصائد أبي حيان في رثاء ابنته نضار يقول^(١):

عزفت نفسي عن هذا الوري بعد أن حلت نضار في الثرى

وما استهل به أبو عبد الله بن جزي قصيدته في رثاء ابن الجياب إذ قال^(٢):

ألم تر أن المجد أقوت معالمه فأطنا به قد قوضت ودعائمه

ومطلع قصيدة لسان الدين حين رثى نفسه فقال^(٣):

بعدنا وإن جاورتنا البيوت وجئنا بو عظ ونحن صموت

وقوله في مطلع قصيدة له في رثاء المعتمد بن عباد يقول^(٤):

قد زرت قبرك عن طوع بأغमत رأيت ذلك من أولى المهمات

وأخفق بعض الشعراء في مطالعهم وذلك لطغيان الصنعة والتقليد عليها أو لفتور العاطفة ومن الأمثلة على ذلك مطلع القصيدة التي نظمها أبو بكر بن شبرين في رثاء أحمد بن الحسن بن الزيات يقول^(٥):

أيساعد رائده الأمل أم يسامع سائله الظل

ومطلع قصيدة أبي حيان في رثاء ابنته نضار إذ قال^(٦):

إن جسمي مقيد بالضريح وفؤادي وقف على التبريح

إن استخدام "ألا، خليلي" رغب عنه النقاد القدامى لاسيما ابن رشيق وعده علامة ضعف^(٧) أما حسين خريوش فيرى أن استخدامهما يعطي توافقاً نغمياً حزيناً مصاحباً لهذه الأداة التي اعتاد الشعراء الابتداء بها^(٨) وإخال أن الصواب يكمن في عدم الترغيب بكلمات أو رفضها

(١) أبو حيان، ديوان أبي حيان الأندلسي، ص ٢٠٠

(٢) المقرئ، نفح الطيب، ٤٤٨/٥

(٣) لسان الدين، ديوان لسان الدين ١٨٥/١ والصيب والجهاد، ص ٨٦

(٤) المقرئ، نفح الطيب، ٤٩٥/٦

(٥) لسان الدين، الإحاطة ٣٠٤/١

(٦) أبو حيان، ديوان أبي حيان، ص ١٤٣

(٧) أبو رشيق، العمرة، ٢١٧/١، ٢١٨

(٨) حسين خريوش، الجانب الفني في المراثية الأندلسية، ١٠١.

لمجرد تقليديتها ما دامت تؤدي معناها في إطار سياقها المؤثر في المتلقي، وقد قلل شعراء عصر بني الأحمر من استخدام "ألا، خليلي" وممن صاغها في مطلع إحدى قصائده الملك يوسف الثالث في رثاء والده يقول^(١):

خليلي أين الصبر منا ويوسف وأين أياديهِ الكريمة تصرف

أما مطلع قصيدة ابن زمرك في رثاء "عشق" حظية السلطان أبي العباس المريني فقد استخدم "ألا"^(٢):

ألا ليت شعري ما عدا بعد ما بدا فراق علينا جار في الحكم واعتدى

وخلاصة القول إن معظم مطالع قصائد الرثاء في هذا العصر جاءت تقليدية ومنهم من حاول التطوير في مطلعها بصدق مشاعره لا سيما في مطالع رثاء الأبناء، وضمن إطار من رقة الطبع ووضوح الدلالة. هذا وقد ابتعد معظم الشعراء في عصر بني الأحمر في مراثيتهم عن المقدمة الغزلية والطللية وغيرهما من المقدمات، ودخلوا إلى موضوعهم مباشرة، وهذا ما سار عليه جل شعراء العرب في عصور الأدب العربي المختلفة في غرض الرثاء، وذلك أن الغزل لا يتلاءم وموضوع الرثاء فالموت والحزن والحسرة تشغل الشاعر عن الشبيب^(٣) ويرى حازم القرطاجني أن الرثاء لا يُصدر بنسب لمناقضته له^(٤).

ولا يعني هذا أن المقدمات بأنواعها قد اختفت كلياً في مراثي هذا العصر بل إن هناك بعض الشعراء قد قدم لقصيدته بمقدمة طللية وبعضهم أتى بمقدمة تأملية فلسفية وآخر بمقدمة في وصف الضيعة.

أما المقدمة الطللية فقد برزت في عدة قصائد للملك الشاعر يوسف الثالث نظمها في رثاء زوجته الشابة التي توفيت في فترة نفاسها بولده البكر الذي ما لبث أن لحق بأمه بعد فترة يسيرة، فعظمت المصيبة عليه ورثاها بعدة قصائد بدأها بمقدمات طللية، تحدث فيها عن رحيل محبوبته التي سماها سلمى تارة وسعاد تارة أخرى وهي أسماء عربية تقليدية وردت في الشعر الجاهلي، وتحدث عن رحيلها وبعدها ويأسه من عودتها وعبر عن ألمه وبكائه لذلك الفراق إذ قال^(٥):

(١) يوسف الثالث ، ديوان ملك غرناطة ، ص ١٤٤ .

(٢) ابن زمرك ، ديوان أبو زمرك ، ص ٣٣١ .

(٣) انظر : ابن رشيق العمدة ١٥٢/٢ .

(٤) أنظر حازم القرطاجي ، منهاج البلغاء ، ٣٥١ .

(٥) يوسف الثالث ، ديوان ملك غرناطة ، ١٦٥ .

أعْيِذْ الحمى من أن يخيب راجيا
بخافق قلب منجد سبق دمه
لقد جد سيرا ركبها حين ودعت
سما النظر المغرى بها متلمحا
فأياسني أن ضلت العين قصدها
وفي مقدمة أخرى يتحدث عن أرقه ومعاناته وكربه وصباته وأحبابه الذين سارت بهم
الهُودج، وقد تركوه وحيداً، ملوعاً، يقاسي مراره العشق، ونيران الفراق، نحو قوله^(١):

جفا أجفان مقلتي السهاد
فاسـتـجـلي المحـيا راق حسـنا
أما وركابها إذا حث سيرا
توادعنا فعز بها لقاء
فهـلا سـاعـدت يوماً سعاد
ويهدأ من تقلبه الفؤاد
لقد ظفر الحداة بما أرادوا
وأحكم عقد فرقتنا البعاد

ويرى بعض الباحثين أن تعدد ألوان صور الرحلة وديار الأحبة عند الشاعر يوسف
الثالث كان رمزاً للتعبير عن همومه وهموم الأندلسيين في عصره وآمالهم بعد أن أرهقتهم رحلة
الصراع مع القشتاليين فتعبوا وأملوا في مساعدة المغاربة لهم^(٢).

وأحسب أن تلك المقدمات الطليعية لقصائد رثاء يوسف الثالث زوجته، تعبر عن تجربة
شعرية حقيقية خضع لها الشاعر العاشق، الذي اختطف الموت محبوبته (زوجته)، وتركه أسير
الدموع والوحدة، ولا تعد تلك المقدمات إخلالاً بوحدة القصيدة، فهي مرتبطة بموضوعها وهو
الرثاء ارتباطاً وثيقاً، فالشاعر تحدث فيها عن رحلة الموت التي انضمت إليها زوجته، وابتعدت
فيها عنه^(٣).

ويبدأ الملك الشاعر يوسف الثالث في مخمسة له رثى فيها القائد الشهيد مفرج بمقدمة
وصف فيها الطبيعة ثم وقف على الأطلال ليرسم لنا الأفق جمرة دم وليصور لنا ربعا حزينا
خلا من أصحابه^(٤):

أما عجب أن غربت أنجم السما
فيا جيره قد يمموا أجرع الحمى
وكنّا عهدناها تروق نوسما
سلوا الأفق الشرقي مما تجهما

(١) يوسف الثالث، ديوان ملك غرناطة، ص ٥٥.

(٢) انظر: المربعي بن سلامة، أدب المحنة الإسلامية في الأندلس، ص ٢٨٩.

(٣) انظر: قاسم الحسيني، الشعر الأندلسي في القرن التاسع الهجري، ص ٢٩٨-٣٠٠.

(٤) يوسف الثالث، ديوان ملك غرناطة، ص ١١٨.

ولم قطرت أجفان مقلته دما

وقفنا به ربعا شجنتا طولله نسائل ركب الخيف أين حلولة
وأين صباه لدنه وقبولة وريان ذاك الروض مم ذبولة

ومنظوم ذاك الشجر مم تلثما

وإخال أن التقديم بحكمة قبل الرثاء من أنسب المقدمات لما تحمل من تأس وذكر لحتمية الموت وتذكر الأمم الماضية، وتختلف الحكمة باختلاف الشعراء ومستوى ثقافتهم وتباين تجاربهم في الحياة، وهذه المقدمات يمكن أن نسميها بالمقدمات التأملية أو الفلسفية منها مقدمة لسان الدين في قصيدة رثى فيها السلطان يوسف الأول نحو قوله^(١):

العمار نوم والمنى أحلام ماذا عسى أن يستمر مقام
وإذا تحققنا لشيء بداه فله بما تقضي العقول تمام
والنفس تجمع في مدى آمالها ركضاً وتأبى ذلك الأيام
من لم يصب في نفسه فمصابه بحبيبه نفذت إذا الأحكام
بعد الشبية كبرة ووراءها هرم ومن بعد الحياة حمام
ولحكمة ما أشرق شهب الدجى وتعاقب الإصباح والإظلام

وتتبع الرؤية التأملية عند لسان الدين من ثقافته الإسلامية الممزوجة بنظرته التأملية للحياة والموت، فها هو يقول في مقدمة قصيدته التي نظمها في رثاء جده يوسف الأول^(٢):

نبئت على علم يقين من الدهر ونعلم أن الخلق في قبضة القهر
ونركن للدنيا اغتراراً بلهوها وحسبك من يرجو الوفاء من الغدر
ونمطل بالعزم الزمان سفاهة فيوم إلى يوم وشهر إلى شهر
ونغري بما يفنى المطامع والهوى ونرفض ما يبقى فيا ضيعة العمر!
وندفع أحباباً كراماً إلى الردى ونسلو ونلهو بعد ذاك عن الأمر

وقدم أبو البقاء الرندي لتونيته في رثاء الأندلس بمقدمة تأملية فلسفية يقول^(٣):

نكل شيء إذا ما تم نقصان فلا يغرب بطيب العيش إنسان
هي الأمور كما شاهدتها دول من سره زمن ساءتة أزمان

(١) لسان الدين، ديوان لسان الدين، ٥٥٦/٢.

(٢) نفسه، ٣٩٦/١.

(٣) أبي زرع الفاسي، الذخيرة السنية، ص ١١٢.

وهذه الدار لا تبقى على أحد ولا يدوم على حال لها شان

لقد سلك بعض شعراء هذا العصر طريق التقليد في المقدمات ولكنه لم يكن تقليدا محضاً، بل صبغوه بلونهم الأندلسي في محاولة منهم للتمسك بالماضي القوي المجيد أمام حاضرهم الضعيف المتداعي، فحاولوا الاقتراب من الماضي بتقليده.

وثمة قصائد في شعر رثاء هذا العصر تميزت بغياب المقدمة، وفضل أصحابها الخوض بموضوعاتهم مباشرة فيما يسميه ابن رشيق بالقطع^(١) فالموت حدث يهز القلوب ولا تصمد أمامه المقدمات فمثلاً القصائد التي نقتت على شواهد القبور لم يلتزم أصحابها بأي نوع من المقدمات بل دخلوا في صميم الغرض مباشرة وهذا طبيعي فلموت هيبه وجلال تتمثل في أقوى صورها في القبر لذا ابتعد الشعراء عن المقدمات في قصائد شواهد القبور، وكذلك في جل شعر اتجاهات الرثاء في هذا العصر من رثاء أبناء أو بلدان... الخ فقد حالت لوعة الأسى ومراره الفقد وصدمة الحدث، دون الشاعر والتفكير بشيء خارج نطاق المصيبة.

أما التخلص أو الخروج فقد اهتم النقاد العرب به ووضعوا له المحددات والضوابط^(٢) فـ"أولى الشعر بأن يسمى تخلصاً ما تخلص فيه الشاعر من معنى إلى معنى ثم عاد إلى الأول وأخذ في غيره ثم رجع إلى ما كان فيه"^(٣).

وإذا نظرنا إلى قصائد الرثاء في عصر بني الأحمر فإننا نجد معظم الشعراء قد أجادوا حسن التخلص والربط بين أجزاء القصيدة ومعانيها وجاء ذلك في القصائد التي نظمت بهدف التعزية إذ تخلص الشعراء فيها من الحديث عن المرثي والإشادة بصفاته ومآثره إلى الإشادة بالتمعزى وحثه على الصبر ومن ذلك ما جاء في القصيدة التي نظمها ابن الجياب في تعزية ذي الوزارتين ابن الحكيم في ولده وتهنئته بقدمه من العودة فقد تخلص قائلاً^(٤):

فاهناً بمقدم سعد جل موقعه	وأمن الثواب بصبر يجزل المنح
وألح المصاب بقلب منك مصطبر	وأودع الخطب صدراً منك منقسطاً
لا يستطير إذا أمر ألم به	ولا يضيق به ذرعاً وإن ندحا ^(٥)
إن الخلافة قد ألفت مقالدها	إليك يا منتهى خلصائها الصرحا

(١) ابن رشيق، العمدة، ١/١٨٩.

(٢) انظر: حازم القرطاجني، منهاج البلغاء ص ٣١٤-٣٢١ وأبو هلال العسكري، الصنائع، ص ٥١٣. ويوسف بكار، بناء القصيدة، ص ٢٢١.

(٣) ابن رشيق، العمدة، ١/٢٠٨.

(٤) ابن الجياب، ديوان ابن الجياب، ص ١٩٢.

(٥) الذخ: الكثرة، انظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة نح.

ولقد أحسن ابن الجيب التخلص أيضا في قصيدة نظمها في رثاء الملك محمد بن محمد الملقب بالفقيه وتهنئة ولده محمد بن محمد بن محمد أبي عبد الله بالملك^(١):

فصبراً لخطب يهد القسوى وبشرى بهذا الفعال الجميل
فلولاك يا محيي المكرما ت لما غادر الحزن منا العقول

وبرز حسن التخلص من المراثي التي نظمها ابن زمرك في رثاء الملك الغني بالله وتهنئته ولده يوسف الثاني بتولي الأمر من بعده، فقد انتقل من رثائه للغني بالله إلى الحديث عن مناقب الملك يوسف الثاني إذ قال^(٢):

فإن عظم الخطب الذي دهم الورى فقد عظمت فيه المثوبة والأجر
وقد ولي الإسلام خير مملك تولي به عسر وأعقبه يسر
وما الخلق إلا في ظلال خلافة يحوط حماها من له الخلق والأمر

وقوله في نفس الغرض مخاطباً المرثي الملك الغني بالله^(٣):

فقد عشت حتى ذقت فقدك قلماً تبلغ نفس مسا تريد أمانيتها
ولولا أبو الحجاج نجلك لم يكن لدين الهدى كرات عز يرجيها
ولكنه والله يجمع صبره مناقبك الغز الكرام سيحييها
فخلفتنا منه لأكرم كافل يحمل أعباء الخلافة كافليها

ومن ذلك ما جاء في قصيدة ابن فركون التي نظمها في رثاء الأمير معز الدولة علي بن يوسف شقيق الملك يوسف الثالث وتخلص فيها إلى الإشادة بالملك يوسف الثالث^(٤):

فإننا إلى الله العظيم وإننا لرحمته نرجو مآلاً ومرجعاً
لأذنبت الأيام فيما أتت به ولكنها أبقت إلى العذر موضعاً

(١) ابن الجيب، ديوان ابن الجيب ص ٥٨٤.

(٢) ابن زمرك، ديوان ابن زمرك، ص ٢٨٤.

(٣) نفسه، ص ٥١١.

(٤) ابن فركون، ديوان ابن فركون، ص ٣٦٠.

إذا هي أبقت ناصر الدين يوسفاً فقد شيدت للدين ركناً ممتعاً

وأخفق بعض الشعراء في التخلص ووقعوا في الاقتضاب وهو "أن يقطع الشاعر كلامه ويستأنف كلاماً غيره من مدح أو هجاء ولا يكون للثاني علاقة بالأول"^(١).

والاقتضاب نادر في شعر رثاء هذا العصر وأمثله قليلة لا تشكل دليلاً كافياً لاعتباره ظاهرة أدبية، ومن أمثله ما جاء في إحدى قصائد الملك يوسف الثالث في رثاء زوجته حيث انتقل من الغزل إلى الرثاء^(٢):

تشتاقكم نفس المشوق الواله	لو تسعفون عميدكم بسؤاله
ما ضرره إلا التشوق فيكم	فسواكم ما إن يمرر بباله
وأقول يا نسيمات هبات الصبا	هل راحة في الربيع أو تسأله
أسفاً على الوجه الأغر تحجبت	عني بحكم الله غرر خالقه
لما استهل ولي عهدي نجماً	أخفى محياكم ظهور هلاله

أما الخاتمة فقد أطلق عليها النقاد المقطع والانتهاى ودعوا إلى تحسينها وإجادتها^(٣) ويرى حازم القرطاجني أن تكون خاتمة القصيدة أحسن مما جاء في حشوها فهي منقطع الكلام وخاتمته فكما يقول حازم القرطاجني "ولا شيء أقبح من كدر بعد صفو"^(٤).

واعتبر ابن رشيق الخاتمة قاعدة القصيدة وقفلها^(٥).

واشترط النقاد أن يتناسب الاختتام مع غرض الشعر، وأن يكون اللفظ مستعذباً، والتأليف جزلاً متناسباً وأن يتضمن حكمة أو تشبيهاً أو مثلاً^(٦).

وإذا نظرنا إلى قصائد الرثاء في عصر بني الأحمر، فإننا نجد عناية من الشعراء في خواتيمها، فجاءت ملائمة لغرض الرثاء فقد ختموها بالحكمة والموعظة والحديث عن الموت وحتميته^(٧).

ومن ذلك ما قاله الملك الشاعر يوسف الثالث في خاتمة قصيدة رثى فيها زوجته^(٨):

(١) ابن رشيق، النعمدة، ٢٠٨/١

(٢) يوسف الثالث، ديوان ملك غرناطة، ص ٩٥

(٣) انظر: أبو هلال العسكري، الصناعاتين، ص ٥٠٢، حازم القرطاجني، منهاج البلغاء، ص ٣٠٠، ٢٨٣، يوسف بكار، بناء القصيدة، ص ٢٢٩، عبد الحميد الهرامة، القصيدة الأندلسية خلال القرن الثامن الهجري ١٦٩/٢.

(٤) حازم القرطاجني، منهاج البلغاء، ص ٢٨٥

(٥) انظر: ابن رشيق، النعمدة، ٢٣٩/١

(٦) انظر: العسكري، الصناعاتين، ص ٥٠٢، وحازم القرطاجني، ص ٣٠٦، ويوسف بكار، بناء القصيدة، ص ٢٢٩-٢٣٠

(٧) جمال عبد المعطي، شعر الجهاد في الأندلس في ظل بني الأحمر، ص ١٦١.

(٨) يوسف الثالث، ديوان ملك غرناطة، ص ١٧

ولكنني لم ألق للموت مدفعاً يُسرُّ الذي قد خيفاً من سطواته
عسى الله بالصبر الجميل يُعيننا ويمنحنا الرضوان بعض هباته

وختم عدد من الشعراء قصائدهم بالدعاء للمرثي ومن ذلك خاتمة القصيدة التي نظمها
ابن الجياب في رثاء أبي بكر الساحلي إذ قال^(١):

وإننا لنرجو أن نلاقه غداً على الحوض تسقينا به الكوثر العذب
ويشفع فينا للرسول شفاعته فنسحبُ أذيال النعيم بها سحباً

ودعاء أبي حيان الأندلسي لابنته نضار في ختام قصيدة نظمها في رثائها^(٢):

أيا تربةً حلت نضار قرارها سقاك من الغيث الهوادي الهوامعُ

وختم بعضهم قصائدهم بالسلام على المرثي وهذا متوقع ومقبول في هذا الغرض ومن
ذلك خاتمة القصيدة التي نظمها ابن زمرك في رثاء الملك الغني بالله يقول^(٣):

عليك سلام الله ما قمرٌ بدا وما أنبلج الإصباحُ وأنسجم القطرُ

وكذلك ختم أبو بكر بن شبرين قصيدته في رثاء محمد بن محمد بن محمد البلوي
قائلاً^(٤):

عليك مني سلام الله يتبعه حسن الثناء وما حبيت من كتب

وانتهى بعضهم قصائده بالدعاء بالسقيا للضريح في تقليد فني خالص للتعبير عن الخير
والحياة^(٥) ويتجلى ذلك في خاتمة قصيدة الوزير أبي عبد الله محمد بن محمد اللوشي في رثاء
السلطان إسماعيل بن فرج إذ قال^(٦):

لا زال مسكنك الذي أسكنته لرضى الإله معرساً ومقبراً
وهمت عليه للقبول سحائب تحكي دموع المسلمين همولاً

(١) ابن الجياب، ديوان ابن الجياب، ص ١٥٦.

(٢) أبو حيان، ديوان أبي حيان الأندلسي، ص ٢٦٩.

(٣) ابن زمرك، ديوان ابن زمرك، ص ٢٨٦.

(٤) لسان الدين، الإحاطة ٢٢٣/٣.

(٥) حسين خريوش، دراسة الحائث الفني في المراثية الأندلسية، ص ١١٧.

(٦) لسان الدين، الكتيبة الكاملة، ص ١٧٧.

وختم أبو حيان الأندلسي إحدى قصائده في رثاء ابنته نضار قائلاً^(١):

فسقى الله قبرها غير عاتٍ وحباها بديممة مـدرار

وختم بعض الشعراء قصائدهم بالسلام والسقيا معاً، ويتجلى ذلك في خاتمة قصيدة ابن الجياب في رثاء الوزير علي بن مسعود المحاربي إذ قال^(٢):

عليه سلام الله ما ذر شارق وما صدعت ورقاء في فرع أملود
وجادت ثرى اللحد الزكي سحائب مجددة السرحمى بأحسن تجديد

وعمل بعض الشعراء على ختم قصائدهم بالصلاة والسلام على النبي - صلى الله عليه وسلم - لاسيما في قصائد رثاء المدن ومن ذلك ما ختمت به المروثة المجهولة^(٣):

وصلي على خير البرية أحمد وأكرم من قأد انجبتـه ظهورها

وقول يحيى القرطبي في زيادته على نونية أبي البقاء^(٤)

ثم الصلاة على المختار من مضر ما هب ريح الصبا واهتز أغصان

اهتم النقاد العرب بوحدة القصيدة ففي مؤلفاتهم التفاتت نقدية كثيرة^(٥) تؤكد حرصهم عليها وعنايتهم بها فهذا حازم القرطاجني يؤكد أن وحدة القصيدة هي قوة على تصور كليات الشعر ومقاصده ومعانيه الموافقة لتلك المقاصد^(٦).

فالقصيدة في ترابط أبياتها ومعانيها كترابط أعضاء جسم الإنسان في تناسقها وانسجام أدائها.

وإذا نظرنا إلى قصائد الرثاء في هذا العصر فإننا نجد الوحدة الموضوعية قد تجلت فيها حين وصف الشعراء حزنهم على الفقيد وحزن الناس عليه وبينوا أثر موته على كل ماله علاقة به وعلى مظاهر الطبيعة وصوروا فداحة الخطب وعظم المصيبة وتحدثوا عن مناقب الفقيد ومآثره ودعوا له بالرحمة والسلام والمغفرة ولقبره بالسقيا كما تحدثوا عن الحياة والموت والدهر

(١) أبو حيان الأندلسي. ديوان أبي حيان، ص ٧٥

(٢) لسان الدين، الإحاطة، ٧٣/٤

(٣) خفاجي، قصة الأدب في الأندلس ٥٤/٢

(٤) عبد الله كنون، مجلة معهد الدراسات الإسلامية ٦/٤ (١-٢) ١٩٥٨

(٥) انظر حازم القرطاجني، نهج البلغاء، ص ٢٠٠.

(٦) انظر حازم القرطاجني، نهج البلغاء، ص ٢٠٠.

وعزوا ذوي الفقيده وحثوهم على الصبر والسلوان وأشادوا بهم، هذه هي المحاور التي يصب فيها موضوع الرثاء، وهي جزء لا يتجزأ من بناء قصائده، صحيح أن بعض الشعراء ابتداءً قصيدته بالغزل والوقوف على الأطلال إلا أن ذلك كما اتضح في الصفحات السابقة كان ممتازاً بموضوع القصيدة وهو الرثاء.

وظهرت هذه الوحدة في القصائد التي رثت المدن الأندلسية فقد صور الشعراء فيها حزنهم وحياتهم المريرة، وتحدثوا عن القتل والأسر والسبي والتشريد والتدمير وصوروا هزيمة جيش المسلمين ودعوا إلى الجهاد وهذه الموضوعات جميعها تصب في موضوع رثاء المدن الذي تجلت فيه الوحدة العضوية^(١).

فكل جزء منها يؤدي إلى الذي يليه ويمكن التمثيل على ذلك بالقصيدة التي نظمها مجهول في رثاء رنده ومدن أندلسية أخرى^(٢) وتقع المراثية في مائة وأربعة وأربعين بيتاً، بكى فيها الشاعر مدن مملكة غرناطة على طريقة أبي البقاء الرندي.

ولم يمهّد للقصيدة بل وصل لموضوعه مباشرة فالمصيبة أكبر من التمهيد بحكمة أو بغيرها، وانتظمت المراثية وفق خمسة محاور هي:

المحور الأول بكاء مدينة رندة في ثلاثة وستين بيتاً تساءل الشاعر فيها عن حال رنده بعد سقوطها (سقطت عام ٨٩٠هـ/٤٨٥م) ووصف ما آل إليه حال الإسلام والمسلمين فيها وما ارتكب من جرائم في حق المجتمع المسلم بكل فئاته فقال^(٣):

أحقاً خبا من جو رندة نورها؟	وقد كسفت بعد الشمس بدورها؟
وقد أظلمت أرجاؤها وتزلزلت	منازلها ذات العلا وقصورها؟
أحقاً خيل لي أن رندة أقفرت؟	وازعج عنها أهلها وعشيرها؟
وهدت مبانيها وثلت عروشها	ودارت على قطب التفريق دورها
وقد ذهببت أديانها ونفوسها	وقد دثرت تحت السباء دثورها
فسباد بها الإسلام حتى تغطعت	مناسبتها واستأصل الحق زورها
سأبكي وما يجدي على الفائت البكا	بعبرة حزن ليس يرقى عبورها

أما المحور الثاني فقد بكى فيه الشاعر مألقة (سقطت عام ٨٩٢هـ/٤٨٧م) وما حولها من مدن كالمنكب (سقط عام ٨٩٤هـ/٤٨٩م) وبسطة (سقطت عام ٨٩٥هـ/٤٨٩م) ووادي

(١) انظر المزيد عن الوحدة العضوية: يوسف بكار، بناء القصيدة، ص ٣٠٠ وما بعدها.

(٢) انظر: قاسم الحسيني، الشعر الأندلسي في القرن التاسع الهجري، ص ٢٠٨ وما بعدها، وانظر: علي سلامة، الأدب العربي في الأندلس، ص ١٦٩، وحسين خربوش، دراسة الجانب الفني، ص ١٠٤.

(٣) محمد عبد المنعم خفاجي، قصة الأدب في الأندلس ٤٩/٢ والطاهر مكي، دراسات أندلسية، ص ٣٦١ وما بعدها.

آش وبلش (٨٩٢هـ/١٤٨٧م) وذكر غرناطة وجمالها وآثارها (سقطت غرناطة في ٢/يناير/١٤٩٢م) ذاكراً تلك المدن بحسرة وألم في اثنين وعشرين بيتاً فقال^(١):

فمالقة الحسناء تكلّى أسيفة	قد استقرغت ذبحاً وقتلاً حجورها
وبلش قطبت رجاها بيمينها	ومن سريان الداء بان قطورها
وبالله إن جئت المنكب فاعتبر	فقد خف ناديمها وجف نصيرها
ألا ولتقف ركب الأسى بمعالم	قد ارتج باديهما وضج حضورها
محل قرار الملك غرناطة التي	هي الحضرة العليا زهتها زهورها
ترى الأسى أعلامها وهي خشع	ومنبرها مستعبر وسريرها
وبسطة ذات البسط ما شعرت بما	دهاها وأنسى يستقيم شعورها
على عظم بلواها وطول وبالها	وما كابدت في ذا المصاب نحورها

المحور الثالث يبين فيه الشاعر أسباب هزيمة المسلمين^(٢) في ثمانية عشر بيتاً حاول فيها تلمس الجرح ببيان أسبابه من إضاعة حقوق الله وعصيانته، والتكالب على السلطة، وترك الجهاد فقال^(٣):

أضعنا حقوق الرب حتى أضاعنا	وقضت عرى الإسلام إلا يسيرها
بما قد كسبنا نالنا ما أنالنا	كذي السيرة السوأي لدى من يسيرها
بعصياننا استولى علينا عدونا	وعائت بنا أسد العدا ونمورها
بشقوتنا الخذلان صاحب جمعنا	ويؤنا بأحوال ذميم حضورها

أما المحور الرابع فقد حث الشاعر فيها المسلمين على الجهاد واستصرهم داخل الأندلس (مملكة غرناطة) وخارجها حيث صور في ستة وعشرين بيتاً العلاج لاسترجاع ما استغلبوا عليه من بلادهم^(٤):

معاشر أهل الدين هبوا للصعقة	وصاعقة وأرى الجسوم ظهورها
أنادي لها عجم الرجال وعربها	نداء سراة الفقر إذ ضل عيرها

(١) خفاجي، قصة الأدب في الأندلس، ٥١/٢، و ٥٢.

(٢) للمزيد من أسباب السقوط أنظر: أحمد محاسنة، الحياة السياسية في دولة بني الأحمر، ص ٢٢٣.

(٣) خفاجي، قصة الأدب، ٥٣/٢ ومكي، دراسات، ص ٣٨٠.

(٤) خفاجي، ٥٣/٢، ومكي ص ٣٨١.

ففي هذه القصيدة تتجلى لوحده الموضوعية والعضوية، فالشاعر يعالج موضوعاً واحداً من بداية القصيدة إلى آخرها وهو رثاء المدن الأندلسية، أما وحدتها العضوية فتجلت في أن كل جز ومحمور فيها يؤدي إلى الجزء الذي يليه ففي المحور الأول يبكي المدن وفي المحور الثاني بين الهزيمة وفي المحور الثالث دعا المسلمين للجهاد.

ومن الأمثلة على الوحدة الموضوعية في مرثي هذا العصر قصيدة محمد بن عمر الفهري ابن رشيد في رثاء ابنه محمد وقد بدأ الشاعر قصيدته بالتعبير عن ألمه وحسرتة لموت ابنه الشاب وصور حزنه على ذلك الشاب الذي راق سوقه فرمته العيون فأردته فقال^(١):

شباب ثوى شابت عليه المفارق	وغصن ذوى تأقت إليه الحدايق
على حين راق الناظرين بسوقه	رمته سهام للعيون رواشيق
فما أخطأت منه الفؤاد بعمدها	فلا أبصرت تلك العيون الروائق

ثم يشكو الشاعر إلى الله ألمه الذي لا مثيل له وجزعه المر على ولده فيقول^(٢):

إلى الله أشكو فهو يشكى نوازعا	عظاماً سطاهها للعظام عوارق
ولا مثل فقدان النبي فجيلة	وإن طال ما لجت وجلت بوايق
محمد إن الصبر صبر وعلقم	على أنه حلو المثوية سابق

ثم انتقل الشاعر إلى الحديث عن افتقاده لولده فالمذكرات به كثيرة فأينما التفت الشاعر وجد ما يذكره بولده^(٣):

فأني به والمذكرات عديدة	فأبيل وهم للعوايد خارق
فإن التفت فالشخص للعين مائل	وإن استمع فالصوت للأذن طارق
وإن أدع شخصاً باسمه ضرورة	فإن اسمك المحبوب للنطق سابق

ثم ينتقل الشاعر إلى الحديث عن مناقب ولده فيشيد باتزانه وأدبه وذكائه واسبقيته في تحصيل العلوم يقول مصوراً هذا كله^(٤):

سبقت كهولة في الطفولة لاتني	وأرهقت أشياخاً وأنت مراهق
قلو لم يغلك الموت دمت مجانياً	وأقبل سكيناً وجييه ولاحق

(١) لسان الدين، الإحاطة، ١٤١/٣

(٢) نفسه ١٤١/٣

(٣) لسان الدين، الإحاطة، ١٤١/٣

(٤) نفسه ١٤٢/٣

على مهل أحرزت ما شئت ثانياً عنانك لا تجهد وأنت مسابق
لئن سلبت مني نفيس ذخائر فإنني بمذخور الأجور لوائق

ويشتد أوار الحزن اشتعالاً في قلب الشاعر فيذيب الأسي قلبه ولا تكف عيناه عن البكاء
نحو قوله^(١):

فلولا الأسي ذاب الفؤاد من الأسي ولولا البكا لم يحمل الحزن طابق
فخط الأسي خطاً تروق سطوره وتمحو البكا فاندمع ماح وساحق

ويختتم الشاعر قصيدته بالدعاء لابنه بالسلام ولقبره بالسقيا يقول^(٢):

عليك سلام الله ما جن ساجع وما طلعت شمس وما ذر شارق
وما همعت سحب غواد روايح وما لمعت تحدو والرعود بسوارق
وجاد على مثواك غيث مروض عباد لرضوان الإله موافق

إن هذه القصيدة على الرغم من تعدد المحاور فيها إلا أنها تصب في غرض واحد هو
الرثاء.

اللغة والأسلوب:

اهتم النقاد بلغة الشعر فهي المادة الفاعلة فيه وربطوا بين الأسلوب والمضمون فذهبوا
إلى أن كل موضوع يناسبه شكل معين من أشكال التعبير الشعري فإذا كان الغرض رثاء أو
غزلاً كانت ألفاظ الشعر رفيقة سهلة وإن كان الغرض حماسة أو فخراً أو مدحاً كانت لغة الأدب
جزلة يقول عبد القاهر الجرجاني إن الألفاظ "أوعية للمعاني"^(٣).
فاللفظ والمعنى أو الشكل والمضمون مرتبطان ارتباطاً لا تنفصم عراه^(٤).

ويؤكد ابن خلدون أن الشعر لا يكون سهلاً إلا إذا كانت معانيه تسابق ألفاظه إلى
الذهن^(٥).

(١) نفسه ١٤٢/٣

(٢) نفسه ١٤٢/٣

(٣) عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص ٤٣

(٤) للمزيد حول هذه القضية انظر: يوسف بكار، بناء القصيدة، ص ١١٣

(٥) ابن خلدون، المعبر، ١/١٠٧

ويقول أبو هلال العسكري: "وأجود الكلام ما يكون جزلاً سهلاً لا ينفلق معناه ولا يستبهم مغزاه ولا يكون مكنوداً مستكراً ومتوعراً متقراً"^(١).

وإذا نظرنا إلى أسلوب أشعار الرثاء في عصر بني الأحمر فإننا نجد أن كثيراً منها جاء مستقفاً مع ما ذهب إليه النقاد فقد اتسمت أشعارهم بالركة واللين والسهولة والفصاحة والبعد عن الابتذال، ويسبدو التلاوم بين الألفاظ والمعاني جلياً في مراثي ابن زمرك وابن الجباب ولسان الديسن وأبي البقاء الرندي وغيرهم ولعل سبب ذلك أن أكثر تلك المراثي نظمها شعراء احترفوا فن الشعر وعدوا فحول زمانهم لا سيما وأن كثيراً من الشعراء الذين نظموا في الرثاء كانوا يشتغلون بالفقه والحديث والإفتاء والقضاء والنحو واللغة والكتابة، وهؤلاء تفرض عليهم طبيعة وظائفهم وشروطها أن يشتغلوا باللغة ويتقنوها، لذا نتوقع لأشعارهم أن تكون لغتها فصيحة.

واشترط النقاد السهولة في الشعر عامة والرثاء خاصة ويوضح عبد القاهر الجرجاني أن اللفظ لابد أن يكون "مما يتعارفه الناس في استعمالهم ويتداولونه في زمانهم، ولا يكون وحشياً غريباً أو عامياً سخيلاً"^(٢).

ويؤكد حازم القرطاجني أن الرثاء "يجب أن يكون شاحي الأقاويل مبكي المعاني مثيراً للتباريح وأن يكون بألفاظ مألوفة سهلة"^(٣) ويوضح أبو هلال العسكري أنه لابد "أن يكون لفظك شريفاً عذباً وفخماً سهلاً ويكون معنك ظاهراً مكشوفاً وقريباً معروفاً"^(٤).

وقد حرص الشعراء في عصر بني الأحمر على اختيار اللفظ العذب الرقيق والابتعاد عن الألفاظ الغريبة ومن الأشعار التي اتسمت بالركة واللين والفصاحة والسهولة والتلاوم بين الألفاظ والمعاني قول الشاعر الملك يوسف الثالث في رثاء زوجه^(٥):

أحقاً يعود الشمـل بعد شـتاته جميعاً ويحيى الأـنس بعد مماته
ويـنعم بالنـسلو أن قـلب مـقلب ويألف جفن العين بعض سناته

يعبر الشاعر عن قلقه وحزنه مستخدماً ألفاظاً وعبارات دالة على ذلك مثل (شتات، ممات، قلب مقلب) هذا فضلاً عن أسلوب الاستفهام الذي زاد التعبير عن التدفق الشعوري والبعد الوجداني للشاعر.

(١) أبو هلال، الصناعتين، ص ٨١.

(٢) عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ص ٤.

(٣) حازم القرطاجني، منهاج البلغاء، ص ٣٥١.

(٤) أبو هلال العسكري، الصناعتين، ص ١٥٢.

(٥) يوسف الثالث، ديوان ملك غرناطة، ص ١٥.

وبرز التلاؤم بين الألفاظ والمعاني في الأشعار التي نظمت في رثاء العلماء ومن الأمثلة على ذلك ما جاء في القصيدة التي نظمها أبو الحسن الوراد في رثاء محمد بن أحمد المعروف بالقطان ومنها قوله^(١):

أبعد ولي الله دمعى يسـجم وغمار قلبي من كلوم تترجم
فسؤادي مكلوم بحزني لفقده لـذاك جفوني دمعها كله دم

وينضح التلاؤم بين الألفاظ والمعاني في قصائد رثاء المدن والبلاد والحصون الأندلسية فقد عبر الشعراء عن أشجانهم وصوروا فضاغة ما ارتكبه "القشتاليون" الإسبان فيها من قتل وأسروسي وتدمير ونهب ومن ذلك ما نظمه أبو المطرف بن عميرة في رثاء بلنسية ومنها^(٢):

ما بال دمعك لا ينـي مدراره أم ما لقلبك لا يقر قراره
ألوعة بين الضلوع لظاعن سارت ركائبه وشططت داره
أم للشباب تفاذفت أوطانه بعد الدنو وأخفقت أوطانه
أم للزمان أتى بخطب فادح من مثل حادثة خلّت أعصاره
بحر من الأحزان عب عابه وارثج ما بين الحشا زخاره

فالشاعر يعبر عن القتل والأسر بألفاظ مشحونة بمعاني الألم والحزن والدموع وعن إعصار قد عصف بوطنه وأحلامه واختار الألفاظ والعبارات الدالة على ذلك مع استفهام، مكرور لا يطلب له الشاعر إجابة بل يفرغ بواسطته بعضاً من بحر أحزانه الذي يموج في صدره وبين أحشائه.

ويتسم أسلوب الرثاء بالجزالة والقوة وذلك عندما ينتقل الشاعر من البكاء والحزن على المرثي إلى الإشادة بخصاله والفخر ببطولاته ومعاركه وبرز ذلك بصورة جليّة في مرثي الملوك والأمراء إذ صور الشعراء حروبهم التي خاضوها ضد القشتاليين الإسبان، وجاء الأسلوب جزلاً عندما صور الشعراء عظم المصيبة التي خلفها موت مرثيهم على مظاهر الطبيعة والكون وكل ما له علاقة بذات المرثي ومن ذلك ما جاء في قول ابن زمرك في رثاء الملك الغني بالله^(٣):

وشقت جيوب الزهر فيك كمائم يرف بها الرّيحان عن خضر ندي
لقد ضاقت الأكوان وهي رحيبة بما حزت من فخر عظيم وسؤدد

(١) لسان الدين، الإحاطة، ٢٤٣/٣

(٢) الحميري، صفة الأندلس من الروض السعطار، ص ٥١ و ٥٢.

(٣) ابن زمرك، ديوان ابن زمرك، ص ٣٨٨ و ٣٨٩

قضى بهـد ما قضى الخلافة حقها وعامل وجه الله في كل مقصد
وفتح بالسيف الممالك عنوة ومدت له أملاكها كف مجتدي
ودانت له الأملاك شرقاً ومغرباً وكلهم ألقى له الملك باليد

وقول لسان الدين في رثاء الملك أبي الحجاج يوسف الأول^(١):

يا ناصر الثغر الغريب وأهله والأرض ترجف والسماء قنّام
لو كنت تمنع بالصّوارم والقنا ما كان ركنك بتغلاب يُرام

وتنقسم قصيدة ابن الحاج الغرناطي التي نظمها في رثاء خاله ابن عاصم القيسي بالقوة
والجزالة في لغتها وأسلوبها ومنها قوله^(٢):

فمن للحيول الأعوجية ضمراً يروّي صداها من عبيط الردى القاني
ومن للسيوف المشرفيات يختلي بها الهام يوم الزحف في كل ميدان
ومن للرماح الخط في حومة الوغى يقصمها ما بين مثني ووحدان
سقاها على الإمراع كل مجلجل من الغيث هطال العشيات هتان

وكان هناك من المراثي ما اتسمت بالضعف والركاكة وعدم الملاءمة بين الألفاظ
والمعاني بفعل الصنعة والتكلف ويمكن التمثيل على ذلك بما جاء في قصيدة ابن شبرين في رثاء
محمد بن علي السبتي^(٣):

أودى شــــــــــــــــهداً بــــــــــــــــاذلاً مجــــــــــــــــة نعمة الشــــــــــــــــهد
يا بين قد طال المدى أرعد أوبرق يا يزيد

ومن المأخذ والعيوب التي يمكن أن تؤخذ على لغة المراثي في هذا العصر وقوع بعض
الشعراء في اللحن والضرورات الشعرية وقد عاب بعض النقاد العرب القدامى والمحدثين على
الشعراء اللحن في أشعارهم لما فيه من تحطيم للغة وعبث بتقاليد المرعية المتوارثة فالمنظوم
الجيد عند أبي هلال هو الذي قلت ضروراته^(٤).

(١) لسان الدين، الإحاطة ٤/٣٢٧.

(٢) إسماعيل بن يوسف بن الأحمر، تأثير فرائد الجمال، ص ٣١٦.

(٣) لسان الدين، الإحاطة ٣/١٥٣.

(٤) انظر: أبو هلال، الصناعتين، ص ١٨٣، وانظر: يوسف بكار، بناء القصيدة، ص ١٠٦، وانظر: نازك الملائكة، قضايا الشعر
العاصر، ص ٣٢٥.

فمن أمثلة الضرورة الشعرية قول عبد الكريم القيسي في رثائه لمحمد الأزرق فقد كسر
حرف الروي ضرورة وكان أولى رفعه على العطف ^(١)؛

أقضى على الأحياء منه بما قضا ه قطيع أو عاص سعيدي أو شقي

ومن مظاهر الضرورة صرف ما لا ينصرف كما يبدو في قول ابن فركون في رثاء
الأمير علي بن يوسف شقيق الملك يوسف الثالث ^(٢)؛

إذا هي أبقت ناصر الدين يوسفاً فقد شيدت للدين ركنا ممنعا

ومثله قول ابن الأبار في رثاء أبي زكريا الحفصي ^(٣)؛

غلب التوكله فالعقول غوارب لما تحجب والكروب طوالع
إن تخل منه منازل ومطالع لم تخل منه جوائح وأضالع

وقول ابن زمرك في رثاء الملك الغني بالله ^(٤)؛

ونسأل فتحاً للخليفة يوسف يملكه أقصى البلاد ومن فيها

ومن السمات الأسلوبية الأسلوب القصصي ونجد هذا الأسلوب جلياً في مراثي الحيوانات
حيث أشار الشعراء إلى حالة ذلك الحيوان قبل موته وبعده وصوروا جماله وصفاته الأخرى ثم
وصفوا لنا موت تلك الحيوانات وبرز هذا الأسلوب في القصيدة التي نظمها عبد الكريم القيسي
فسي رثاء خروفه حين رسم صورة خروفه الذي أعده ليكون أضحية للعيد وبعد عنايته به مات
فبكاه الشاعر وعوضه الله بخروف آخر ما لبث أن مات أيضاً فعظمت مصيبة الشاعر وتكرر
عيشه فقال ^(٥)؛

ولقد كان لي ضحية عيد ذات قرنين رائعتين وصفوف
كم شعيراً أطعمته مع فول كله محكم وكم من رغيف
بان عني وحمل القلب حزناً دائماً ليس حملته بالخفيف

(١) عبد الكريم القيسي، ديوان عبد الكريم القيسي، ص ٤٠٣.

(٢) ابن فركون، ديوان ابن فركون، ص ٣٦٠.

(٣) ابن الأبار، ديوان ابن الأبار، ص ٣٥٦.

(٤) ابن زمرك، ديوان ابن زمرك، ص ٥١٢.

(٥) عبد الكريم القيسي، ديوان عبد الكريم القيسي، ص ١٦٤.

وهذا الشاعر أبو محمد الأزدي يرثي ديكا جميلاً فقده، فرسم له صورة مشرقة بأسلوب قصصي واصفاً مشيئته وجمال ريشه واعتداده بأكليله ودقة مواعيد صياحه ثم تبدل حاله بعد ذلك باعتلاله وسقوطه على الأرض ومحاولة الشاعر علاجه لكن دون جدوى^(١):

أودى به الحنف لما جاءه الأجل ديكا فلا عوض منه ولا بدل
ما كان أبدع مرآه ومنظره وصفاً به كل حين يضرب المثل
كان مطرف وشى فوق ملبسه عليه من كل حسن باهر حل
كان إكليل كسرى فوق مفرقه وتاجه فهو عالي الشكل محتل
رأينته قد وهت منه القوى فهوى للأرض فعلا يريه الشارب الثمل
قالوا الدواء فلم يغن الدواء ولم ينفعه من ذاك ما قالوا وما فعلوا

وتميزت مراثي الشعراء في عصر بني الأحمر بميزات عديدة ومنها الأثر الإسلامي الذي بدا جلياً فيها، وقد فرض عليهم ذلك طبيعة الموضوع الذي عبروا عنه، فهم ينظمون في موضوع الرثاء فيتحدثون عن القبر والمصير والحشر والآخرة والموت وهي أمور بين الإسلام حقيقتها وكشف النقاب عن كثير من خباياها، لذا فإن من الطبيعي أن ينهل الشعراء المسلمون من الأفكار التي قدمها الإسلام وأن يعكسوها في مراثيهم خاصة وأنها اضحت جزءاً لا يتجزأ من فكرهم وكيانهم إلى جانب ذلك اعتبر القرآن الكريم ومنذ نزوله مثلاً يحتذى يغرف من معينه ويسعى إلى الاستفادة من بلاغته ومضامينه المختلفة، فضلاً عن أن جل شعراء الرثاء في هذا العصر كانوا يشتغلون في العلوم الدينية مثل الفقه وأصوله والحديث والتفسير ويتولون المناصب الدينية مثل القضاء والإفتاء وقراءة القرآن فتتسرب إلى أشعارهم ألفاظ ومعانٍ ومصطلحات وصور من تلك العلوم.

وقد بدا التأثير بالقرآن الكريم جلياً، ويتجلى ذلك في أربعة وجوه: المعاني والصور والقصص القرآني والاقتراس ففي قول ابن شبرين في رثاء محمد السبتي^(٢):

ما للفتى ما يبتغي فإله يفعل ما يريد

يبدو الشاعر متأثراً بقوله تعالى: "إن ربك فعال لما يريد"^(٣).

وفي قول الشاعر ابن فركون في رثاء الأمير علي بن يوسف^(٤):

(١) المقري، نفع الطيب، ١٠٤/٦

(٢) المقري، نفع الطيب، ٢٥٢/٦

(٣) سورة هود، آية ١٠٧

(٤) ابن فركون، ديوان ابن فركون، ص ٣٦٠

وإننا إلى الله العظيم وإننا لرحمته نرجو مآلاً ومرجعاً

يبدو متأثراً بقوله تعالى: "إلى الله مرجعكم وهو على كل شيء قدير"^(١).

وفي قول عبد الكريم القيسي في رثاء مدن أندلسية^(٢):

وعداً من الله عظيم محققاً والله قطعاً وعده لا يخلف

يبدو متأثراً بقوله تعالى: "وعد الله لا يخلف الله الميعاد"^(٣).

وقول لسان الدين في رثاء الوزير رضوان النصري^(٤):

فحث المطاليس النعيم منغصاً ولا العيش في دار الخلود مكدراً

ينظر إلى قوله تعالى: "خالدين فيها حسنت مستقراً ومقاماً"^(٥).

وقول أبي عبد الله بن الجنان في رثاء سهل الأزدي^(٦):

كأنهم مسـتمطرون لعـارض كعارض عـاد للـتجد عـارك

يبدو متأثراً بقوله تعالى: "قالوا هذا عارض ممطرنا"^(٧).

وقيل القيسي في رثاء ابني صديقه^(٨):

والموت حتم على الأحياء كلهم قضى به خالق الإنسان من عجل

يبدو متأثراً بقوله تعالى: "كل نفس ذائقة الموت"^(٩).

واقتبس بعض الشعراء آيات من القرآن الكريم أو أجزاء منها ويتجلى ذلك في قول لسان

الدين في رثاء أبي الحسن المريني^(١٠):

وجبال عز لا تذل أنوفها إلا لعز الواحد القهار

(١) سورة هود، آية ٤

(٢) عبد الكريم القيسي، ديوان عبد الكريم القيسي، ص ٢٩٦

(٣) الزمر: ٢٠

(٤) لسان الدين، ديوان لسان الدين ٤٢٥/١

(٥) الفرقان: ٧٦

(٦) لسان الدين، الإحاطة، ٢٨٨/٤

(٧) الأحقاف: ٢٤

(٨) القيسي، ديوان عبد الكريم القيسي، ص ٤٢١

(٩) آل عمران: ١٨٥

(١٠) لسان الدين، ديوان لسان الدين ٤١٨/١

قال تعالى: "قل الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار" (١)

وقول القيسي في رثاء خروفيه (٢):

حسبي الله من مصابي عليه فهو حسبي لكل خطب مخوف

ينظر إلى قوله تعالى: "قل حسبي الله عليه يتوكل المتوكلون" (٣).

وقول ابن الجياب في رثاء ولده أبي القاسم (٤):

ووجهت وجهي نحو جودك ضارعا لعل الرضا من جنب حلمك ممنوح

ينظر إلى قوله تعالى: "إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً" (٥).

وقول أبي بكر بن شيرين في رثاء ذي الوزارتين ابن الحكيم (٦):

رثيتك عن حب ثوى في جوانحي فما ودع القلب العميد ولا قلا

يقتبس من قوله تعالى: "ما ودعك ربك وما قلى" (٧).

وقول لسان الدين في رثاء الوزير رضوان النصري (٨):

سميك مرتاح إليك مسلم عليك "ورضوان من الله أكبر"

مقتبس قوله تعالى: "ورضوان من الله أكبر" (٩).

ويتجلى التأثير بمعاني القرآن الكريم وصوره في قول لسان الدين في رثاء الملك أبي

الحجاج يوسف الأول (١٠):

نم في جوار الله سروراً بما قدّمت يوم تزلزل الأقدام

(١) الرعد: ١٦

(٢) القيسي، عبد الكريم الغنيمي، ص ١٦٥

(٣) الزمر: ٣٨

(٤) لسان الدين، الإحاطة ٤/٤٢٦

(٥) الأنعام: ٧٩

(٦) لسان الدين، الإحاطة ٢/٤٧٦

(٧) الضحى: ٣

(٨) لسان الدين، ديوان لسان الدين، ١/٤٢٥

(٩) التوبة: ٧٢

(١٠) لسان الدين، الإحاطة، ٤/٣٣٨

فهو ينظر إلى قوله تعالى: "يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم" (١).
ويبدو الشاعر أبو البقاء الرندي في قوله مصوراً الفتيات الجميلات اللاتي يعانين بعد
الهزيمة في قوله (٢):

وظفلة مثل حسن الشمس إذ طلعت كأنما هي ياقوت ومرجان

متأثر بقوله تعالى: "كأنهن الياقوت والمرجان" (٣).

وقال لسان الدين في رثاء أبي الحجاج مصوراً حال الناس يوم البعث (٤):
إلى أن يقوم الناس تعنو وجوههم إلى باعث الأموات في موقف الحشر

ينظر إلى قوله تعالى: "وعنت الوجوه للحي القيوم" (٥).

وقال أبو حيان الأندلسي في رثاء ابنته نضار مصوراً اشتغالها بالأجر الذي ينفعها يوم
القيامة (٦):

ولكن لها شغل بأجر تعده ليوم معاد حين ينفخ في الصور

فهو ينظر إلى قوله تعالى: "ونفخ في الصور ذلك يوم الوعيد" (٧).

واستوحى الشعراء قصص القرآن الكريم واستفادوا من دلالاتها في التعبير عن معانيهم
وفي تشكيل صورهم ومن أكثر هذه القصص تردداً في شعرهم قصة سيدنا يوسف (عليه السلام)
وحزن أبيه يعقوب (عليه السلام) عليه حتى ابيضت عيناه قال تعالى: "وتولى عنهم وقال يا أسفى
على يوسف وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم" (٨).

وقد شبه الشعراء أنفسهم بـيعقوب -عليه السلام- وشبهوا المرثي بيوسف ويتجلى ذلك في
قول لسان الدين.

في رثاء الملك أبي الحجاج يوسف الأول (٩):

(١) الحج: ١

(٢) المقري، نفع الطيب ٤٨٨/٥

(٣) الرحمن: ٥٨

(٤) لسان الدين، الصبب والجهاد، ص ٥٣١

(٥) طه: ١١١.

(٦) أبو حيان، ديوان أبي حيان الأندلسي، ص ١٨٠

(٧) ق: ٢٠

(٨) يوسف: ٨٤

(٩) لسان الدين، الإحاطة ٣٣٨/٤

يا يوسف أنت لنا يوسف وكلنا في الحزن يعقوب
وقوله^(١):

رأيت يا قلابي وصاك إيم — راهيم بالحزن ويعقوب

إن تأثر الشعراء بالقصص كان قليلاً في المراثي قياساً بتأثر الشعراء بمعاني القرآن وصوره.

وتأثر الشعراء بمعاني الحديث النبوي الشريف وصوره وأخذوا منها ما يتلاءم مع المعاني والمواقف التي عبروا عنها فالشاعر عبد الكريم القيسي في قوله^(٢):

فالصبر بالأجر مقرون ومرتب — في عاجل العمر أو مستقبل الأجل

ينظر إلى قوله صلى الله عليه وسلم - في حديث قدسي: "ما لعبدي المؤمن عندي جزاء إذا قبضت صفة من أهل الدنيا ثم احتسبه إلا الجنة"^(٣).

ويبدو أبو حيان الأندلسي في قوله راثياً لابنته نضار^(٤):

يؤنسها في رسمها العمل الذي — تقمها أعظم به ثم من أنس

قد تأثر بقول الرسول صلى الله عليه وسلم -:"يتبع الميت ثلاثة فيرجع اثنان ويبقى معه واحد يتبعه أهله وماله وعمله، فيرجع أهله وماله ويبقى عمله"^(٥).

واستلهم غير شاعر المعاني التي جاءت في قوله عليه الصلاة والسلام - "إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من الناس، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتى إذا لم يترك عالماً اتخذ الناس رؤوساً جهالاً فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا"^(٦).

ومن تأثر بهذا الحديث أبو عبد الله بن الجنان إذ قال في رثاء سهل الأزدي^(٧):

أما قد علمنا والعقول شواهد — بأن انقراض العلم أصل المهالك

(١) لسان الدين، ديوان لسان الدين ١/١٤٤.

(٢) القيسي، ديوان عبد الكريم القيسي، ص ٤٢٠.

(٣) البخاري، صحيح البخاري، كتاب الرقاق، رقم الحديث ٦٤٢٤ ص ٧٧٠٩.

(٤) أبو حيان، ديوان أبي حيان الأندلسي، ص ٢٢٩.

(٥) البخاري، صحيح البخاري، كتاب الرقاق، رقم الحديث ٦٥١٤ ص ٧٨٥٨.

(٦) مسلم، صحيح مسلم، كتاب العلم، رقم الحديث ٦٧٣٧ ص ٢٦٩.

(٧) لسان الدين، الإحاطة، ٢٨٧/٤.

وتأثر أبو الحسن الوارد بالحديث النبوي أيضاً وذلك في قوله في رثاء القطان^(١):
وهل كان إلا رحمة عاد فقد هـا علامة فقد العلم والله أعلم

وقول ابن زمرك في رثاء الملك الغني بالله^(٢):
وأوردك الرحمن حوض نبيه وأصدر من خلفت عن خير مورد
فهو ينظر إلى قول الرسول عليه الصلاة والسلام: "اصبروا حتى تلقوني على الحوض"^(٣).

أما قول لسان الدين في رثاء الملك أبي الحجاج يوسف الأول^(٤):
والله قد كتب الفناء على الوري وقضاؤه جفت به الأقلام
فقد تأثر بقوله عليه الصلاة والسلام - في حديث ابن عباس المشهور: "يا غلام إنني
أعلمك كلمات... رفعت الأقلام وجفت الصحف"^(٥).
وتأثر غير شاعر بقوله عليه الصلاة والسلام - "إنما القبر روضة من رياض الجنة أو
حفرة من حفر النار"^(٦).

فهم لسان الدين في قوله الذي نقش على شاهد قبر الملك يوسف بن إسماعيل^(٧):
ولست بقبر إنما أنت روضة منعمة الريحان عاطرة النشر
أبو حيان في رثاء ابنته نضار^(٨):
ولا زال ريحان يظل ضريحها فما روضة تحوي كمثل الذي تحوي

(١) نفسه، ٢٤٤/٣

(٢) ابن زمرك، ديوان ابن زمرك، ص ٣٩٠

(٣) البخاري، صحيح البخاري، كتب الرقاق، رقم الحديث ٦٥٧٥، ص ٧٩٨١

(٤) لسان الدين، الإحاطة، ٣٣٨/٤

(٥) الترمذي، سنن الترمذي، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، رقم الحديث ٢٥١٦، ص ٥٧٦

(٦) نفسه، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، رقم الحديث ٢٤٦٠، ص ٥٥١

(٧) لسان الدين، الإحاطة، ٣٣٥/٤

(٨) أبو حيان، ديوان أبي حيان الأندلسي، ص ٤٠٩

العين والولدان والسندس والآراك والأمثلة على ذلك كثيرة منها قول القيسي في رثاء ابني صديقه^(١):

في جنة الخلد حيث الشمل مجتمع والعيش متسع والمرء ذو جذل

وقول لسان الدين في رثاء أبي الحسن المريني^(٢):

عوضت من دار الخلود بمنزل للخلد تجري تحته أنهاره

وقول ابن الجياب في رثاء أبي الحسن بن فضيله^(٣):

واشتروا من إلههم دار عدن فجزاهم قريبا إليه ووصلا
ثم أولاهم نعيماً مقيماً يجمع الطيبات بعضاً وكلا
لهم فيه كل ما يشتهي ورياض حوت مياها وظلا

وتأثروا بالمعاني الإسلامية والصور التي جاءت في القرآن الكريم والحديث حين تحدثوا عن البعث والحساب والصراط ومن ذلك قول لسان الدين بنقش على شاهد قبر يوسف بن إسماعيل^(٤):

إلى أن يقوم الناس تعبنو وجوههم إلى باعث الأموات في موقف الحشر

وتأثر الشعراء بالمعاني الإسلامية وصور القرآن الكريم حين صوروا المرثي من أهل الجنة ينعم فيها ويتقلب بمتعها وملذاتها كما تأثروا بها حين صوروا الملائكة والحدود والولدان والجنة مهلة بقدوم المرثي ويتجلى ذلك في قول ابن زمرك في رثاء الملك الغني بالله^(٥):

وزارتك من حور الجنان أوانس نواعم في كل النعيم المخلد
وجاعتك بالبشرى ملائكة الرضا كما جاء في الذكر الحكيم الممجد

وقول لسان الدين في رثاء الحاجب المريني ابن أبي عمرو^(٦):

ورافقت ولدان الجنان وحوره ومن قدم الخير استطاب وجوره

(١) القيسي، ديوان عبد الكريم القيسي، ص ٢٢.

(٢) لسان الدين، ديوان لسان الدين، ٤٤٣/١.

(٣) ابن الجياب، ديوان ابن الجياب، ص ٥٢٠.

(٤) لسان الدين، الإحاطة، ٣٣٥/٤.

(٥) ابن زمرك، ديوان ابن زمرك، ص ٣٨٩.

(٦) لسان الدين، ديوان لسان الدين، ١٢٧/١.

وقول الملك يوسف الثالث في رثاء أخيه^(١):

لقد زخرفت جنات عدن وبشرت بقربك حور قصدها لك ضامح

ومن المعاني الإسلامية الإيمان بالقضاء والقدر والصبر والرضا بحكمه سبحانه وتعالى،
والإيمان بفكرة الثواب الذي يناله الصابرون على مصابهم ويتضح ذلك في قول ابن الجياب في
رثاء عمر القرشي^(٢):

قضى الأمر فيا نفس اصيري صبر تسليم لحكم القدر
وعزاء يا فؤادي إنه حكم ملك قاهر مقتدر

وقوله في رثاء ابن الزيات^(٣):

عزاء وتقويضاً إلى الله في الذي قضاه بما قد شاءه الله واقع

وقول محمد بن رشيد الفهري في رثاء ولده^(٤):

محمد إن الصبر صبر وعلقم على أنه حلو المثوبة سابق

وقول ابن الجياب في رثاء أبي بكر الساحلي^(٥):

وصبراً جميلاً مطفئاً لوعة الأسى يسهل خطباً من مصيبتنا صعباً

واستدعى الشعراء الشخصيات التاريخية حين أشادوا بمرثيهم ووصفوا جودهم وحلمهم
وتقواهم وشجاعتهم وهنا برزت أسماء مثل "حاتم الطائي" و"الأحنف بن قيس" و"عمرو بن معد
يكرب" و"عنترة" و"هرم بن سنان" ومن ذلك ما جاء في قول محمد بن الحكيم في رثاء أخيه^(٦):

فقد كنت في الجود حاتم طي وفي مجمع الحفل صدر الندي
وفي الحرب عمراً ثباتاً وصبراً إذا طاش بالذعر قلب الكمي

(١) يوسف الثالث، ديوان ملك غرناطة، ص ١٨٦.

(٢) ابن الجياب، ديوان ابن الجياب، ص ٢٦٢.

(٣) نفسه، ص ٣٢٨.

(٤) لسان الدين، الإحاطة، ١٤١/٣.

(٥) ابن الجياب، ديوان ابن الجياب، ص ١٥٦.

(٦) لسان الدين، الكنيية الكاملة، ص ٢١٣، و ٢١٤.

وقول أبي حيان الأندلسي في رثاء ابنته نضار^(١):

وحازت جمالاً بارعاً وفصاحة
فأوضح من شمس أوفصح من قس

وما نقش على شاهد قبر الملك أبي عبد الله محمد^(٢):

بالجود والياس ما تحوي صفايحه
لا بأس عنثرة ولا ندى هـرم

وعاد الشعراء إلى التاريخ اليوناني والفارسي، والتفتوا إلى الماضي بقصد التأسي

والعبرة^(٣) إذ عمدوا إلى استحضار الجبابرة الذين لم يثبتوا أمام الغناء والهلاك ويتجلى ذلك في

قول ابن الجياب في رثاء أبي الوليد إسماعيل^(٤):

وكم كسرت كسرى وفضت جيوشه
فلم تحمة منه كتائب رسنم

وقول أبي البقاء الرندي في نونيته^(٥):

دار الزمان على دارا وفاتله
وأم كسرى فمما آواه إيوان

وقول لسان الدين في رثاء جده الملك يوسف الأول^(٦):

وأردى أنو شروان كسرى بصرفه
كسيراً ولم يترك لقيصر من قصر

واستفاد الشعراء من الأمثال ووظفوها في مراثيهم ومنها ما زال يتردد على ألسنة الناس

ومن ذلك ما جاء في قول لسان الدين^(٧):

يا نفس لا تصغي إلى سلوة
كم أخلف الموعد عرقوب

ويضمن الشاعر المربع في رثاء والد لسان الدين^(٨):

(١) أبو حيان، ديوان أبي حيان الأندلسي، ص ٢٣٠

(٢) لسان الدين، الإحاطة، ١٠١/٢

(٣) حسين خريوش، دراسة الجنب الفني....، ص ١١٢

(٤) ابن الجياب، ديوان ابن الجياب، ص ٥٨٨.

(٥) المقرئ، نفع الطيب، ٤٨٦/٥

(٦) لسان الدين، الصيب والجهاد، ص ٥٢٩

(٧) لسان الدين، ديوان لسان الدين، ١٤٤/١

(٨) المقرئ، نفع الطيب، ١٣/٥

وتجمعت فئة الضلال فقابلت فئة الهدى فتفرقت أيدي سبا^(١)

ومن السمات الأسلوبية التي تميزت بها مراثي هذا العصر أسلوب الحوار وبرز ذلك عند الشاعر عبد الكريم القيسي في رثاء جيل الفتح^(٢):

وقائلة: مالي أراك مقطّـباً كأنك للتقطيب هددت بالذبح
فقلت: دعيني الحزن فرض على الورى أما قد حوى أعداؤنا جيل الفتح؟

وبرز أسلوب الحوار على نقش قبر سكن عزيز على لسان الدين^(٣):

يا قلب كم هذا الجوى والجفوت ذمّاءك استبق لئلا يفوت
فقال: لا حول ولا قول لي قد كان ما كان فحسبي السكوت

وحاور ابن الأزرَق والدته وهي تحتضر^(٤):

تقول لي ودموع العين واكفة ما أفضع البين والترحال يا ولدي
فقلت: أين السرى قالت لرحمة من قد عز في الملك لم يولد ولم يلد

ومن الأساليب البارزة في مراثي هذا العصر المبالغة وهي سمة أساسية من سمات الشعر وقد تجلّت حين تحدث الشعراء عن حالتهم النفسية وصوروا حزنهم ودموعهم التي استحالت دماً وحين صوروا الأرض قد اضطربت ومادت بسكانها ومظاهر الطبيعة تعطلت عن أداء مهمتها كما ظهرت تلك السمة حين رسم الشعراء صورة مثالية لمرثيهم في شجاعتهم ونداهم وعلمهم وزهدهم وبرزت هذه السمة في رثاء الملوك والأمراء ورثاء العلماء ويتجلى ذلك في قول ابن الأبار في رثاء أبي زكريا الحفصي^(٥):

ولقد تنكر كل شيء دونه حتى المغاني الأهلالات بلاقع
غلب التولة فالعقول غوارب نما تحجب والكروب طوالع

(١) الميداني، مجمع الأمثال، ٢٧٥/١.

(٢) القيسي، ديوان عبد الكريم القيسي، ص ٣٤٨-٣٤٩.

(٣) لسان الدين، الصيب والجهاد، ص ٣٣٤.

(٤) المغربي، أزهار الرياض، ٣١٩/٣.

(٥) ابن الأبار، ديوان ابن الأبار، ص ٣٥٦.

وبالغ أبو الحسن الوراء في رثاء القطان^(١):

قضى نحبه الأستاذ واحد عصره فكاد الأسى يقضي إلى الكل منهم

وبالغ أبو جعفر بن أبي جبل في وصفه للحزن على أحمد بن الزبير^(٢):

حقيق لعمري أن تفيض نفوسنا وفرض على الأكباد أن تفتطرا

وكذلك قول ابن زمرك في رثاء الملك الغني بالله^(٣):

ولما قضى المولى الإمام محمد تحكم في الناس الأسى والتأسف

وقد كادت الدنيا تميد بأهلها وقد كادت الشم الشوامخ ترجف

وقد كادت الأفلاك ترفض حسرة وكادت بها الأنوار تخفو وتكسف

وبالغ لسان الدين إذ صور قبر جده أبي الحجاج قبلة^(٤):

فلو أن قبراً صار للناس قبلة جعلنا مصلاً إلى ذلك القبر

ومن الأساليب التي برزت في المراثي ظاهرة التكرار وأولى ما تكرر فيه الكلام باب

الرثاء لمكان الفجعة وشدة القرحة التي يجدها المتفجع^(٥).

وقد حرص شعراء الرثاء في هذا العصر على تكرار ألفاظهم وعباراتهم إدراكاً منهم لما

يوفره ذلك من قيم موسيقية تؤكد معانيهم وتقرع نفوس المتلقين^(٦) فكل تكرار "مهما كان نوعه

يستفاد منه زيادة النغم وتقوية الجرس"^(٧).

ويهدف التكرار في الشعر "إلى إضافة معنى أو معانٍ أو إيقاع لا تحققه الكلمة غير

المكررة"^(٨).

وجاء هذا التكرار على مستوى البيت الواحد والأبيات المتتابعة ومن الأمثلة على ذلك

قول لسان الدين في رثاء ابن الجباب^(٩):

(١) لسان الدين، الإحاطة، ٢٤٤/٣

(٢) نفسه، ٢٠٠/١

(٣) المقرئ، أزهار الرياض، ١٥٠/٢

(٤) لسان الدين، الصيبي والجهان، ص ٥٣٠

(٥) ابن رشيقي، العمدة، ٧٢/٢

(٦) علي البطيل، الصورة الشعرية في الشعر العربي ص ٢١٨ وعبد الله الزيات، رثاء المدن، ص ٥٤٣

(٧) عبد الله الطنيط، انمرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها، ص ٥٦٨

(٨) عبد الحميد انهرامة، القصيدة الأندلسية، ٣٢٥/٢

(٩) المقرئ، نفع الصيبي، ٤٤٦/٥

من للسبدائع أصبحت سمر السرى
 من لليراع يجيل من خطيها
 من للرقاع الحمر يجمع حسنها
 من للفنون يجيل في ميدانها
 من للحقائق ابهمت أبوابها
 من للمساعي الغر تقصد جاهه
 ما بين شام للورى وعراق
 سم العدا ومفاتح الأرزاق
 خجل الخدود وصبغة الأحداق
 خيل البيان كريمة الأعراق
 للناس يفتحها على استغلاق
 حرما فينصرها على الأخفاق

فهو يكرر أداة الاستفهام من ست مرات ليؤكد بتكرارها صفات المرثي الحميدة وافتقاد الشاعر للمرثي في مجالات عدة.

ويستخدم لسان الدين التكرار والحصص ليؤكد صفات ابن الجياب أيضاً^(١):

ما كانت إلا ديمة منشورة
 ما كنت إلا روضة ممطورة
 من غير إرعاد ولا إبراق
 ما شئت من ثمر ومن أوراق

أما الشاعر أبو عبد الله الجنان فقد كرر اسم الاستفهام من اثنتي عشر مرة معدداً صفات أستاذه سهل الأزدي، وليعمل على تركيز موسيقا الأبيات مع تركيزه العاطفي الحزين^(٢):

وكرر الشعراء ألفاظ اللهفة والحسرة والأسف ليؤكدوا حزنهم ولوعتهم لموت المرثي فالشاعر لسان الدين يكرر لفظه أسفاً أربع مرات في رثاء الملك يوسف الأول^(٣):

أسفاً على الخلق الجميل كأنما
 أسفاً على العمر الجديد كأنه
 أسفاً على الخلق الرضي كأنه
 أسفاً على الوجه الذي مهما بدا
 بدر الدجينة قد جلاه تمام
 زهو الحديقة زهره بسلام
 زهر الرياض هما عليه غمام
 طاشت لنور جماله الأفهام

ولننظر إلى هذا الإيقاع الحزين الذي يوفره الشاعر ابن الحاج الغرناطي بتكراره للفعل (مضى) ثلاث مرات مكثفاً إحساسه بالحزن لفقد خاله^(٤):

مضى رب قيس وابن رافع مجدها
 مضى الفارس المغوار يزحف للوغي
 شمال معد حيث كان وعذنان
 على كل مسود النواثر حسان

(١) المقرئ، نفع الطيب، ٤٤٦/٥

(٢) انظر: لسان الدين، الإحاطة، ٢٨٨/٤

(٣) المقرئ، نفع الطيب، ٨٢/٥

(٤) الأمير إسماعيل بن يوسف، نشر فرائد الجنان، ص ٣١٤

مضى العالم البحر الذي خضعت له رقاب المعاني فهي والجيش سيان

ومن التكرار في البيت الواحد ما نظمته لسان الدين في رثاء أبي فارس عبد العزيز المريني^(١):

وسقياً ثم سقياً ثم سقياً يصوب بدمعها جفن الغمام

وأكثر الشعراء من تكرار "كم الخيرية" وبرز ذلك بصورة جلية في معرض حديثهم عن الخصال الحميدة للمرثي وقد أفاد تكرارها التكثير والتعظيم والتركيز أي تركيز عاطفة الحزن وذلك في شعر رثاء المدن للدلالة على كثرة القتلى والأسرى والتدمير، ولإعطاء القصيدة جرساً موسيقياً حزيناً واسع المدى للإيحاء بهول المصيبة وعظمتها وكثرة المصابين فيها ويتجلى ذلك في قول الشاعر المجهول في رثاء مدينة رندة وعدة مدن أخرى^(٢):

وكم طفلة حسناء فيها مصونة	إذا أسفرت يسبي العقول سفورها!
وكم من عجوز يحرم الماء ضمؤها	على الذل يطوي لبثها ومسيرها
وكم فيهم من مهجة ذات ضجة	تود لو انضمت عليها قبورها
وكم من صغير حيز من حجر أمه	فأكبادها حراء لفح هجيرها
وكم من صغير بدل الدهر دينه	وهل يتبع الشيطان إلا صغيرها

(١) لسان الدين، ديوان لسان الدين، ٥٦٤/٢.

(٢) خفاجي، قصة الأدب في الأندلس، ٥٠/٢.

واستخدم ابن زمرك "كم الخبرية" ليعظم مناقب الشريف أبي القاسم الحسني عندما رثاه قائلاً^(١):

كم من غوامض قد صدعت بفهمها خفيت مداركها عن الحذاق
كس قاعد في البيد فوق قعوده قعدت به الأمال دون لحاق

وعمد بعض الشعراء إلى تكرار أداة الاستفهام "أين" لأخذ العبرة والعظة والتساؤل عن مصير الأمم السالفة لتوفير جرس موسيقي حزين ومن ذلك ما ورد في نونية أبي البقاء الرندي^(٢):

أين الملوك ذوو التيجان من يمن وأين منهم أكاليل وتيجان
وأين ما شأده شداد في إرم وأين ما سأسه في الفرس ساسان
وأين ما حازه قارون من ذهب وأين عاد وشداد وقحطان

كما عمد بعضهم إلى تكرار الجمل الشرطية المبدوءة بأداة الشرط "إن" في القصائد التي تضمنت تعزية وتهنئة فجاءت جملة فعل الشرط تعزية أما جملة جواب الشرط فكانت لتهنئة الحاكم الجديد بتقلده أمور الحكم، عدا عن الجرس الموسيقي المتوازن الذي توفره الجملة الشرطية ويتجلى ذلك في قصيدة ابن فركون في تعزية الملك أبي عبد الله محمد بوفاة والده الملك يوسف الثالث وتهنئته بالحكم^(٣):

فإن غاب نور البدر أو منع الحيا نداه فهذا البحر والفجر يجتلى
وإن غرب النجم الذي كان يهتدي به فمحيا الصبح قد لاح مقبلا
وإن صوح المرعى وخف قطينه فهذا هو الروض الذي راق مجتلا
وإن كان وادي النيل جف معينه فيها هو النيل الذي ينبت الكلا
وإن كان ليل الخطب من بعده دجا فقد طلعت شمس الهداية وانجلى
وإن كان فينا الرزء قد جل موقعا فهذا الذي جلى دجاء بما جلا
وإن ضلت الأيام قصد سبيلها فخذ للهدى منه سبيلا موصلا

(١) ابن زمرك، ديوان ابن زمرك، ص ٤٤٦.

(٢) الفاسي، الذخيرة السنية، ص ١١٢.

(٣) ابن فركون، ديوان ابن فركون، ص ٣٨٢.

و عمد الشعراء إلى زيادة النغم الموسيقي داخل القصيدة وتنويعه أيضاً وذلك عندما كرروا فيها غير لفظة وعبرة، والأمثلة على أسلوب التكرار كثيرة^(١):

وتتسم بعض مرثي هذا العصر بالطابع الإنشائي من نداء واستفهام وأمر وتمن فاستخدم الشعراء النداء بأدواته المختلفة "يا" و"الهمزة" و"أيها" وعبروا من خلاله عن معان عدة منها الألم والحسرة ومن ذلك قول ابن الحاج الغرناطي في رثاء خاله ابن عاصم القيسي^(٢):

أخلاه خان الصبر بعدك وانتحت لواعج وجد بالأسى غير حران

وقول ابن زمرك في رثاء الملك الغني بالله^(٣):

أمولاي يا مولاي هل أنت سامعي أبئك ما يشجي القلوب ويدميها

وجاءت تلك المعاني حين خاطب الشعراء قلوبهم ودموعهم الملتهبة بالدموع الغزيرة وكذلك حين توجهوا بالخطاب إلى المرثي ونقلوا له لوعتهم وحرقتهم وكشفوا عن حالهم بعده وتجلي ذلك في قول ابن الجياب في رثاء الملك أبي الوليد إسماعيل إذ قال^(٤):

أيا عبرة العين امزجي الدمع بالدم ويا زفرة الحزن احكمي وتحكمي
ويا قلب ذب وجداً وغماً ولوعة فإن الأسى فرض على كل مسلم

وقول أبي حيان في رثاء ابنته نضار^(٥):

يا ليلة البين من نضار صعدت قلبي بما جنبت
يا تربة قد حوت نضارا طبت شذا بالذي حويت

وقول ابن شبرين في رثاء محمد البلوي^(٦):

يا عين سحي بدمع واكف سرب لحامل الفضل والأخلاق والأدب

(١) للمزيد من الأمثلة انظر: أبو حيان الأندلسي، ديوان أبي حيان ص ١٧٨ و ١٤٣ و ٤٠٨، وانظر: يوسف الثالث، ديوان ملك غرناطة الصفحات: ١٦، ١٧، ١٦٧، ١٦٨، ١٣٩، ١٧٧، ٧٨، ١٠٦، وابن زمرك، ديوان ابن زمرك، ٤٤٠ و ٢٨٤ و ٥١٠، لسان الدين، الإحاطة، ٢٨٨/٤ و ٢٨٩ و ١٠١/٢ و ٧١/٤، الكتيبة ص ٢١٣ و ديوان لسان الدين ١٨٥/١ و ٤١٨ و ٤٤١ و ٤٤٢ ابن الجياب، ديوان ابن الجياب الصفحات ٣٢٦ و ٥٨٧ و ٥٨٨ و ٤١٤ و ٤٦٤ و ٢٣٢ و ١٥٨ و ٥٨٤، ابن فركون، ديوان ابن فركون ١٣٨ و ٣٥٩ و ١٣٢ و ١٣٣.

(٢) الأمير إسماعيل بن الأحمر، نثر فرائد الجنان، ص ٣١٦

(٣) ابن زمرك، ديوان ابن زمرك، ص ٥١١

(٤) ابن الجياب، ديوان ابن الجياب، ص ٥٨٧

(٥) أبو حيان، ديوان أبي حيان، ص ١٢٣

(٦) لسان الدين، الإحاطة، ٢٢٢/٣

ومن المعاني التي ذهب إليها النداء ومعنى الدعاء ومن ذلك ما جاء في القصيدة التي نظمها أبو القاسم بن يوسف الأنصاري لتسجل على شاهد قبر أبيه^(١):

الهي خدي في التراب تذلا بسطت عسى رحماك يحيى بها الروح

وقول شاعر المراثية المجهولة في رثاء مدن مملكة غرناطة^(٢):

إله البورى ندعوك خير مرتجى لكالحة هز الصليب سرورها

وقول القيسي في رثاء القاضي ابن مفضل^(٣):

يا رب أممن خوفه وارحمه في يوم الحساب

وقوله في رثاء مدن أندلسية سقطت^(٤):

يا من إذا الكربات حلت لم يزل يكفى الكروب الحادثات ويكشف

واستخدم الشعراء النداء المعبر عن معنى التعجب وتجلى ذلك في قول ابن الجياب ونقش

على شاهد قبر الملك أبي عبد الله بن أبي عبد الله^(٥):

فيا عجباً طود الوقار جلاله ثوى تحت أطباق الصفيح المنضد

وقول ابن زمرك في رثاء الملك الغني بالله^(٦):

ويا عجباً من ذلك الترب كيف لا يفيض بسبحر للسماحة مزبد

وقول ابن الجياب في رثاء أبي الحسن بن فضيلة^(٧):

يا لها من مصيبة عظم الرزء على المسلمين فيها وجل

(١) لسان الدين، الإحاطة، ٤٢٦/٤

(٢) خفاجي، قصة الأدب في الأندلس، ٥٤/٢

(٣) القيسي، ديوان عبد الكريم القيسي، ص ٣٤٢

(٤) نفسه، ص ٢٩٥

(٥) ابن الجياب، ديوان ابن الجياب، ص ٢٣١

(٦) ابن زمرك، ديوان ابن زمرك، ص ٣٨٨

(٧) ابن الجياب، ديوان ابن الجياب، ص ٥١٩

وخرج النداء ليفيد معنى الزجر وهذا ما جاء في قول ابن الجياب في رثاء أبي الوليد إسماعيل بن فرج^(١):

ويا سلوة الأيام لا كنت فابعدني إلى حيث القت رحلها أم قشعم

وفوله في رثاء أبي بكر الساحلي^(٢):

ويا قلبي الهيمان إن لم تذب أسي على علم الأعلام ما أنت لي قلبا
وإن لم تفيضني اليوم يا نفس حسرة فما أنت مني بالوداد ولا القربى

وكثيراً ما خاطب الشعراء المرثي دون اللجوء إلى أدوات النداء ومن ذلك قول لسان الدين في رثاء أبي الحجاج يوسف الأول^(٣):

مولاي هل لي للقصور زيارة بعد انتزاع الدار أو الإمام

وقول الملك يوسف الثالث في رثاء ولده^(٤):

قرة العين ما عسى فيك يجدي تذكري

أما الاستفهام فهو مستحب في الرثاء وقد استعان الشعراء بأدواته المختلفة مثل "أين" و"من" و"الهمزة" وعبروا من خلالها عن معاني عدة منها الألم والحزن ومن ذلك قول أبي الحسن الوراد^(٥):

وهل كان إلا والد مات عنهم فيا من لقوم يتموا حين أو أيما

وقول ابن الجياب في رثاء ولده أبي القاسم^(٦):

كيف السلو ولا سلو وإنما غالطت فيه بصبري الكذاب

(١) نفسه، ص ٥٨٧

(٢) نفسه، ص ١٥٣

(٣) لسان الدين، ديوان لسان الدين، ٥٥٨/٢

(٤) يوسف الثالث، ديوان ملك غرناطة، ص ٨٦

(٥) لسان الدين، الإحاطة، ٢٤٤/٣

(٦) ابن الجياب، ديوان ابن الجياب، ص ١٥٧

واستخدام الشعراء الاستفهام ليفيد معنى التعظيم وهذا كثير في مراثيهم ومنه قول لسان الدين في رثاء ابن الجياب^(١):

من للفنون جليل في ميدانها خيل البيان كريمة الأعراق
من للرقاع الحمر يجمع حسنها خجل الخدود وصبغة الاحداق

وقول أبي عبد الله بن الجنان في سهل بن محمد الأردني^(٢):

ومن لكتاب الله يدرس وحسيه ويقبض منه النور غير متارك
ومن ذا يزيل اللبس في متشابهه ومن ذا يزيح الشك عن متشابهك

ومن المعاني التي عبر عنها الاستفهام التمني وجاء ذلك في قول يوسف الثالث في رثاء زوجه^(٣):

أحقاً يعود الشمل بعد شتاته جميعاً ويحيى الأئس بعد مماته؟
وهل فانت في الدهر يرجى معاده وهل طمع بعد الردى في ثباته؟

واستخدم الشعراء أسلوب الاستفهام الدال على الاستكثار وتجلى ذلك في قول أبي البقاء الرندي في رثاء الأندلس^(٤):

أعندكم نبأ من أهل أندلس فقد سرى بحديث القوم ركببان

وقول ابن الأبار في رثاء السلطان أبي زكريا الحفصي^(٥):

ما للنجوم طوالعاً؟ ما للجبا لرواسياً؟ ما للبحار طوامي؟

وقول ابن فركون في رثاء الملك يوسف الثالث^(٦):

أحقاً ثوى تحت الثرى ملك الورى وأورده المقادير للحسيف منهلا

(١) لسان الدين، ديوان لسان الدين، ٧٠٩/٢

(٢) لسان الدين، الإحصاء، ٢٨٨/٤

(٣) يوسف الثالث، ديوان ملك غرناطة، ص ١٥ و ١٦

(٤) المفري، نفح الطيب، ٤٨٨/٥

(٥) ابن زمر، ديوان ابن زمر، ص ٢٦٣

(٦) ابن فركون، ديوان ابن فركون، ص ٣٨٢

وقول ابن الجياب في رثاء ولده أبي القاسم^(١):

أحقاً ثوى ذاك الشباب فلا أرى له بعد هذا اليوم حولي مجلساً

ومن الاستقهام الذي يفيد معنى الاستبعاد قول يوسف الثالث في رثاء أبيه^(٢):

خليلي أين الصبر منا ويوسف وأين أيديهِ الكريمة تصرف؟

وقول أبي حيان في رثاء ابنته نضار^(٣):

أبعد نضار ابتغي صفو عيشة وقد كدرت يا بعد عيش من الصفو

وجاء معنى النفي في قول الملك يوسف الثالث^(٤):

وهل فانت في الدهر يزجي معاده وهل طمع بعد الردى في ثباته

واستخدم الشعراء أسلوب الأمر على سبيل الالتماس وهو طلب الفعل من المساوي له منزله وقدر^(٥).

وجاء هذا المعنى حين عزى الشعراء ذوي المرثيين وحثوهم على الصبر والتجلد

والتماسك في مصابهم مثل قول أبي محمد عبد الله الأزدي في تعزية لسان الدين بوالده وأخيه^(٦):

فاستغن بالرحمن عمن قد ثوى من حزب خير من ارتضى ومن اجتنبى

وقول لسان الدين في رثاء الوزير ابن الجياب^(٧):

صبراً بنى الجياب إن فقدكم سيسر مقدمه بما هو لاق

ومنه ما نقش على قبر أبي البقاء الرندي من نظمه^(٨):

خليلي بالود الذي بيننا اجعلا إذا مت قبري عرضة للرحم

(١) ابن الجياب، ديوان ابن الجياب، ص ٢٨٠

(٢) يوسف الثالث، ديوان ملك غرناطة، ص ١٤٤

(٣) أبو حيان، ديوان أبي حيان، ص ٤٠٨

(٤) يوسف الثالث، ديوان ملك غرناطة، ص ١٥

(٥) أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة، ص ٦٥

(٦) المغربي، نفح الطيب، ١٢/٥

(٧) الاحطاه، ٢٢٢/٣

(٨) لسان الدين، ديوان لسان الدين، ٧١١/٢

وجاء الأمر دالاً على التمني وذلك في قول ابن شبرين في رثاء محمد البلوي^(١):

يا عين سحي بدمع واكف سرب لحامل الفضل والأخلاق والأدب

وخرج الأمر ليفيد معنى الدعاء حين دعا الشعراء لمرثيهم بالرحمة والسقيا ومن ذلك

قول أبي عبد الله بن الجنان في سهل الأزدي^(٢):

فيا رحمة الرحمن وافي جناحه ويا روحه سلم عليه وبارك

وقول عبد الكريم القيسي في رثائه لابن مفضل^(٣):

وقله إذا قام السورى للعرض محذور العقاب

ويستخدم أبو الحسن الوراد الأمر الدال على النصيح والإرشاد في رثاء محمد القطان^(٤):

أعد لها درياق صبرك إنها من البؤس والتلوين والله أرقم

وكذلك ابن زمرك في رثائه للملك الغني بالله^(٥):

فسلم إلى رب القضاء قضاءه فيفعل ما يشاء سبحانه فاعل

أما أسلوب التمني فقد جاء معبراً عن آمال الشعراء ورغباتهم لحظة وقوع الحدث فقد

تمنوا الموت على الحياة وعملوا على تعزية أهل المرثي ومن الأمثلة على ذلك قول ابن فركون

في رثاء الملك يوسف الثالث^(٦):

يمينا لقد جاز الأسى منتهى الحد فيا ليت حسن الصبر في مثلها يجدي

ومن ذلك قول محمد الغافقي في رثاء بنت ماتت للسان الدين^(٧):

فليتني كنت للأبصار مرتقباً مع الوفود التي راقبت أراحمها

(١) نفسه، الإحاطة، ٣٧٥/٣.

(٢) نفسه، ٢٩٠/٤.

(٣) القيسي، دة ابن عبد الكريم القيسي، ص ٣٤٢.

(٤) لسان الدين، الإحاطة، ٢٤٣/٣.

(٥) ابن زمرك، ديوان ابن زمرك، ص ٢٨٣.

(٦) ابن فركون، ديوان ابن فركون، ص ١٣٢.

(٧) لسان الدين، الكتيبة الكاملة، ص ٢٤٧.

وفي قصيدة نظمها الشاعر المجهول في رثاء مدن مملكة غرناطة تمنى الموت على الحياة وتمنى لو أنه لم يولد فقال^(١):

ويا ليت أُمِّي لم تَدُلَّنِي وليتني
ليت ولم يَفْجِ فُوَادِي حُرُورَهَا

ومن الأساليب البارزة في مراشي عصر بني الأحمر استخدام مصطلحات العلوم وهذا أمر طبيعي فغالبيت شعراء ذلك العصر من علماء اللغة أو الفقه أو الطب أو غيرها من العلوم، فهذا أبو حيان الأندلسي يستخدم أحد مصطلحات النحو في رثاء ابنته نضار وزوجته زمرد^(٢):

وكنا الذي مع وصلة لي وعائد
وقد حذفنا لم يبق لي سوى الذي

واستخدم ابن الأبار مصطلحات علم البلاغة ويتجلى ذلك في قوله في رثاء صديقه محمد^(٣):

أمعنى العلى خلفت من بعدك العلى
على الرغم منا وهى لفظ بلا معنى

وقول عبد الكريم القيسي في رثاء الكاتب محمد الأزرق^(٤):

وحقيقة الأشياء مثل مجازها
فالموت فيها عند كل محقق

وكذلك ابن الجياب في رثاء أبي بكر الساحلي^(٥):

أكن لكم فى القلب حباً مخلصاً
صحيح المعاني أحرز الأثر والكسب

واستخدموا الكثير من المصطلحات الفقهية ومن ذلك قول ابن الجياب في رثاء ولده أبي القاسم^(٦):

وقفت فُوَادِي مَذْرَحَتِ عَلَى الْأَسَى
فأشهد لا ينفك وقفاً محبساً

وقوله في رثاء ابن الزيات^(٧):

فطوبى لعبد نور الله قلبه
فطلقها تطليق من لا يرجع

(١) خفاجي، قصة الأدب في الأندلس، ٤٩/٢.

(٢) أبو حيان، ديوان أبي حيان، ص ١٦٨.

(٣) ابن الأبار، ديوان ابن الأبار، ص ٣١٨.

(٤) القيسي، ديوان عبد الكريم القيسي، ص ٤٠٣.

(٥) ابن الجياب، ديوان ابن الجياب، ص ١٥٦.

(٦) ابن الجياب، ديوان ابن الجياب، ص ٢٨٠.

(٧) نفسه، ص ٣٢٧.

وقوله في رثاء الملك أبي الوليد إسماعيل^(١):

أما الجهاد فقد أحي معالمه وقام منه بمفروض ومسنون

وقول ابن الأبار في رثاء أبي زكريا الحفصي^(٢):

وحديث سلواني متى أسمعته فاحكم عليه بأنه موضوع

واستخدم عدد من الشعراء ألفاظاً ومصطلحات من واقع الصراع في العقيدة مع الأسبان

وبرز ذلك بصورة جلية في مرثي الملوك والمدن ومنها ألفاظ "بيعة" و"كنيسة" و"الناقوس"

و"الصلبان" "التثليث" ويتجلى ذلك في قول ابن الجياب في رثاء أمير نصري^(٣):

تبكي عليك عساكر النصر التي أرسلتهم معاً مع الصلبان

وقول ابن زمرك في رثاء الملك الغني بالله^(٤):

وتفتح من بلدانه كل مقفل يعبد عباد الصليب ويؤسف

وقول أبي البقاء الرندي في نونيته^(٥):

حيث المساجد قد صارت كنائس ما فيها إلا نواقيس وصالبان

وقول ابن زمرك في رثاء الملك الغني بالله^(٦):

وكسر تمثال الصليب وأخرست نواقيس كانت للضلال بمرصد

وقول ابن الأبار في سينيته^(٧):

يا للمساجد عادت للعدا بيعة وللنذاء غدا اثناءها جرسا

(١) نفسه، ص ٤٦٦

(٢) ابن الأبار، ديوان ابن الأبار، ص ٣٥٨

(٣) ابن الجياب، ديوان ابن الجياب، ص ٤٦٤

(٤) المغري، أزهار الرياض، ١٥١/٢

(٥) الفاسي، التخيير السنية، ١٠٠

(٦) ابن زمرك، ديوان ابن زمرك، ص ٣٩٠

(٧) المغري، أزهار الرياض، ٢٠٧/٣

ويستخدم ابن الأثير لفظة "التثليث" مستجداً بأبي زكريا الحفصي^(١):

وأكثر الزعم بالتثليث منفرداً ولو رأى رأية التوحيد ما نسبنا

الاتباعية:

إن الشعر الأندلسي جزء من الشعر العربي والشعراء العرب يطعمون من الزاد الثقافي نفسه ويحفظون أشعار من سبقهم من الشعراء ويتعمقون فيه ويتأملون أساليبه لاسيما قصائد الفحول الذين رسموا التقاليد الفنية الموروثة، ولم يجانب أبو هلال العسكري الصواب إذ قال: ليس لأحد من أصناف القائلين غنى عن تناول المعاني ممن تقدمهم والصب على قوالب من سبقهم ولكن عليهم إذا أخذوها أن يكسوها ألفاظاً من عندهم ويبرزوها في معارض من تأليفهم^(٢).

ورغم البعد الجغرافي للأندلس عن المشرق بقيت الروابط الثقافية والدينية واللغوية قوية بينهما، تستمد تلك الروابط التجدد والحياة بعدة طرق منها، السفر إلى المشرق للاستزادة من العلوم المختلفة، والحج، ونشاط حركة التبادل الثقافي بين المغرب والمشرق وانتشار دواوين الشعراء الفحول في الأندلس ومن أبرزها دواوين أبي تمام والبحتري والمتنبي والمعري عدا عن كون المشرق جذراً يرتكز عليه شعراء غرناطة وشعبها لمقاومة محو وجودهم وشخصيتهم من قبل عدو مختلف عنهم في لغته ودينه وثقافته.

وقد حافظ الشعر في العصر الغرناطي على الأبنية القديمة للشعر العربي^(٣).

فالثقافة العربية الإسلامية وحدث المشرق والمغرب، واستوعبت مملكة غرناطة تلك الثقافة وتمثلتها حتى في نقوشها وخطوطها على جدران الحمراء حيث تنوعت بين خطوط مشرقية وأخرى مغربية في تأكيد على التواصل بين أعضاء العالم الإسلامي^(٤).

وقد رأى بعض الباحثين أن الشعر الأندلسي متأثراً بالأدب المشرقي تأثراً عميقاً^(٥) مما يؤكد أصالته ونزوعه لمجازاة التراث العربي القديم وتمثل تقاليده وقيمه^(٦) لكن ذلك لا يعني أن القصيدة الأندلسية كانت صدى أو تقليداً للقصيدة المشرقية ولا يعني هذا أيضاً أن الشعر الأندلسي

(١) نفسه، ٢٠٧/٣.

(٢) أبو هلال، الصناعات، ص ٢١٧.

(٣) سراج بلزجي، الغزل في الشعر الأندلسي في ظل بني الأحمر، ص ٢٦٧.

(٤) النظر: صلاح جرار، ديوان الحمراء، ص ٦٢.

(٥) انظر: جودت التركاوي، في الأدب الأندلسي، ص ١١٤-١١٥، وانظر عيسى إبراهيم فارس، أثر المتنبي في أشعار ابن هاني وابن

زمر، ص ٢٤٨.

(٦) النظر: أمسان عيسى، الشعر في الأندلس، ص ١٩١، وانظر سعد إسماعيل شلبي، البيئة الأندلسية وأثرها في الشعر، ص ٣٨٤،

وانظر: محمد حرميني، خصائص الشعر الأندلسي في عصر غرناطة، ص ١٦٢.

عامّة وشعر عصر غرناطة خاصة كان فقيراً من الناحية العاطفية والفكرية كما يدعي غرسيا غومس^(١).

ولابد من الإشارة إلى أن الانتماء في الفكر الأندلسي انتماء خاص له مزاياه ولكن هذا لا يعني عدم التأثير بالآخرين لاسيما وأن علائق الدين والدم والتاريخ واللغة تربط بين المشرق والمغرب^(٢).

وقد شاعت ظاهرة الاحتذاء والتقليد عند شعراء عصر بني الأحمر ومن يطالع كتب الأدب والنقد في ذلك العصر^(٣) يدرك تلك الحقيقة ومما يؤكد شيوع تلك الظاهرة ما نجده في شعر الرثاء إذ يتضح أن ناضيه كانوا مطلعين اطلاقاً واسعاً على التراث الشعري، فحدّوا حدّو سابقيهم من فحول الشعراء العرب عبر عصور الأدب العربي المختلفة وتأثروا بهم وقلّدوهم. واتخذ هذا التقليد سبلاً شتى منها أن كثيراً منهم نقلوا عبارات سابقيهم من الشعراء بلفظها ومعناها وربما أجروا عليها تعديلاً بسيطاً كأن يقدموا ويؤخروا فيها أو يباعدوا بين ألفاظها ومن ذلك ما جاء في قول الشاعر أبي المطرف بن عميرة في رثاء بلنسية^(٤):

تغير ذاك العهد بعهدي وأهله ومن ذا على الأيام لا يتغير

فقد تأثر بقول كثيرة عزّة^(٥):

وقد زعمت أني تغيرت بعدها ومن ذا الذي يا عز لا يتغير

وقول ابن المرباط متحدثاً عن الأندلس^(٦):

كم جامع فيها أعيد كنيسة فأهلك عليه أسى ولا تتجدد

متأثر بعبارة طرفة بن العبد في معلقته^(٧):

وقوفاً بها صبحي علي مطربهم يقولون لا تهلك أسى وتجلد

(١) انظر: انخل بلنسيا، تاريخ الفكر الأندلسي، ص ٤٢.

(٢) انظر: عبد الله علي بن لقمان، الانتماء في الأدب الأندلسي، ص ٤٢ وانظر عبد الله المعطاني، المنظور الحضاري، ص ١٤٤.

(٣) مفاد رحيم، اتجاهات نقد الشعر في الأندلس، ص ٢٢٦، وما بعدها.

(٤) السقري، نفع الطيب، ٤/٤٩٤.

(٥) كثيرة عزّة، ديوان كثير عزّة، ص ٦١.

(٦) ابن خلدون، العبر، ٤/١١١.

(٧) الزوزني، شرح المعلقات السبع، ص ٦٢.

ويبدو الشاعر ابن الجياب في قوله^(١):

وقطعت آمالي من الناس كلهم فلست أبالي أحسن المرء أم أسا

متأثراً بالمتنبي في رثائه لوالده سيف الدولة^(٢):

وهان فما أبالي بالرزايا لأنني ما انتفعت بأن أبالي

وكما جاء في قول أبي موسى هارون بن هارون من قصيدته في رثاء اشبيلية^(٣):

يا جنة زحزحتنا عن زخارفها ذنوبنا فلزمننا البست والندما

وكما يبدو من قول أبي مطرف بن عميرة في رثاء بلنسية^(٤):

وهل أذنب الأبناء ذنب أبيهم فصاروا إلى الإخراج من جنة الخلد

فهما قد تأثرا بفكرة الفرزدق في قوله^(٥):

وكانت جنتي فخرجت منها كأدم حين أخرجه الضرار

وتأثر الشعراء في هذا العصر بمعاصريهم من الشعراء الأندلسيين لسان الدين بقول في

رثاء أبي الحسن المريني^(٦):

حتى تحج محله رفعوا بها علم الوفاء لآعين النظر
فيصير منها البيت بيتاً ثانياً للطائفين إليه أي بدار
نعني قلوب القوم عن هدى به ودموعهم تكفي لرمي جمار

وقد تأثر بالمعاني والصور التي قدمها ابن الأبار في رثاء أبي زكريا الحفصي^(٧):

حجى لأجداث أطاب ترابها بشذى كما هب النسيم بضوع
والهدي في تلك المشاعر قدست - قلب جذاذ والجمار دموع

(١) لسان الدين، الإحاطة، ١٣٦/٤.

(٢) المتنبي، ديوان المتنبي، ص ١٤٢/١.

(٣) ابن عذاري، النيران المغرب، ص ٣٨٢/٣.

(٤) المغربي، نفح الطيب، ٢٠٥/١.

(٥) الفرزدق، ديوان ص ٣٠٠.

(٦) لسان الدين، ديوان لسان الدين، ٤٢٠/١.

(٧) ابن الأبار، ديوان ابن الأبار، ص ٣٥٨.

وحذا الشعراء حذو سابقهم في المعاني والصور فأخذوا منها ما يتلاءم مع الموضوعات التي عبروا عنها وصورها وبرز ذلك بصورة جليلة في مراثيهم فقد نهجوا نهج سابقهم في المعاني والصور التي قدموها للموت وذلك حين تحدثوا عن حتميته وعدله وصوروه كأساً يدور على الخلق كلهم قويهم وضعيفهم مليكهم وعامتهم وضربوا الأمثال على ذلك بالأمم البائدة والملوك السابقين أمثال عاد وتبع وساسان وكسرى وقيصر .

واتبعوا سابقهم في نظرتهم للدهر إذ عبروا عنه بصروف الليالي وتصارييف الزمان وصوروه عدوا للبشر يصوب اليهم سهامه ويرميهم بالمصائب والأوجاع، كما برزت الاتباعية حيث تحدثوا عن الدنيا فبينوا أنها دار فناء لا أمان لها ووسموها بالغدر والخيانة.

وجاروا القدماء في رسم صورة مثالية للمرثي فقد اصفوا عليه كل الصفات الحميدة التي يعتز بها العربي والمسلم منذ القدم مثل: الجود والشجاعة والحلم والعفة والزهد والتقوى وغيرها مما مر في ثنايا هذه الرسالة.

وقد ذكر شعراء هذا العصر في مراثيهم أسماء أماكن مشرقية تاريخية كاللوى والمشقر ونجد وأحد وتهلان ورضوى^(١) مما يدل على حرصهم على اقتفاء تقاليد المراثية المشرقية رغم أن الأندلس لا ينقصها جبال ولا طبيعة خلابة^(٢).

وأخذوا معاني سابقينهم وهم يصفون حزنهم ودموعهم الممتزجة بالدماء وحين صوروا أرقهم وتعاستهم وأكبادهم المحترقة وقلوبهم المشتعلة بالأسى والحزن، والأمثلة على هذا الضرب من التأثير كثيرة في مراثي هذا العصر يتبين منها أن عدداً من الشعراء كانوا يقصدون احتذاء نماذج شعرية معينة محاولين تقليدها والاستفادة مما جاء فيها من معاني وصور، ومن ذلك ما جاء في القصيدة التي نظمها لسان الدين في رثاء جدة الملك أبي الحجاج يوسف الأول^(٣):

نعد الرماح المشرفية والقنى ويطرق أمر الله من حيث لا ندري
وهل خفض التأنيث للشمس رتبة وهل رفع التذكير من رتبة البدر

وقد تأثر لسان الدين بالمعاني والصور التي قدمها المتنبى في رثاء والدته سيف الدولة^(٤):

نعد المشرفية والعوالي ونقتلنا المنون بلا قتال
وما التأنيث لاسم الشمس عيب ولا التذكير فخر للهلال

وشاعت ظاهرة التضمين في مراثي هذا العصر والتضمين "هو قصدك إلى البيت من الشعر أو القسم فتأتي به في آخر شعرك أو في وسطه كالمتمثل"^(٥).

وقد اهتم شعراء عصر بني الأحمر بالتضمين واعجبوا به وقد ضمن شعراء المراثي أشعاراً لأبي العتاهية وللكميت ولامرئ القيس ولبعض معاصريهم ويتجلى ذلك في قول لسان الدين في رثاء أبي سالم المريني^(٦):

بني الدنيا بني لمع السراب ادوا للموت وابنوا للخراب

(١) رضوى: اسم لعنة جبل شهرها جبل بالمدينة المنورة، انظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ١١/٣.

(٢) انظر: حسين خريوش، دراسة الجانب الفني في المراثية الأندلسية، ص ١١٣.

(٣) لسان الدين، ديوان لسان الدين، ص ٥٢٨.

(٤) المتنبى، ديوان أبي الطيب المتنبى، ١٤٠/٣ و ١٤٩.

(٥) ابن رشيد، المعتمد، ٨٠/٢ و ٨١.

(٦) لسان الدين، ديوانه، ١٦١/١.

فهو يضمن صدر قول أبي العتاهية^(١):

لَسَدُوا لِلْمَوْتِ وَابْنُوا لِلْخَرَابِ فَكَلَّكُمْ بِصَيْرٍ إِلَى تَبَابِ

وقول ابن شيرين في رثاء محمد السبتي^(٢):

يَا بَيْنَ قَدْ طَالَ الْمَدَى أَبْرَقَ وَأَرْعَدَ يَا يَزِيدَ

ضمن صدر قول الكميت^(٣):

أَبْرَقَ وَأَرْعَدَ يَا يَزِيدَ دَفَمَا وَعَيْدِكَ لِي بِضَائِرَ

وقول لسان الدين في رثاء ثلاثة من أصدقائه تقاربت وفياتهم^(٤):

لَمَنْ دَمِنْ يَشْكُو الْعَفَاءَ رَسُومَهَا كَخَطِ زَبُورٍ فِي مَصَاحِفِ رَهْبَانِ

فهو قد ضمن عجز قول امرئ القيس^(٥):

أَتَيْتُ حَجَّجَ بَعْدِي عَلَيْهَا فَأَصْبَحْتُ كَخَطِ زَبُورٍ فِي مَصَاحِفِ رَهْبَانِ

وقول الملك يوسف الثالث^(٦):

وَفِي الْمَهْدِ مَبْغُومُ النَّدَاءِ كَأَنَّهُ يَقُولُ وَلَيْسَ الْفَهْمُ مِنْ كَلِمَاتِهِ

وهو تضمن لقول ابن دراج القسطلي^(٧):

تَتَأَسَّدُنِي عَهْدُ الْمَوْدَةِ وَالْهَوَى وَفِي الْمَهْدِ مَبْغُومُ السَّنَاءِ صَغِيرَ

وقول لسان الدين في رثاء الحاجب المريني ابن أبي عمرو^(٨):

هُوَ الْبَيْنُ حَتَّمَا لَا لَعْلَ وَلَا عَسَى وَمَاذَا عَسَى يَغْنَى الْوَلِيَّ وَمَا عَسَى

(١) أبو العتاهية، ديوان أبي العتاهية، ص ٤٦.

(٢) المقرئ، نفح الطيب، ٢٥٢/٦.

(٣) الكميت، شعر الكميت بن زيد الأسدي، ٢٢٥/١.

(٤) لسان الدين، ديوان لسان الدين، ٦٢٣/٢.

(٥) امرؤ القيس، ديوان امرؤ القيس.

(٦) يوسف الثالث، ديوان ملك غرناطة، ص ١٦.

(٧) ابن دراج القسطلي، ديوان ابن دراج القسطلي، ص ٢٩٨.

(٨) لسان الدين، ديوان لسان الدين، ١٢٧/١.

فهو قد ضمن صدر قول ابن الجياب في رثاء ولده أبي القاسم^(١):
هو البين حتماً لا لعل ولا عسى فما بال نفسي لم تفض عنده أسي

الصنعة البديعية:

شاع البديع في عصر بني الأحمر شيوعاً كبيراً، ولقي علم البديع "إقبالاً ملحوظاً في التأليف والدراسة من قبل نقاد الشعر والبلاغيين في الأندلس في عصر بني الأحمر"^(٢). ويعود شيوع هذه الظاهرة في أدب ذلك العصر إلى أسباب عديدة منها أسباب اجتماعية فقد كان الناس متأثرين بمظاهر عصرهم المزدانة التي كانت تجنح نحو الترف والزخرف المبالغ فيها وساعدت الحياة الثقافية آنذاك على الميل نحو هذه الظاهرة فقد تأثر الأدباء بمذاهب المتقدمين في هذه الصناعة.

وإذا نظرنا إلى مرآتي هذا العصر فإننا نجد في هذا المجال تيارين: تيار أسرف في استخدام الفنون البديعية فطغت الزخرفة اللفظية على المضامين والمعاني التي أراد التعبير عنها الأمر الذي أدى إلى التعقيد والتكلف وتيار آخر أكثر من استخدامها إلا أنها لا أثر لها على المعاني التي عبر عنها وهذا التيار الغالب على شعراء هذا العصر. وشغف أدباء ذلك العصر بفنون بديعية أكثر من غيرها فاستحوذت على اهتمامهم ومن هذه الفنون التورية والجناس والطباق الأمر الذي أدى إلى ظهور مؤلفات خاصة فيها مثل كتاب "رائق التحلية في فائق التورية" لابن زرقالة^(٣).

ولقد عدوا التورية من أعلى فنون البديع وانخرط في سلكها عدد كبير من شعراء بني الأحمر وتنافسوا في الإتيان بكل بديع منها ومن هؤلاء الشعراء لسان الدين وابن الجياب والقيسي وغيرهم والحاجة إلى التورية كانت للتعبير عما يختلج في نفوسهم من حزن وألم وساعدهم على ذلك طبيعة خلابة وميل للسخرية والتكلف أحياناً. ومن ذلك ما جاء في قول لسان الدين موظفاً المظاهر الطبيعية في التورية في رثاء أستاذه صفوان^(٤):

وقد كان صفواناً عليه طلاوة فأصبح صفواناً عليه تراب

(١) لسان الدين، الإحاطة، ١٣٥/٤

(٢) مقدار رحيم، اتجاهات نقد الشعر في الأندلس، ص ٢٢٤. وانظر: محمد رضوان النادية تاريخ النقد الأدبي في الأندلس ص ٤٤٨

(٣) انظر: مقدار رحيم، اتجاهات نقد الشعر في الأندلس، ص ٢٢٦ وما بعدها.

(٤) لسان الدين، الصيبي والجهايم، ص ٣٠١

وجاءت التورية في لفظة (صفوان) فالمعنى القريب لها هو الحجر الأملس أما المعنى البعيد وهو المقصود فهو المرثي أبو جعفر بن صفوان.

وورى لسان الدين في رثاء اصدقائه^(١):

نسبت إلى ماء السماء مدامعي فأورت لي فيها شقائق نيمان

والمعنى القريب "لماء السماء" هو الأمير الغساني عامر بن حارثة الأزدي الذي يلقب بماء السماء لجوده^(٢) أما المعنى البعيد وهو المقصود فهو غزارة دموعه التي تشبه نزول المطر.

وقد وظف عدد من الشعراء الشخصيات التاريخية في تورياتهم مثل شخصيات الملوك والخلفاء والفقهاء والمحدثين ويتجلى ذلك في قول ابن فركون في رثاء الأمير أبي الحسن علي بن يوسف^(٣):

وإن علياً من علمنا كماله فلا تنكروا أنا نهيم تشيعاً

فهو يوظف اسم علي في التورية فالمعنى القريب هو اسم الصحابي الجليل علي بن أبي طالب رضي الله عنه - والمعنى البعيد وهو المقصود هو المرثي الأمير علي بن يوسف.

أما الجناس فكان شعراء هذا العصر مولعين به، وتحدث النقاد عن قيمة الجناس في العمل الفني فبينوا أنه إذا جاء غير متكلف تم به المعنى^(٤) ويذهب السيوطي إلى أن "مناسبة الألفاظ تحدث ميلاً وإصغاء إليها"^(٥).

ويعود جمال الجناس غير المتكلف إذا لم يكن متكلفاً إلى ذلك الجرس الموسيقي الصادر عن تكرار الكلمات المتماثلة تماماً أو ناقصاً، الأمر الذي يزيد من تأثير الكلام على المتلقي فهذا أبو الحسن الوراد يرثي محمد القطان^(٦):

قضى حبه القطان فالحزن فاطن مقبم بأحسناء الضلوع محكم

فهو يجانس جناساً ناقصاً بين القطان وقاطن موظفاً اسم المرثي ليؤكد حزنه الدائم المقيم في قلبه لأستاذه موفراً إيقاعاً موسيقياً نتيجة مجانسة الحروف.

(١) لسان الدين، ديوان لسان الدين ٦٢٢/٢

(٢) الزركلي، الإعراب، ٢٥٠/٣

(٣) ابن فركون، ديوان ابن فركون، ص ٣٥٩

(٤) انظر: الجرجاني، أسرار البلاغة، ص ٨، ابن رشيق، المعنى، ٢٩٧/١

(٥) السيوطي، شرح شعوب الجناس، ص ١٥٣

(٦) لسان الدين، الإحاطة، ٢٤٤/٣

ومن ذلك قول لسان الدين في مملوك مات لخليفته يدعى يزيد^(١):

لم يأت صرف الدهر بدعا محدثاً كم من يزيد قد مضى ويزيد

فهو يجانس بين اسم المملوك المرثى يزيد والفعل المضارع يزيد فكثير من اسمهم يزيد قد ماتوا قبله، وقد أكسب الجناس بيت لسان الدين عمقاً فكرياً وموسيقى جميلة لافته للأسماع. ومن المجانسة في مجال الأعلام أيضاً قول ابن الجياب في رثاء أبي الحسن بن فضيلة^(٢):

حق أن نبكى التقى والفضلاً إذا أصابت أيدي المنية فضلاً

فقد جانس بين الفضل أي الدرجة الرفيعة وبين اسم المرثى ابن فضيلة.

وقد أدى استخدام كثير من شعراء الرثاء للجناس إلى توفير العنصر الموسيقي في مراثيهم وإلى زيادة جمالها وتأثيرها في النفوس وجعل المنثقي مشاركاً في استجلاء المعاني ومحاولة التفريق بينهما خاصة في الجناس التام الذي تشابهت أصوات كلماته واختلفت معانيها والأمثلة على ذلك كثيرة ومن ذلك ما جاء في قول لسان الدين في رثاء عبد العزيز شقيق أبي ثابت عامر الهنتاتي^(٣):

أبا ثابت كن في الشدائد ثابتاً أعيدك أن يلفسي حسودك شامتاً

أما ابن زمرك في رثائه لأبي القاسم الحسني فقد قال^(٤):

من تحسن السبع الطباق علاه عالوا عليه من الثرى بطباق

كما أن تكرار المفردات السابقة وما فيها من حروف مد أتاحت له التعبير عن آهاته وأحزانه وزادت من القيمة الموسيقية في أبياته.

وكذلك الأمر في قول لسان الدين في رثاء نفسه^(٥):

وكنا عظاماً فصرنا عظاماً وكنا نقوت فهنا نحن قوت

(١) لسان الدين، ديوان لسان الدين، ٣١٨/١.

(٢) ابن الجياب، ديوان ابن الجياب، ص ٥١٩.

(٣) المغربي، نفح الطيب، ٤١٤/٦.

(٤) المغربي، نفح الطيب، ١٩٤/٥.

(٥) المغربي، ازهار الرياض، ٢٣١/١.

فقد جانس بين عظام ونقوت وقوت ليضفي غني في المعنى ودفقا موسيقيا حزيناً.

وقول ابن زمرك في رثاء أبي القاسم الحسني^(١):

إن جن ليل جن من فرط الأسى وسوى كلامك ما له من راق
فأبعث خيالك في الكرى يبعث به ميت السرور لتأكل مشقات

فقد جانس بين جن وحن وبين أبعث ويبعث ولا ريب أن ابن زمرك قد أحس في مجانسته هذه بما وفرة الجناس لها من جرس موسيقى مناسب فوصف لمشاعر حزنه على الفقد وصفاً دقيقاً.

وبرز الطباق بصورة جلية في مراثي هذا العصر وبدا في أغلبها غير متكلف أكسب الشعر قيمة جمالية إذ مكن الشعراء من المقارنة بين موقفين متناقضين وصورتين متخالفتين في بيت واحد أو شطر واحد كما أن له فائدة كبيرة في جذب انتباه المتلقين لما ينتج عنه من أخيلة وصور شعرية فالمتلقي لا يلبث أن ينتقل من صورة أو معنى معين إلى صورة ومعنى مضاد له ولهذا كان له علاقة وثيقة ببلاغة الكلام ووظفه الشعراء حين قارنوا بين وجود المرثي وعدم وجوده كما قال ابن الأبار في رثاء صديقه^(٢):

ما العيد بعدك بالأمانى عائد يا غائباً وكأنما هو شاهد

وقول لسان الدين في رثاء والده مستخدماً الطباق للتأكيد على حتمية الموت لجميع البشر على تفاوت أجناسهم وطبقاتهم^(٣):

سيان ذل الفقر أو عزة الغنى ومن أسرع السير الحثيث ومن يبطي

فقط طابق بين (الذل والعزّة/ والفقر والغنى/ الحثيث ويبطي) وهذه الكثرة في استخدام الطباق ألقت بظلالها على المعاني التي عبر عنها الشاعر وأعطت الإيقاع الموسيقي المناسب لها.

ويوظف ابن جزي الطبيعة في الطباق ليبين سنة من سنن الحياة في قوله^(٤):

وكل تلاق فالفراق أمامه وكل طلوع فالغروب ملازمه

(١) المغري، نفع الطيب، ١٩٧/٥

(٢) ابن الأبار، ديوان ابن الأبار، ص ٥٩

(٣) المغري، نفع الطيب، ١٨/٥.

(٤) نفسه، ٤٤٨/٥.

فقد طابق بين تلاق وفراق وطلوع وغروب .

ويكثر الطباق في قول أبي حيان الأندلسي^(١):

وانتسوا كتاب الله سراً وجهرة عليك وادعوا بالأصائل والبكر

وزاد الطباق في مرثي هذا العصر من توقع المتلقي للمعنى حين يسمع اللفظة الأولى يتوقع الكلمة المقابلة لها فكل لفظة من ألفاظ الطباق تستدعي الإتيان باللفظة المضادة لها ويتجلى ذلك في قول لسان الدين^(٢):

كرمت حياً وميتاً واشتهرت علا فأنت سلطان أحياء وأموات

لفظة أحياء تستدعي لفظة اموات .

ومن الفنون البديعية التي برزت في مرثي هذا العصر "حسن التعليل" ويتجلى ذلك في قول لسان الدين في رثاء ثلاثة من أصدقائه تقارب وفياتهم^(٣):

وليس مشيياً ما ترون بمفرقي ولكن خطوب جملة ذات ألوان

فهذا الشيب يعلله بكثرة الخطوب ونوائب الدهر .

وقول يوسف الثالث في رثاء أخيه^(٤):

تنازع فيك الغيث والبحر شيمة وبينكم فرق من الجد واضح
فوجهك طلق والعيوث عوابس وجودك عذب والبحار موالح

واستخدم الشعراء اللف والنشر^(٥) وهو أن يؤتى بلفظ يشتمل على متعدد وهذا هو اللف ثم تذكر أشياء على عدد ذلك كل واحد يرجع إلى واحد من المقدم من غير تعيين وهذا النشر ثقة بأن السامع يرد كل واحد إلى ما يليق به ومن ذلك ما جاء في قول ابن الأبار في رثاء أبي زكريا الحفصي^(٦):

ما للنجوم طوالها ما للجيا ل راسياً؟ ما للسبحار طوامي؟
لم لم تغر لم لم تزل لم لم تغض من شدة الحسرات والآلام؟

(١) أبو حيان، ديوان أبي حيان الأندلسي، ص ١٧٨

(٢) المغربي، نفح الطيب، ٤٩٥/٦

(٣) لسان الدين، ديوان لسان الدين، ٦٢٣/٢

(٤) يوسف الثالث، ديوان ملك غرناطة، ص ١٨٦

(٥) انظر: السيوطي، شرح عقود الجمان، ص ١٣٩، وأحمد الهنسي، جواهر البلاغة، ص ٣٢٣

(٦) ابن زمر، ديوان ابن زمر، ص ٢٦٣

فالشاعر في قوله لم تعز يقصد النجوم، وفي قوله لم تزل يقصد الجبال، وفي قوله لم تغض، يقصد البحار.

ومن الفنون البديعية التي برزت بجلاء في مراثي هذا العصر "الكلام الجامع" وهو: أن يأتي الشاعر ببيت مشتمل على حكمة أو وعظ أو غير ذلك من الحقائق التي تجري مجرى الأمثال^(١).

وقد وجد الشعراء الرثاء ميداناً واسعاً لهذا الفن البديعي وجاء بصورة بارزة حين تحدثوا عن الحياة والموت والدهر والزمان والأمثلة على ذلك كثيرة منها قول الورداد في رثاء القطان^(٢):

هو الموت لا ينفك للخلق طالباً يروح ويغدو كل حين عليهم
وما هو إلا الداء عز دواؤه فليس لشيء في البسيطة يحسم

وقول لسان الدين في رثاء ثلاثة من أصدقائه تقاربت وفياتهم^(٣):

ولا عار في ورد الحمام فإنه سبيل الورد ما بين شيب وشبان

وقوله في رثاء جده أبي الحجاج الملك يوسف الأول^(٤):

ونركن للدنيا اغتراراً بئوها وحسبك من يرجو الوفاء من الغدر
وندفع أحباباً كراماً إلى الردى ونسلو ونلهو بعد ذاك عن الأمر

واستخدم الشعراء فناً بديعياً آخرى كان لها دور في تشكيل الإيقاع الموسيقي ومن تلك الفنون الموازنة ورد العجز إلى الصدر والتقسيم والتعديد ولزوم ما لا يلزم.

أما الموازنة فهي أن يكون صدر البيت الشعري وعجزه متساوي الألفاظ وزناً، ويبين ابن الأثير أن الموازنة تعطي للكلام طلاوة ورونقاً، سببه الاعتدال^(٥).

ومن ذلك قول أبي الحسن الورداد في رثاء القطان^(٦):

(١) النظر: السيوطي، شرح غرر الجمان، ص ١٣٥.

(٢) لسان الدين، الإحاطة ٢/٢٤٤ و ٢٤٣.

(٣) لسان الدين، ديوان لسان الدين، ٦٢٦/٢.

(٤) لسان الدين، الصيبي والنجد، ص ٥٢٨.

(٥) ابن الأثير، مثل السائر ١/٣٧٧.

(٦) لسان الدين، الإحاطة ٣/٢٥٥.

فقيه نزيه زاهد متواضع رؤوف عطوف مشفق مترحم

وقول لسان الدين في رثاء أصدقائه^(١):

ذخيرة أيامي ووسطى فلادتي ونكتة إخلاصي وحكمة ديواني

وقد جمع ابن جزى في رثاء ابن الجياب بين الموازنة والطباق في قوله^(٢):

سخي على العافين سهل قياده أبى على العادين صعب شكائهم

ووازن ابن زمرك في رثائه الملك الغنى بالله بقوله^(٣):

وبدر دباجيها وشمس نهارها وبشر محياها ونور مجالها

واستخدم الشعراء التصدير أو ما يسمى برد العجز للمصدر^(٤).

في مواطن كثيرة من أشعارهم ومن ذلك ما جاء في قول ابن زمرك^(٥):

فلازلت في ظل النعيم مخلداً ونجلك يحيا بالبقاء المخلد

إن تكرار لفظه (مخلد) أضفى قيمة موسيقية على البيت وأكد مكانة المرثي وحسن عاقبته.

ويبرز ذلك في قول ابن زمرك^(٦):

وأوردك الرحمن حوض نبويه وأصدر من خلفت عن خير مورد
وقد كسفت شمس الهداية بعدما أبان سبيل الحق للخلق هاديها
هو الجبل الراسي تصدع بعدما أقرت به شم الجبال رواسيها

وقول أبي بكر بن شيرين في رثاء ذي الوزارتين ابن الحكيم^(٧):

فقدناه في يوم أغر محجل ففي الحشر نلقاه أغر محجلاً

(١) لسان الدين، ديوان لسان الدين، ٦٢٦/٢.

(٢) المغري، فتح الطبيب، ٤٤٩/٥.

(٣) ابن زمرك، ازهار الرياض، ١٤٩/٢.

(٤) انظر السيوطي، شرح عقود الجمان، ص ١٤٨.

(٥) المغري، ازهار الرياض، ١٥٤/٢.

(٦) نفسه، ١٥٤/٢ و ١٥٥.

(٧) لسان الدين، الإحاطة، ٤٧٥/٢.

وظهر هذا الفن البديعي أيضا في قول أبي الحسن الوراد^(١):

سل التائبين العاكفين على الهدى لكم منه أسدى وأهدى إليهم

أما الفن البديعي المسمى بتأكيد المدح بما يشبه الذم فقد استخدمه ابن زمرك في رثاء الملك الغني بالله^(٢):

ولا عيب فيه غير أن سنانته إذا شم ريح النفع في الحرب يرعف

فالشاعر نفى أولا صفة العيب ثم عاد فأثبت له بالاستثناء عيباً هو أن رمحه إذا شم رائحة غبار المعركة يرعف دماً وهذه ليست في الواقع صفة ذم وإنما هي صفة مدح أثبتّها الشاعر لمرثية وأكدها بما يشبه الذم.

وبرز التقسيم بصورة جلية في مرثي هذا العصر، وهو فن يعمل على توفير إيقاعات ناتجة عن الوقفات التي نلاحظها عند قراءة النص وعن استيواء مقادير الجمل المقسمة وانغلاقها أحياناً في الوزن وتكرار قوافيها فضلاً عن اتخاذها شكلاً نحوياً واحداً في بنائها وهذا ما نلمحه في قول أبي الحسن علي القيجاطي في رثاء صديقه^(٣):

فلا مقلّة ترنوا ولا أذن تعي ولا راحة تعطو ولا قدم تعدو

وقول سهل الأزدي في تعزية لبنى أبي الوليد بن رشد في أبيهم^(٤):

ولم أدر من أشقى الثلاثة بعده ألبناؤه أم دهره أم صديقه

وقول ابن الأبار في رثاء صديقه^(٥):

ما أبين الضدين في حالي النّي حالت أسى باقٍ وصبر نافذ

أما التعديد فهو "أن يوقع أسماء مفردة على سياق واحد"^(٦) وفي هذا إبراز للموسيقا الداخلية في مرثي هذا العصر لا سيما أن بعض الكلمات تتفق في وزنها وحرفها الأخير ويتجلى

(١) لسان الدين، الإحاطة، ٢٤٥/٣

(٢) السعري، أزهار الرياض، ١٥١/٢

(٣) لسان الدين، الكتّبة الكسنة، ص ٣٨

(٤) لسان الدين، الإحاطة، ٢٨٢/٤

(٥) ابن الأبار، ديوان ابن الأبار، ص ١٣٨

(٦) السيوطي، شرح عقود الجمان، ص ١٤٩

ذلك في قول ابن زمرك في رثاء أبي القاسم الحسني^(١):

كالزهر في لألائه والبدن في عيائه والزهر في الإبراق
يا وارثا نسب النبوة جامعاً في العلم والأخلاق والإعراق

ومنه قول لسان الدين في رثاء جدة أبي الحجاج الملك يوسف الأول^(٢):

إمام الهدى غيث الندى دافع العدا بعيد المدى في حومة المجد والفخر
ويا ملحد التقوى ويا مدفن الهدى ويا مسقط العلياء ويا مغرب البدن

واستخدم الشعراء لزوم ما لا يلزم في مرثيتهم فساهم هذا الفن في توفير الموسيقى الداخلية فيها ففيه تتساوى الحروف التي قبل روي الأبيات الشعرية^(٣).

ومن ذلك ما جاء قول ابن جزي في رثاء ابن الجياب^(٤):

ألم تر أن المجد أقوت معالمه فأطنا به قد قوضت ودعائمه
هوى من سماء المعلوات هلالها وخانت جواد المكرمات قوائمه

الصورة الشعرية:

الصورة الشعرية هي "تشكيل لغوي يكونها خيال الفنان من معطيات متعددة يقف العالم المحسوس في مقدمتها"^(٥).

وهي بكل أشكالها المجازية وسيلة الفنان لتجسيد إحساسه^(٦) وقد استعان شعراء الرثاء بها في نقل أفكارهم وأحاسيسهم معتمدين على التشخيص والتجسيم والوصف مستخدمين ضروب

(١) السعدي، فتح الطيب، ١٩٦/٥

(٢) لسان الدين، الصيبي والجهاز، ص ٥٣١

(٣) ابن الأثير، المثل السائر، ٣٦٥/١

(٤) السعدي، فتح الطيب، ٤٤٨/٥

(٥) غلى لبط، الصورة الشعرية، ص ٣٠

(٦) فاضلة طحطح، الشعر الاندلسي في عهد المرابطين، ص ١٢٨

علم البيان من تشبيه واستعاره وكناية فالشيء "يعرف بما يحاكيه أو بما يحاكي ما يحاكيه" (١) كما أن "النفس تنشط وتلتذ بالمحاكاة" (٢).

وسمى حازم القرطاجني الصورة تخيلاً وهو "أن تتمثل للسامع من لفظ الشاعر المخيل أو معانيه أو أسلوبه ونظامه وتقوم في خياله صورته أو صور ينفعل لتخيّلها وتصورها" (٣).

وانكأوا على الأساليب التصويرية عند أسلافهم ولجأوا أحياناً إلى التوليد والابتكار أو إلى لباس الصورة لباساً جديداً ضمن الإطار التصويري الموروث واستمدوا صورهم من مظاهر الطبيعة الصامتة والمتحركة وكان عالم الحيوان ميداناً رحباً استقوا منه صورهم الدالة على معانيهم فصوروا المراثي بالأسد شجاعة وبأساً ومن ذلك ما جاء في قول ابن الجياب الذي نقش على شاهد قبر أحد أمراء بني نصر (٤).

ما كان إلا ليث بأس خادراً ألفت له الدنيا يد الإذعان (٥)

وقول لسان الدين في رثاء حاجب بني مرين ابن أبي عمرو (٦):

ألا فأبكي يا غيث المواهب والجدى وليث الشرى نجل السراة الأطايب

وهذا نقش على قبر الملك محمد الأول مؤسس دولة بني الأحمر (٧):

مقامه في كلا يومى ندى ووغى كالغيث في مجد وكالليث في أجم

واستوحى الشعراء صورة الحمائم الباكية على إلفها وذلك حين قرنوا حزنهم وشجوههم

بحزنها وشجونها ومن ذلك قول لسان الدين في رثاء حاجب بني مرين ابن أبي عمرو (٨):

عليك سلام الله ما لاح بارق وما سجعت ورق الحمام النوادب

وقول ابن زمرك في رثاء الملك الغني بالله (٩):

سأبكيه ما دام الحمام مطوقاً وما سجعت تبكي الهديل قماريها

(١) حازم القرطاجني، منهاج البلاغة، ص ٩٤

(٢) نفسه، ص ١١٧

(٣) نفسه، ص ٨٩

(٤) ابن الجياب، ديوان ابن الجياب، ص ٤٦٤

(٥) أسد حائر: مقيم في عريضة، ألفظ: ابن منظور، لسان العرب، مادة خدر

(٦) لسان الدين، ديوان لسان الدين، ١٢٥/١

(٧) لسان الدين، الإحاطة، ص ١٠١/٢

(٨) لسان الدين، ديوان لسان الدين، ١٢٧/١

(٩) ابن زمرك، ديوان ابن زمرك، ص ٥١٢

وقول لسان الدين في رثاء الملك أبي الحجاج يوسف الأول^(١):

تبكي عليك مصانع شيدتها بيض كما تبكي الهديل حمام

واعتمد الشعراء بصورة جلية على مظاهر الطبيعة الصامتة في تشكل صورهم فقد صوروا المرثي بحرا في جوده وعلمه وفضله ويتجلى ذلك في قول ابن زمرك في رثاء أبي القاسم الحسني^(٢):

ومن العجائب أن يرى بحر الندي طود الهدي يسري على الأعناق

وقول ابن الجياب في رثاء أبي بكر الساحلي^(٣):

أحقاً فقدنا بحر علم وحكمه بفيض علينا علمه لؤلؤاً رطباً

وقوله في رثاء الملك محمد بن محمد بن يوسف^(٤):

فمذ غاض بحر الندي لم تزل حار الدموع عليه تسيل

وقول أبي بكر بن شيرين في رثاء محمد السبتي^(٥):

بحر العنوم وصدرها وعميدها إذ لا عميد

وصور الشعراء دموعهم الغزيرة بالنيل والغمام ويتضح ذلك في قول أبي عبد الله محمد اللوشي اليحصبي في رثاء الملك إسماعيل بن فرج^(٦):

أسكنتنا يا خطب مصر مصاننا واسلت فيه من المدامع نيلا

وقول لسان الدين في رثاء حاجب بن مزين ابن أبي عمرو^(٧):

وأنهلني ورد الدموع وعلني وما أنا عن حزني عليك بمثني

(١) المقرئ، نفح الطيب، ٨٢/٥.

(٢) نفسه، ١٩٧/٥.

(٣) ابن الجياب، ديوان ابن الجياب، ص ١٥٣.

(٤) نفسه، ص ٥٨٣.

(٥) لسان الدين، الإحاطة، ١٥٣/٣.

(٦) لسان الدين، الكتيبة الكامنة، ص ١٧٦.

(٧) لسان الدين، ديوان لسان الدين، ١٢٧/١.

فبأنه ما دمعى براق وإننى اكفكف منه كالعهاد السواكب

وصور الشعراء من يرثونهم بالغيث في الجود والطود في الحلم والنسيم في الرقة ومن
ذلك قول ابن زمرك في رثاء الملك الغني بالله:
هو الجبل الراسى تصدع بعدما أقرت به شم الجبال رواسيها

وما نقش على شاهد قبر الرئيس أبي سعيد من قول ابن الجباب^(١):
فيا عجباً طود الجلالة والنهى يساق إلى قبر ويدرج في لحد

وقول ابن زمرك في رثاء أبي القاسم الحسيني^(٢):
ومن العجائب أن يرى بحر الندى طود الهدى يسري على الأعناق

وقول لسان الدين في الحاجب المريني ابن أبي عمرو^(٣):
وما كنت إلا البحر والطود والسنا تضىء ضياء الزاهرات الثواقب

واستعار الشعراء صورة الشمس والقمر حين صوروا المرثى وجماله والأمثلة على ذلك
كثيرة منها ما جاء في قول ابن زمرك في رثاء الملك الغني بالله^(٤):
وبدر دياجيتها وشمس نهارها ويشر محياها ونور مجاليها
خبا الكوكب الوقاد قد كان نوره يجلي من الدهم الخطوب دياجيتها
هوى القمر الوضاح من أفق العلى فأظلم جو النسيرات لساريتها

وقول لسان الدين في رثاء جدة الملك يوسف الأول^(٥):
وما كنت إلا الشمس يحيا بك الورى على بعد العياء أو رفعة القسدر

ومنه ما سجل على شاهد قبر أبي الجيوش نصر بن محمد^(٦):

(١) ابن الجباب، ديوان ابن الجباب، ص ٢٣٠.

(٢) المغري، أزهار الرياض، ١٦٣/٢.

(٣) لسان الدين، ديوان لسان الدين، ١٢٦/١.

(٤) ابن زمرك، ديوان ابن زمرك، ص ٥١٠.

(٥) لسان الدين، ديوان لسان الدين، ٣٩٧/١.

(٦) لسان الدين، الإحاطة، ٣٤٢/٣.

ما كنت إلا بدر تم باهراً أخنى الخسوف عليك عند تمام

وقول لسان الدين في رثاء الملك يوسف الأول^(١):

وكسفت يا شمس المحاسن ضحوة فالأيوم ليل والضياء ظلام

وشخص الشعراء مظاهر الطبيعة فصورها حزينه على مرثيهم تذرف الدموع الغزيرة
وتشق جيوبها، وترتدي ملابس الحداد فبعثوا فيها الحياة ونقلوها من السكون إلى الحركة ويتجلى
ذلك في قول ابن زمرك في رثاء الملك الغني بالله^(٢):

وشقت جيوب الزهر فيك كمائم وتبكىك أرض كنت غيث بلادها
وتبكى عليك السحب ملء جفونها وتلبس فيك النيرات ظلامها
وما هي إلا أعين قد شهدت فكلها نجم الظلام بائس

وقول لسان الدين في رثاء الملك يوسف الأول^(٣):

فجعت به الدنيا وكدر شربها وشكا العراق مصابه والشام

وقول ابن زمرك في رثاء الملك الغني بالله^(٤):

وتبكىه سحب أخلجتها بنانه وتربس دمع الغيث حزناً مأقياها
وتبكىه حتى الشهب في أفق العلى وتلبس جلابب الظلام جوارياها

وكان للواقع الحربي الذي عاشه المسلمون في ذلك العصر أثر كبير في الصورة
الشعرية فقد صور الشعراء مثلاً الخيول لا تشرب ماء بل من قليب دماء وأن الأسى له جيوش
يردها الصبر مهزومه ومن ذلك قول ابن الجنياب في رثاء الملك محمد بن محمد بن يوسف^(٥):

وقابل جميع جيوش الأسى بصبر يرد شباها فليل

(١) المقرئ، نفع الضيب، ٨٢/٥.

(٢) المقرئ، نفع الضيب، ٢٣٥/٧ و ٢٣٦.

(٣) نفسه، ٨٢/٥.

(٤) ابن زمرك، ديوان ابن زمرك، ص ٥٢٠.

(٥) ابن الجنياب، ديوان ابن الجنياب، ص ٥٨٤.

وما كتب على شاهد قبر الملك المؤسس محمد الأول^(١):

ولم يجهز لهم خيلاً مضمرة لا تشرب الماء إلا من قليب دم

ومن اللافت للنظر أن الشعراء حرصوا على تصوير دموعهم الغزيرة المتتابعة على المرثي بالخيل السابقة في الميدان ويتجلى ذلك في قول لسان الدين في رثاء أبي عنان المريني^(٢):

أقيما بحق ماتم البأس والندى ولا تقفيا خيل الدموع إلى مدى

وقول الملك يوسف الثالث في رثاء زوجه^(٣):

لا تحسبوا دمع المشوق عليكم إلا جواداً سابقاً بمجاله

وقوله أيضاً^(٤):

وجفني كأن الخدم ميدانه وقد أجال الجياد الحمر من عبراته

وكما يقولون "إن قيمة الصورة الشعرية تكمن في نوع الصلة بين المحسوس والمعنوي وفي مفاجأة التناسق بينهما"^(٥).

أما ما نلمسه في صور الشعراء لأدوات الحرب والقتال فهي كونها باكية حزينة وبرز ذلك في مراثي الملوك والأفراد فالشاعر ابن الجياب يصور الخيل والرماح والسيوف باكية عقب وفاة الرئيس أبي سعيد فيقول^(٦):

وليــــبكه الوفــــد يــــرجونه ولتــــبكه البــــيض وسمــــر العوالــــي

أما العلماء فقد بكت عليهم الأقلام والأوراق ومن ذلك قول عبد الكريم القيسي في رثاء أبي عبد الله الأزرق^(٧):

قلم البلاغة بعد موت الأزرق في ماتم من حزنه كالمهرق

(١) لسان الدين، الإحاطة، ١٠١/٢.

(٢) لسان الدين، ديوان لسان الدين، ١٢٥/١.

(٣) يوسف الثالث، ديوان ملك غرناطة، ص ٩٤.

(٤) نفسه، ص ١٦.

(٥) حمدان حجاجي، حياة وشراب زرك، ص ٢٥٨.

(٦) ابن الجياب، ديوان ابن الجياب، ص ٤١٥.

(٧) عبد الكريم القيسي، ديوان عبد الكريم القيسي، ص ٢٠٢.

هذا لما يلقى عبوس واجم حزناً وهذا كالكتيب المطرق

وقول ابن زمرك في رثاء القاضي أبي القاسم الحسيني^(١):

وذر اليراع تشي بدمع مداهما وشي القريض يروق في الأوراق

وقول لسان الدين في رثاء الوزير ابن الجياب^(٢):

ما لليراع خواضع الأعناق طروق النعي فهن في إطراق
وكانما صبغ الشحوب وجوهها والسقم من جزع ومن إشفاق

وصور الشعراء المساجد باكية تملؤها وحشة وكآبة وبرز ذلك في مراثي البلاد يمدنها
وحصونها ومنه قول أبي البقاء الرندي^(٣):

حتى المحاريب تبكي وهي جامدة حتى المنابر ترثي وهي عيدان

وقول الشاعر المجنول في رثاء رنده وغيرها من مدن مملكة غرناطة^(٤):

فمحرابها يشكو لمنبرها الجوى وآياتها تشكو الفراق وسورها

وقول لسان الدين في رثاء الملك يوسف الأول^(٥):

تبكي عليك مساجد عسرتها فالناس فيها سجد وقيام

وصور الشعراء العلوم وقد أقفل بابها، وأمست العلوم باكية حزينة تذرف الدموع على
من مات من العلماء ومن ذلك قول محمد اللوشي في رثاء ابن الفخار^(٦):

وكيف وباب العلم بعدك مغلق ومورده المتروك بين الموارد
لتبكي العلوم بعدك شجوها ويقفر لها ربع العلا والمعاهد

(١) المقرئ، أزهار الرياض، ٢/٣٦١.

(٢) ابن الجياب، ديوان ابن الجب، ٢/٧٠٨.

(٣) المقرئ، نفح الطيب، ٥/١٧٧.

(٤) خفاجي، قصة الأدب في الأندلس، ٢/٥٠٠.

(٥) لسان الدين، ديوان لسان الدين، ٢/٥٥٧.

(٦) لسان الدين الإحاطة، ٣/٣٧٣.

وركز الشعراء في مراثيهم على تصوير الموت فصوره منهلاً يرده الناس كلهم وكأساً دائراً عليهم وسهماً مسدداً إليهم له إيدٌ وعيونٌ تتربص بهم ويتجلى ذلك في قول عبد الكريم القيسي في رثاء ابني صديقه^(١):

وكيف مد الردى بالموت منه يداً نقبض روحهما لم يخش من شلل
سقوا بكأس الردى من عند آخرهم حتى رووا منه بين العل والنهل

وقول لسان الدين في رثاء أبيه وأخيه^(٢):

والملقى كتب وفي ورد الردى نهل الورى من شاء ذلك أو أبى

وقوله في رثاء أبيه^(٣):

سهم المنايا لا تطيش ولا تخطى وللهر كف يسترد الذي يعطي

وقول ابن فركون في رثاء الأمير علي بن يوسف^(٤):

لقد نهبتك يد الموت من حمى من تهاب العدى نهبه

وصور الشعراء الدهر ذا نابٍ وأيدٍ تهدم ما بنى الخلق في دنياهم ومن ذلك ما جاء في قول أبي البقاء في نونيته^(٥):

يمزق الدهر حتماً كل سابعة إذا نبت مشرفيات وخرصان

وقول لسان الدين في رثاء ثلاثة من أصدقائه تقاربت وفياتهم^(٦):

يدس لي الدهر المكيدة في المنى فإن قلت قضاني الحقوق تقاضاني

واعتمد الشعراء على الصور الشعرية المرتبطة بالقيم الدينية وربطوا بين القيم الحسية والمعنوية، ويتجلى ذلك في قول لسان الدين في رثاء يوسف الأول^(٧) :

(١) القيسي، ديوان عبد الكريم القيسي، ص ٤٢٢

(٢) السعري، نفح الطيب، ١٤/٥

(٣) لسان الدين، ديوان لسان الدين، ٤٦٣/٢

(٤) ابن فركون، ديوان ابن فركون، ص ٣٦٢

(٥) السعري، نفح الطيب، ٤٨٧/٥

(٦) لسان الدين، ديوان لسان الدين، ٦٢٤/٢

(٧) نفسه، ٥٥٦/٢

أسفا على الخلق الجميل كأنما بدر الدجينة قد جلاه تمام
أسفا على العمر الجديد كأنه زهو الحديقة زهرة بسام

فقط ربط لسان الذين بين الخلق الجميل كقيمة معنوية وبين البدر وهو شيء محسوس
وكذلك العمر ربطه بزهو الحديقة بأزهارها.

وقول أبي بكر بن شيرين في رثاء ذي الوزارتين ابن الحكيم^(١):
يسوء المصلى أن هلك ولم تقم عليك صلاة فيه يشهدا الملا

وما نقش على شاهد قبر الملك المؤسس محمد الأول^(٢):
ولم يباد العدا منه ببادرة يفتر منها الهدى عن ثغر مبتسم

وقول ابن الأبار في سنيته^(٣):
مدائن حلها الإشرارك مبشما جذلان وارتحل الإيمان مبتئا

وبرزت الكناية بصورة جلية في مراثي هذا العصر واكتسبت أشعارهم قيمة إيحائية
جميلة فتحت آفاقاً في النص الشعري زادت غنى^(٤) ومن ذلك قول يوسف الثالث في رثاء
ولده^(٥):

مضى طاهر الأثواب والنفس لم تش محاسنه الزهر الخلال مقابح

ومن الكتابة قول لسان الدين في رثاء أصدقائه^(٦):
لئن بايت تلك المحاسن في الثرى فحزني جديد ما استمر الجديدان

(١) لسان الدين، الإحاطة، ٥١٥/٢.

(٢) نفسه، ١٠١/٢.

(٣) المعري، نفع الطيب، ٥١/٥.

(٤) انظر: فهد عكام، الشعر العربي منذ وثأويته، ص ٢٠٥.

(٥) يوسف الثالث، ديوان ملك حرانية، ص ١٨٦.

(٦) لسان الدين، ديوان لسان الدين، ٦٢٥/٢.

فيهو يكنى عن الليل والنهار بلفظ (الجديدان).

وكنى ابن جزى عن سهرابن الجياب بمزاحمه نجم الأفق له^(١):

ودوخ أعناق الليالي بهممة يبيت ونجم الأفق فيها يزاحمه

وكنى ابن جزى عن القلم فى رثاء الوزير ابن الجياب^(٢):

وشخص ضئيل الجسم يرهب نفثه ليوث الشرى فى خبيثها وضراغمه

وكنى لسان الدين برب السيف على الفارس وبربه القرط على المرأة فى رثائه لأبيه^(٣):

تساوى على ورد الردى كل وارد فلم يغن رب السيف عن ربة القرط

وكنى ابن زمرك فى كلمة موحد عن كل مسلم فى رثائه للملك الغنى بالله^(٤):

ولو وحد الناس الغداء مسوغاً فذاك يبذل النفس كل موحد

ومن الكناية قول لسان الدين عند قبر السلطان أبي الحسن المريني^(٥):

قد كان يأمل أن يكافى بعض ما أولوه لولا قاطع الأعمار

فقاطع الأعمار كناية للموت.

وتميزت صور الشعراء بشكل عام بعدد من المميزات ومنها غزارة الصورة الشعرية

مما يدل على عنايتهم بها واعتمادهم عليها فى نقل أفكارهم وأحاسيسهم، وحرص الشعراء على

استخدام عنصر اللون فى تشكيل صورهم الشعرية فقد اختاروا اللون الأحمر حيث صوروا

الدموع الممتزجة بالدماء ويتجلى ذلك فى قول ابن الجياب فى رثاء ذي الوزارتين ابن الحكيم^(٦):

فإن سفحت دماً دمع العيون لها فالآن جدد سروراً ضعف ما سفحا

(١) المفري، فتح الطيب، ٤٤٩/٥

(٢) نفسه، ٤٤٨/٥

(٣) لسان الدين، ديوان لسان الدين، ٤٦٣/٢

(٤) ابن زمرك، ديوان ابن زمرك، ص ٣٦٠

(٥) المفري، أزهار الرياض، ٢٩٦/١

(٦) ابن الجياب، ديوان ابن الجياب، ص ١٩٢

وقول ابن الأثير في رثاء أبي زكريا الحفصي^(١):

وتفاضت الأجفان حمر دموعها فمن القلوب على الخدود دوام

وقول يوسف الثالث في رثاء أبيه^(٢):

لقابلي أولي أن يندوب تقطرا وعيني بقاني الدمع تهمي وتذرف

وقول عبد الكريم القيسي في رثاء صديقة محمد اللحياني^(٣):

حتى نعي الناعي بصحة موته فجرى بصفح الخد كالعقيان

وقول الشاعر المجهول صاحب مرثية رندة^(٤):

شأبيب دمع بالدماء مشوبة يساجل قطر الغاديات درورها

واستخدموا اللون الأحمر للدلالة على شدة القتل الذي نزل بأعداء المسلمين على أيدي المرثيين من الملوك ومن ذلك ما جاء على نقش قبر الملك المؤسس محمد الأول^(٥):

ولم يجهز لهـ خيلا مضمرة لا تشرب الماء إلا من قليب دم

وقول لسان الدين في رثاء ابن الجياب^(٦):

تغـتال أحشاء العدو كأنها صفحات دامية الغرار رقاق

وبرز عنصر اللون في قول أبي بكر بن شبرين في رثاء ذي الوزارتين ابن الحكيم^(٧):

فقدناه في يوم أغر محجل ففي الحشر نلقاه أغر محجلا

(١) ابن الأثير، ديوان ابن الأثير، ص ٢٦٢

(٢) يوسف الثالث، ديوان ملك غزنوية، ص ١٤٥

(٣) القيسي، ديوان عبد الكريم القيسي، ص ٤٦٤

(٤) خفاجي، قصة الأدب في الإسلام، ٤٩/٢

(٥) لسان الدين، الإحاطة، ١٠١/٢

(٦) المفري، فتح الطيب، ٤٤٦/٥

(٧) لسان الدين، الإحاطة، ٤١٥/٢

وقول لسان الدين في رثاء أبي الحسن المريني^(١):

خضر الجذاب سقى معاهدة الحيا وعلا على كنز الجلال جداره

وبرز اللون الأسود وما دل عليه من اللفظ في مراثي هذا العصر وهو لون استخدمه العرب للدلالة على الحزن والظلام واليأس^(٢) واستخدمه الشعراء الغرناطيون في أشعارهم ولبسوا البياض في حدادهم على موتاهم، وعبروا عن أيامهم ولياليهم المليئة بالحزن والسواد بعد المرثي، كما عبروا عن حزن مظاهر الطبيعة والكون لذا رددوا ألفاظاً مثل "دوامس، الظلام، حداد، وحشة الليل" ويتجلى ذلك في قول ابن زمرك في رثاء الملك الغني بالله^(٣):

لاندلس تكمل عليه مررد له لبست سود المسوح نواحيها
وتبكيه حتى الشهب في أفق العلى وتلبس جلابب الظلام جواربها
هوى القمر التوضيح من أفق العلى فأظلم جو النيرات لساريها

وقول عبد الكريم القيسي في رثاء ابني صديقه^(٤):

وروضها ذابل من بعد نضرته ونورها ظلمة سوداء في المقل

وقول ابن زمرك في رثاء الملك الغني بالله^(٥):

وتلبس فيك النيرات ظلامها حداداً ويذكرني النجم جفن مسهد

ومن الصور التي تجلي فيها اللون الأسود ما جاء في قول ابن الأبار في رثاء أبي زكرياء الحفصي^(٦):

يسود مبيض الصفاح الناصع ويضيق منفسح البراح الواسع

واستعان الشعراء بالألفاظ الدالة على الحركة والصوت في تشكيل صورهم وبرز ذلك في مراثي الملوك حين وصفوا المشاهد الحزبية وكذلك حين صوروا الأرض وميدها

(١) لسان الدين، ديوان لسان الدين، ٤٤٢، ١.

(٢) يوسف نوفل، الصورة الشعرية والسياسة الأتوان، ص ٢٨.

(٣) ابن زمرك، ديوان ابن زمرك، ص ٥١٠ و ٥١١.

(٤) القيسي، ديوان عبد الكريم القيسي، ص ٤٢١.

(٥) المغربي، أزهار الرياض، ١: ٣.

(٦) ابن الأبار، ديوان ابن الأبار، ص ٣٥٦.

ومظاهر الطبيعة والكون وهي تتوح وتبكي ويتجلى ذلك في قول ابن جزي في رثاء ابن الجياب^(١):

هو من سماء السعوات هلالها وخانت جواد المكرمات قوائمه

وقول ابن الجياب في رثاء الملك محمد بن محمد بن يوسف^(٢):

وطورا يجهز جيشا لهم ففي كل حزن وسهل رعيلا

وقول ابن زمرك في رثاء الملك الغني بالله^(٣):

وقد كادت الدنيا تميد بأهلها وقد كادت الشم الشوامخ ترجف

وقد كادت الأفلاك ترفض حسرة وكادت بها الأنوار تخبو وتكسف

وتبرز الألفاظ ندالة على الحركة والصوت في قول لسان الدين^(٤):

ونوحا فإن المجد أقوت ربوعه وزلزل منه مشمخر الأهاضب

وقوله في رثاء شقيق عامر بن محمد بن علي الهنتاتي^(٥):

لقد هدد أركان الوجود مصابه وانطلق منه الشجو من كان صامتا

وقول ابن زمرك في رثاء أبي القاسم الحسني^(٦):

رفعوا سريرك خافضين رؤوسهم ما منهم إلا حليف سيق

والواقعية من مميزات صورهم لاسيما في رثاء المدن ويتجلى ذلك في قول أبي موسى

هارون بن هارون في رثاء اشبيلية^(٧):

لما تفرقت الأهواء واضطربت نار البغاة فقامت للردى علما

وانشروا ميت الأحقاد بينهم ولو أطاقوا العمري انشروا الرما

(١) المغربي، نفح الطيب، ٥٥٠/٥.

(٢) ابن الجياب، ديوان ابن الجياب، ص ٥٨٤.

(٣) ابن زمرك، ديوان ابن زمرك، ص ٤٤٠.

(٤) لسان الدين، ديوان لسان الدين، ١٢٦/١.

(٥) نفسه، ٣٣٢/١.

(٦) المغربي، نفح الطيب، ٤٦/٥.

(٧) ابن عذاري، البيان المغربي، ٣٨٢/٣.

وقول عبد الكريم القيسي في رثاء مدن أندلسية^(١):

أوارى أوار القلب مع شدة اللفح فتبديه عين دمعها دائم السفح

وقد تشابهت الصور المعبرة عن حزنهم ودموعهم، وحين شخصوا مظاهر الطبيعة والكون وصوروا حزنهم، كما تشابهت الصور التي أشادوا فيها بالمرثي ووصفوا جوده وحلمه وشجاعته وغير ذلك وتشابهت أيضا حين تحدثوا عن الموت وقوته وحثمته وحين هاجموا الدهر والدنيا والنبالي ووصفوها بالغدر، واعتمد بعض شعراء هذا العصر على القوالب الجاهزة^(٢) من صور الرثاء العربية التقليدية وبعضهم حاول الابتكار والتجديد لكنهم لم يستطيعوا مغايرة المألوف.

(١) القيسي، ديوان عبد الكريم القيسي، ص ٣٥٨.

(٢) انظر، ريجين بلاشير، بن زمر، وآثره، ص ١٥٢ وانظر: حسن عبد المعطي، شعر لجهاد في الأندلس في ظل بني الأحمر،

الخاتمة:

حاول هذا البحث إعطاء صورة عن شعر الرثاء في الشعر العربي في عصر بني الأحمر وتبين منه:

أولاً: إن الشعراء قد نظموا في ألوان الرثاء المختلفة فقد قالوا في رثاء الأقباط والأباعد ورثاء النفس والمدن والبلاد والحيوان والجواري والعلماء وكتبوا الرثاء على شواهد القبور. ثانياً: إن الشعراء في عصر بني الأحمر قد توسعوا في رثاء الملوك والأمراء والعلماء والأبناء والبلاد والمدن. وكثرت الأشعار المنقوشة على شواهد قبور الملوك والأمراء، وقلت أشعارهم التي نظمت في ألوان أخرى مثل رثاء الأخوال والأمهات والبنات والأعمام والشهداء.

ثالثاً: تبين من مرآتي هذا العصر أن أغلب المعاني والأساليب التي جاء بها الشعراء تقليدية لا جديد فيها إلا ما برز في رثاء البلاد ومدنها وقلاعها فقد صوروا الأحداث ببراعة وصدق ومرارة وحسرة. وحاول بعضهم بيان أسباب سقوط البلاد والمدن واقترح حلولاً لاستعادة ما فقدوا من المدن كتولي الأمر من هم أهل له ووحد الصف والجهاد.

رابعاً: إن شعر هذه الحقبة مع تميزه بأندلسية إلا أن مشاربه المشرقية ما فتأت تظهر في أبياته لاسيما والإسلام والعروبة والارتحال للمشرق روافد تغذى منها شعراء تلك الحقبة، لذا احسب أن شعر رثائهم يعتبر امتداداً للأدب العربي وحلقة متينة من حلقاته.

خامساً: إن تمثل شعراء هذه الفترة لقيم الإسلام ومعانيه كان واضحاً وعميقاً، كما أنهم مالوا إلى الألفاظ السهلة الرقيقة القريبة من طباعهم كأندلسيين، عدا عن ميلهم عند التشبيه للطبيعة ما أمكنهم إلى تلك سبيلاً.

قائمة المصادر والمراجع

المصادر المطبوعة:

- القرآن الكريم
- ابن الأبار، أبو عبد الله القضاعي البلنسي، ت ٦٥٨هـ - تحفة القادم، ط ١، تحقيق د. إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٦م.
- نفسه، ديوان ابن الأبار، قراءة وتعليق د. عبد السلام الهراس، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٥م.
- ابن الأثير، ضياء الدين بن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ط ١، قدم له وحققه: أحمد الحوفي وبدوي طبانة، مكتبة نهضة مصر ومطبعتها، مصر، ١٩٥٩م.
- ابن الأحمر، الأمير أبو الوليد إسماعيل بن يوسف بن محمد، ت ٨٠٧هـ - نشر فرائد الجمان في نظم فحول الزمان، تحقيق: د. محمد رضوان الداية، دار الثقافة للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ١٩٦٧م.
- نفسه، مستودع العلامة ومستبدع العلامة، ط ١، تحقيق: محمد التركي التونسي، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي، المطبعة المهدية، تطوان، ١٩٦٥م.
- نفسه، نشر الجمان في شعر من نظمنا وإياه الزمان، ط ٢، حققه: د. محمد رضوان الداية، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٧م.
- الأزهري، أبو منصور محمد بن أحمد، ت ٣٧٠هـ - تهذيب اللغة، تحقيق: إبراهيم الأبياري، دار الكتب العربي، القاهرة، ١٩٦٧م.
- امرؤ القيس، خنجر بن حجر بن الحارث، ت ٨٠ ق. هـ - ديوان امرؤ القيس تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر، د.ت.
- ابن بطوطة، أبو عبد الله محمد بن عبد الله اللواتي، رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظائر في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، ط ٤، حققه: د. علي المنتصر الكتاني، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٥م.
- الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة، ت ٢٩٧هـ - الجامع الصحيح سنن الترمذي، ط ١، تحقيق: كمال يوسف الحوت ومحمد فؤاد عبد الباقي، دار الحديث، القاهرة، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٥٨م.
- الجرجاني، عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد، ت ٤٧١هـ - أسرار البلاغة، ط ٢، تحقيق: هـ ريتز، دار المسيرة، بيروت، ١٩٧٩م.
- دلائل الإعجاز، علق حواشيه، السيد محمد رشيد رضا، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨١م.

- الجوهري، إسماعيل بن حماد، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، ط٣، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٤م.
- ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد الأندلسي، ت ٤٥٦هـ - جمهرة أنساب العرب، ط١، مراجعه وضبط مجموعة من العلماء، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٣م.
- الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت الحموي الرومي، ت ٦٢٦هـ - معجم البلدان، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٧٩م.
- الحميري، محمد بن عبد الله بن عبد المنعم، صفة جزيرة الأندلس منتخبة من كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار، ط٢، عني بنشرها وتصحيحها: إ. لافي بروفنسال، دار الجيل، بيروت، ١٩٨٨م.
- أبو حيان، محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان الغرناطي، ت ٧٤٥هـ - ديوان أبي حيان الأندلسي، ط١، تحقيق: د. أحمد مطلوب ود. خديجة الحديثي، مطبعة العاني، بغداد، ١٩٦٠م.
- ابن الخطيب، لسان الدين السلماني، ت ٧٧٦هـ - الإحاطة في أخبار غرناطة، ط١، تحقيق: محمد عبد الله عنان، الشركة المصرية للطباعة والنشر ومكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٧٤م، م٣، ط٣، دار ١٩٧٥م.
- نفسه، الإحاطة في أخبار غرناطة نصوص جديدة لم تنشر، عبد السلام شقور، مؤسسة التغليف والطباعة والنشر والتوزيع، تطوان، ١٩٨٨م.
- نفسه، أوصاف الناس في التواريخ والصلوات، تحقيق: محمد كمال شبانة، ١٩٧٧م.
- نفسه، تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط - القسم الثالث من كتاب أعمال الإعلام، تحقيق: أحمد مختار العبادي ومحمد الكتاني، دار الكتاب، الدار البيضاء، ١٩٦٤.
- نفسه، تاريخ الإسلام الإسلامية أو كتاب أعمال الأعلام في من بويع قبل الإحتلام من ملوك الإسلام، تحقيق وتعليق: إ. ليفي بروفنسال، دار المشكوف، بيروت، ١٩٥٦م.
- ديوان لسان الدين بن الخطيب، ط١، تحقيق: د. محمد مفتاح، دار الثقافة للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، ١٩٨٩م.
- نفسه، ديوان الخطيب والجهام والماضي والكهف، ط١، تحقيق: محمد الشريف قاهر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٩٧٣.
- نفسه، ريحانة الكتاب ونجعة المناب، ط١، حققه: محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٨٠م.
- نفسه، اللهجة النصرية في الدولة النصرية، ط٣، دار الأفاق الجديدة، بيروت، ١٩٨٠.

- نفسه، معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار، تحقيق: محمد كمال شبانة، نشر المعهد الجامعي للبحث العلمي، المغرب، ١٩٧٧م.
- نفسه، الكتيبة الكامنة في من لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة، تحقيق: د. إحسان عباس، دار الثقافة للنشر والتوزيع، بيروت، د.ت.
- نفسه، كناسة الدكان بعد انتقال السكان، تحقيق: د. محمد كمال شبانه، مراجعه د. حسن محمود، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر، دار الكاتب العربي، مصر، د.ت.
- ابن خلدون، عبد الرحمن بن خلدون المغربي، العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، دار الكتاب المصري، القاهرة، ودار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٩٨م.
- نفسه، العبر، منشورات دار الكتاب اللبناني، ١٩٦٨م.
- ابن رشيقي، الحسن بن رشيقي القيرواني، ت ٤٦٣هـ — العمدة في محاسن الشعر وآدابه، ط ١، حققه وعلق حواشيه: محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة حجازي، القاهرة، ١٩٣٤م.
- الزبيدي، السيد محمد مرتضى الحسيني، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: عبد العليم الطحاوي، مطبعة الكويت، ١٩٦٨م، دار صادر، بيروت، ١٩٦٦م.
- ابن زرقاله، أحمد بن زرقاله، رائق التحلية في فائق التورية، تحقيق: د. محمد رضوان الداية، منشورات دار الحكمة، دمشق، د.ت.
- الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر، ت ٥٣٨هـ — أساس البلاغة، دار صادر، بيروت، ١٩٧٩م.
- ابن زمرك، محمد بن يوسف الصريحي، ت ٧٩٧هـ — ديوان ابن زمرك الأندلسي، ط ١، تحقيق: د. محمد توفيق النيفر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٧م.
- الزوزني، الحسين بن أحمد، شرح المعلقات السبع، دار القلم، بيروت، د.ت.
- السخاوي، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، مكتبة القدسي، القاهرة، ١٣٥٤هـ.
- ابن سعيد، علي بن سعيد بن محمد بن عبد الملك، المغرب في حلى المغرب، ط ٣، تحقيق: د. شوقي ضراب، دار المعارف، مصر، ١٩٦٤م.
- ابن سيده، أبو الحسن علي بن إسماعيل النحوي، ت ٤٥٨هـ — المحكم والمحيط الأعظم، ط ١، تحقيق: عبد الحميد هندواوي، منشورات دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٠م.
- نفسه، المخصص منشورات المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر، بيروت، د.ت.

- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن، ت ٩١١هـ - بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت.
- نفسه، - شرح عقود الجمان في علم المعاني والبيان، دار إحياء الكتب العربي، مصر، د.ت.
- الشوكاني، محمد بن علي، ت ١٢٥٠هـ - البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، ط ١، مطبعة السعادة، القاهرة، ١٣٤٨هـ.
- الصفدي، صلاح الدين خليل بن إيبك، الوافي بالوفيات، ط ٢، تحقيق: س. ديدرينغ، دار النشر فرانز شتايز، بيساندن، ١٩٧٤م.
- ابن عاصم، أبو يحيى محمد بن عاصم الغرناطي، ت ٨٥٧هـ - جنة الرضا في التسليم لما قدر الله وقضى، ط ١، تحقيق د. صلاح جرار، دار البشير للنشر والتوزيع، عمان، ١٩٨٩م.
- أبو العتاهية، اسماعيل بن القاسم بن سويد، ت ٢١٠، دار صادر، بيروت، ١٩٨٠م.
- العسقلاني، شهاب الدين أحمد بن حجر العسقلاني، ت ٨٥٢هـ - الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، حققه: محمد سيد جاد الحق، دار الكتب الحديثة، مصر، ١٩٦٦م.
- نفسه، فتح الباري شرح صحيح البخاري، المكتبة العصرية، بيروت، ٢٠٠١م.
- العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل، ت ٣٩٥هـ - كتاب الصناعتين، ط ١، حققه: د. مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨١م.
- ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، ت ٣٩٥هـ - مجمل اللغة، ط ١، تحقيق: زهير عبد المحسن سلطان، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٤م.
- نفسه، - معجم ما تيسر اللغة، تحقيق: عبد السلام هارون، الدار الإسلامية للطباعة والنشر، ١٩٩٠م.
- الفاسي، علي ابن أبي زرع، الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، ١٩٧٢م.
- الفراهيدي، أبو عبد الرحمن الخليل من أحمد، ت ١٧٥هـ، كتاب العين، تحقيق د. مهدي المخزومي و د. إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال، د.ت.
- الفريرزدق، همام بن صمصمة، ديوان الفرزدق، ضبطه وشرحه، د. عمر فاروق الطباع، دار الإقلم بن أبي الأرقم، بيروت، ١٩٩٧م.
- ابن فركون، أبو الحسن بن أحمد بن سليمان بن أحمد، ديوان ابن فركون، ط ١، تقديم وتعليق محمد بن شريف، منشورات أكاديمية المملكة المغربية، ١٩٨٧م.

- ابن القاضي، أحمد بن محمد المكناسي، ت ١٠٢٥ هـ - درة الحجال في غرة اسماء الرجال، ط ١، ٣م، تحقيق: محمد الأحمد أبو النور، المكتبة العتيقة، تونس، دار التراث، القاهرة، ١٩٧١م.
- القرطاجني، أبو الحسن حازم، ت ٦٨٤ هـ، قصائد ومقطعات صنعة ابن الحسن حازم القرطاجني، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٧٢م.
- القرطاجني، أبو الحسن حازم، ط ٣، منهاج البلغاء وسراج الأباء، تحقيق: محمد الحبيب بن الخوجة، دار الغرب الإسلامي بيروت، ١٩٨٦م.
- القسطلي، ابن دراج القسطلي، ت ٤٢١ هـ - ديوان ابن دراج القسطلي ط ١، حققه: د. محمد علي مكي، منشورات المكتب الإسلامي، دمشق، ١٩٦١م.
- القلصادي، أبو الحسن علي القلصاوي الأندلسي، ت ٨٩١ هـ - رحلة القلصادي، تحقيق: محمد أبو الأجلان، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٧٨م.
- القيسي، عبد الكريم، ت ١٠٠٠ هـ - ديوان عبد الكريم القيسي الأندلسي، تحقيق: د. جمعة شبل ومحمد الهادي الطرابلسي، المؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدراسات، قرطاج، تونس، ١٩٨٨م.
- كثير، كثير بن عبد الرحمن، ت ١٠٥ هـ - ديوان كثير عزة، جمعه وشرحه: د. إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ١٩٧١م.
- الكميت، الكميت بن زيد الأسدي، ت ١٢٦ هـ - ديوان الكميت بن زيد الأسدي، جمع وتقديم: د. داود سلوم، دار جامعة النعمان، النجف، ١٩٦٩.
- المتتبي، أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبد الصمد الجعفي، ت ٣٥٤ هـ - ديوان المتتبي، شرحه عبد الرحمن البرقوقي، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٨٠م.
- مجهول، آخر أيام الخلافة وهو كتاب نبذة العصر في انقضاء دولة بني نصر، ط ١، تحقيق: د. محمد رضا الشاذلي، دار حسان للطباعة والنشر، دمشق، ١٩٨٤م.
- مجهول، الحلل الممثلة في ذكر الأخبار المراكشية، ط ١، حققه: د. سهيل زكار وعبد القادر زمامه، دار التراث الحديثة، الدار البيضاء، ١٩٧٩م.
- المراكشي، ابن عذاري، ت ٦٩٥ هـ - البيان المغرب في اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب، نشره: د. محمد هويس مرانده ومحمد بن تاديت ومحمد الكتاني، دار كريما ديس للطباعة، تطوان، ١٩٦٠م.
- مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج النيسابوري، ت ٢٦١ هـ - صحيح مسلم، شرحه محي الدين النور، ط ١، حققه عرفان حسونه، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٩٩م.

- المقرري، شهاب الدين أحمد بن محمد التلمساني، أزهار الرياض في أخبار عياض، تحقيق: مصطفى السقا، الخرون، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٣٩م.
- نفسه، ت ١٠٤١ هـ - فتح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، ط١، تحقيق: د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٨٨م.
- ابن منظور، أبو الفتح جمال الدين محمد بن مكرم الأفرقي، ت ٧١١ هـ - لسان العرب، دار صادر، بيروت، د.ت.
- الميداني، أبو الفضل الفايوري، ت ٥١٨ هـ - مجمع الأمثال، حققه: محمد محي الدين عبد الحميد، دار المعرفة، بيروت، د.ت.
- الناصري، أبو العباس أحمد بن خالد، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق: جعفر الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، ١٩٥٥م.
- الفويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب، ت ٧٣٢ هـ - نهاية الأرب في فنون الأدب، وزارة الثقافة والإرشاد القومي والمؤسسة العربية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، القاهرة، د.ت.
- الوادي آشي، أبو بكر أحمد بن علي البلوي، ت ٩٣٨ هـ - ثبت الوادي آشي، ط١، تحقيق: د. عبد الله العبدان، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٣م.
- يوسف الثالث، يوسف بن يوسف بن محمد، ت ٨٢٠ هـ - ديوان ملك غرناطة، ط٢، تحقيق: عبد الله كنون، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، دار الجيل للطباعة، القاهرة، ١٩٦٥م.

المراجع الحديثة:

- باشا، نجدة، التجارة في المغرب الإسلامي من القرن الرابع إلى القرن الثامن الهجري، الجامعة التونسية، تونس، ١٩٧٦.
- البستاني، بزر، محلات المحيط، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٨٧م.
- البطل، علي البطل، مورة في الشعر العربي حتى آخر القرن الثاني الهجري، ط٣، دار الأندلس، بيروت، ١٩٩٠م.
- بكار، يوسف حسين، القصيدة في النقد الأدبي القديم في ضوء النقد الحديث، ط٢، دار الأندلس، بيروت، ١٩٩٠م.
- ثقفان، عبد الله بن محمد، الانتماء في الأدب الأندلسي أنموذج فريد، ط١، مكتبة التوبة، الرياض، ١٩٩٦م.
- جرار، صلاح، فهد بن الحمراء، ط١، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٩٩م.

- الجيوسي، سلمى الخضراء، الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، ط٢، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٩٩م.
- حجاجي، حمدان، حياة وآثار ابن زمرك، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر والمؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، د.ت.
- الحجري، عبد الرحمن علي، مع الأندلس لقاء ودعاء، ط١، دار القلم، دمشق، بيروت، ١٩٨٠م.
- نفسه، أناليت، ط١، دار الإرشاد، بيروت، ١٩٦٩م.
- الحنيني، قاسم، الشعر الأندلسي في القرن التاسع الهجري، ط١، الدار العالمية، بيروت، الدار العالمية للكتاب، الدار البيضاء، ١٩٨٦م.
- خفاجي، محمد عبد الحميد، قصة الأدب في الأندلس، ط١، المطبعة المنيرية، الأزهر، ١٩٥٦م.
- الدايدة، محمد رمضان والأدب الأندلسي والمغربي، مطبعة خالد بن الوليد، دمشق، ١٩٨١م.
- نفسه، تاريخ النقد الأندلسي في الأندلس، دار الأنوار، بيروت، د.ت.
- رحبي، مقداد، اتجاهات نقد الشعر في الأندلس في عصر بني الأحمر، المجمع الثقافي، أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة، ٢٠٠٠م.
- الركابي، جودت، في الأدب الأندلسي، دار المعارف، مصر، ١٩٦٠.
- الزركلي، خير الدين، ط١، ط١٠، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٩٢م.
- سالم، السيد عبد العزيز، في تاريخ وحضارة الإسلام في الأندلس، مطبعة شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٩٨٥م.
- شلبي، سعد إسماعيل، الأصول الفنية للشعر الأندلسي، عصر الإمارة، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، د.ت.
- الطوخى، أحمد محمد، مظاهر الحضارة في الأندلس في عصر بني الأحمر، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٩٩٦م.
- الطيبي، عبد الله، الرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها، ط٢، م٢، دار الفكر، بيروت، ١٩٧٠م.
- العبدان، أحمد مختار، مسور من حياة الحرب والجهاد في الأندلس ط١، الناشر منشأة المعارف، الإسكندرية، ٢٠٠٠م.
- نفسه، مشاهدات ابن الأثير الدين بن الخطيب في بلاد المغرب والأندلس، مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر والتوزيع، الإسكندرية، ١٩٨٣م.

- العبادي، عبد الحميد، *الرجل في تاريخ الأندلس*، ط٢، دار القلم، ١٩٦٤م.
- عباس، إحسان، *وأخرون: دراسات في الأدب الأندلسي*، ط٢، الدار العربية للكتاب، ليبيا - تونس، ١٩٧٨م.
- العمایرة، محمد نافع، *مراحل سقوط الثغور الأندلسية بيد الإسبان*، ط١، د.د، عمان، ١٩٩٩م.
- عكاش، فهد، *الشعر الأندلسي نصاً وتأويلاً (١)*، دار النبايع للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ١٩٩٥م.
- عثمان، محمد عبد الله، *لسان الدين بين الخطيب حياته وتراثه الفكري*، ط١، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٦٨م.
- نفسه، *موقف حسان في تاريخ الإسلام*، ط٣، مطبعة مصر، القاهرة، ١٩٥٢م.
- نفسه، *نهاية الأندلس في ريخ العرب المتتصرين*، ط٤، مكتبة الخانجي، القاهرة ومطبعة المدني، القاهرة، ١٩٨٧م.
- نفسه، عبد يوسف، *أصوات الهزيمة في الشعر الأندلسي*، ط١، دار الفكر اللبناني، بيروت، ١٩٩٣م.
- نفسه، *اللون الأندلسي: أثرها في أوروبا القروسطية*، ط١، دار الفكر اللبناني، بيروت، ١٩٩٣م.
- فرحات، يوسف شكري، *غرناطة في ظل بني الأحمر*، ط١، دار الجليل، بيروت، ١٩٩٣م.
- كرد علي، محمد، *الإسلام والحضارة العربية*، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٣٤م.
- مفتاح، محمد، *في سماء الشعر الشعر القديم*، ط١، دار الثقافة، الدار البيضاء، ١٩٨٢م.
- مكي، الطاهر أحمد، *دراسات أندلسية في الأدب والتاريخ والفلسفة*، ط١، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٠م.
- الملايكة، نازك، *قطرات الشعر المعاصر*، ط٧، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٣م.
- النعمة، فيصل علي، *المرآة الشعرية في عصر صدر الإسلام*، ط١، دار صادر، بيروت، ١٩٩٧م.
- نوفل، يوسف حسان، *الصور الشعرية واستحياء الألوان*، ط١، دار الاتحاد العربي للطباعة، مصر، ١٩٨٥م.
- الهاشمي، أحمد، *جوانب البلاغة في المعاني والبيان والبدیع*، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٤م.

- الهرامنة، عبد الحميد عبد الله، القصيدة الأندلسية خلال القرن الثامن الهجري، ط١، ٢م،
كلية الدعوة الإسلامية، ليبيا، ١٩٩٦م.

المراجع الحديثة المترجمة:

- بالنشأ، النخل جثالث، تاريخ الفكر الأندلسي، ط١، ترجمة حسين مؤنس، مكتبة النهضة
المصرية، القاهرة، ١٩٩٥م.
- بول، انتانلي لين، قصة العرب في إسبانيا، ترجمة علي الجارم، دار المعارف، مصر،
١٩٦٤.
- ضيا يان، الأندلس الثانية، ط١، تعريب عبد الرحمن ارشيدات، وزارة الثقافة والإعلام،
الأردن، ١٩٨٩.
- غومب، اميلو غرسيا، الشعر الأندلسي، ترجمة حسين مؤنس، مكتبة النهضة المصرية،
القاهرة، د.ت.
- فيريند، خوان، فضل الأندلس على ثقافة الغرب، ط١، نقله عن الإسبانية: نهاد رضا،
إشبيلية، دراسات والنشر والتوزيع، دمشق، ١٩٩٧م.
- ليفي، هانس، حضارة تعرب في الأندلس، ترجمة فؤاد قرقوط، منشورات دار مكتبة
الحياة، بيروت، د.ت.
- نفس، "حضارة" الثانية في إسبانيا، ط٣، ترجمة الطاهر أحمد مكي، دار المعارف،
مصر، ١٩٦٦.
- نيكل، مختارات من الشعر الأندلسي، دار العلم للملايين، بيروت، د.ت.
- الرسائل الجاهلية:
- أحمد، أبو بكر، الحياة السياسية في دولة بني الأحمر، رسالة ماجستير،
الجامعة الأردنية، الأردن، ١٩٩٧م.
- جمال، محمد نجابر عبد المعطي، شعر الجهاد في الأندلس في ظل بني الأحمر، رسالة
ماجستير، الجامعة الأردنية، الأردن، ١٩٨٦م.
- حمد، حجاج، دولة آثار ابن زمرق شاعر الحمراء، دكتورا دولة، جامعة الجزائر،
الجزائر، ١٩٨٥م.
- روض، أحمد، اتجاهات الرثاء في القرن الثالث الهجري، رسالة ماجستير، جامعة
دمشق سوريا، ١٩٨٣م.
- سراج، يحيى، الغزل في الشعر الأندلسي في ظل بني الأحمر، دكتوراه، جامعة دمشق،
سوريا، ١٩٩٤م.

- الربيع، ابن سلامة، أدب المحنة الإسلامية في الأندلس، دكتوراه دولة، جامعة الجزائر، الجزائر، ١٩٩١م.
- عبد الله محمد الزيات، رثاء المدن في الشعر الأندلسي، رسالة ماجستير، جامعة قارويون، بنغازي، ليبيا، ١٩٩٠م.
- فاروق موسى إبراهيم، أثر المتنبي في أشعار ابن هاني وابن زمرك، رسالة دكتوراه، جامعة برين، سوريا، دون تاريخ.
- فاطمة طحطح، الفدوية والحنين في الشعر الأندلسي، رسالة دكتوراه، جامعة محمد الخامس، الرباط، المملكة المغربية، ١٩٩٢م.
- مشهور عبد الرحمن حسين الحباري، ديوان أبي الحسن بن الجياب، رسالة ماجستير، الجامعة الأردنية، الأردن، ١٩٨٣م.
- محمد السيد عروم، خصائص الشعر الأندلسي في عصر غرناطة، رسالة ماجستير، جامعة البعث، سوريا، ١٩٨٦م.

الرسائل الجامعية الأجنبية:

- Salah Mohd Mohd Jarrar, Literature and Literary life in medieval granada (١٢٣٨-١٤٩٢) And their relation to state politics, presented for the degree of doctor, University of London, England, ١٩٨٢.

الدوريات

- بلاشير، وحسن، التوزيع الشاعر ابن زمرك وأثره، تعريب: محمد العجيمي، مجلة حوليات الجامعة اللبنانية، بدون تاريخ، العدد الخامس والعشرون، تونس، ١٩٨٦، ص ١٤٣-١٥٣.
- خريوش، حسان يوسف، دراسة الجانب الفني في المراثية الأندلسية مجلة المعرفة السورية، بدون تاريخ، العدد ٢١٦، السنة الثامنة، عشرة، دمشق، ١٩٨٠، ص ١١١-١٢١.
- الخطابي، محمد العربي، الأهل والفروسية في مؤلفات الأندلسيين، الأكاديمية، بدون مجلد، العدد ٨، غرب، ١٩٩١، ص ٨١-١٠٠.
- دندش، عبد الله، من مظاهر الحياة الاجتماعية بالأندلس، طقوس الجنائز، مجلة دراسات أندلسية، العدد الثالث عشر، تونس، ١٩٩٥، ص ٢٠-٣٥.
- زمامة، محمد القادر، أم القاتل بن الأحمر، مجلة البحث العلمي، بدون مجلد، العدد ٢، السنة الأولى، ١٩٦٥، ص ٢٥٤-٢٦٧.
- زمامة، عبد القادر، نحن نسي لم ينشر، مجلة المناهل المغربية، بدون مجلد، العدد ٢٦، السنة الأولى، الرباط، ١٩٨٣، ص ٢٩١-٢٩٧.

- طحطح، فائز، الشعر الأندلسي في عهد المرابطين، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، بدون مجلد، العدد الثالث عشر، الرباط، ١٩٨٧، ص ١٢٣-١٣١.
- شبانة، محمد، الحالة الاقتصادية بالأندلس خلال القرن الثامن الهجري، مجلة البحث العلمي، بدون مجلد، العدد ٨، السنة الثالثة، الرباط، ١٩٩٦، ص ١٣٦-١٥٠.
- أبو الشعر، محمد، دراسة اقتصادية واجتماعية لمملكة غرناطة، راية مؤتة، جامعة مؤتة، المجلد الأول، العدد الأول، الأردن، ١٩٩٢، ص ٣٤-٥٢.
- شقور، عبد الله، ما لم ينشر من إحاطة ابن الخطيب، مجلة دعوة الحق، بدون مجلد، العدد ٢٥٩، الرباط، ١٩٨٦، ص ٨٨-١٠٠.
- الشهابي، محمد، تأثير العرب والعربية في الفلاحة الأوروبية، مجلة مجمع اللغة العربية، المجلد ٣٦، العدد ١، دمشق، ١٩٦١، ص ١٨٠-١٨٥.
- العبادي، أحمد، الأعياد في مملكة غرناطة، مجلة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد، المجلد ١٤، العدد ١، مدريد، ١٩٧٠، ص ١٣٣-١٤٩.
- عباس، إبراهيم، تلك الأديبي في الأندلس، مجلة الأبحاث تصدرها الجامعة الأمريكية، بدون مجلد، العدد ١٠، عشرة، الجزء ٤، بيروت، ١٩٥٩، ص ٥٠٩-٥١٣.
- عباس، إبراهيم، الأكلة الموت في الفكر الإسلامي، مجلة الأديب، المجلد ٢٧، السنة الرابعة عشرة، العدد ١، مايو، ١٩٥٥، ص ٣-٦.
- العطار، محمد، سقوط غرناطة وأسلوب بدائع السلك، مجلة فصول، المجلد الثاني عشر، العدد الثاني، بيروت، ١٩٩٣، ص ٢٣١-٢٥٧.
- المعطاني، محمد، ابن سالم، المنظور الحضاري للتراث الأدبي في الأندلس، مجلة حويات، الجامعة، بدون مجلد، العدد ٣٥، تونس، ١٩٩٤، ص ١٤٣-١٤٦.
- مفتاح، محمد، مفهوم الجهاد والإتحاد في الأديب الأندلسي، عالم الفكر، الكويت، المجلد الثاني، العدد الأول، ١٩٨١م، ص ١٧٥-٢٠٠.
- مكي، أحمد، الأديب الأندلسي يحدد الأسباب: ضياع العصبية والانغماس في النعيم، مجلة المعرفة، بدون مجلد، العدد ٦٨، السعودية، ٢٠٠١، ص ٢٣-٢٨.